

الإسلام الباطني في السودان حركة الزبالة

محاسن زين العابدين عبد الله

الحضارة للنشر



محاسن زين العابدين

- بكالوريوس الشرف في التاريخ جامعة الخرطوم ١٩٧٩.
- دبلوم الإدارة العامة معهد الإدارة ١٩٨٠.
- ماجستير الإدارة العامة جامعة الخرطوم ١٩٩٠.
- ضابط إداري بمجالس الحكم المحلي بالخرطوم ١٩٨٠ - ١٩٩٠.
- محاضرة بجامعة أم درمان الأهلية ١٩٩٠ - ١٩٩٥.
- العمل لدى مؤسسة قطر للتربية والعلوم وتنمية المجتمع منذ العام ١٩٩٦ وحتى تاريخه (باحث وأمين مجلس الأمناء ثم رئيسا لقسم السياسات والمتابعة).
- المشاركة في العديد من المؤتمرات وورش العمل.
- لها العديد من الأبحاث وأوراق العمل.
- ناشطة في العمل العام وفي مجال تنظيمات المجتمع المدني.



الإسلام الباطني في السودان حركة الزبالة

محاسن زين العابدين عبدالله

من إصدارات مكتبة المرحوم جعفر حسن عباس العامة
مشروع المعرفة للجميع

محاسن زين العابدين عبدالله: الإسلام الباطني في السودان
حركة الزبالة

الحضارة للنشر
٧ شارع أبو السعود - الدقي ١٢٣١١ - القاهرة

Al-Hadara Publishing

7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 3761 94 39
Mobile: (20-122) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الأولى: يوليو ٢٠١٢

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٣٨٧ / ٢٠١٢
I.S.B.N. 978-977-476-135-2

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة

الإسلام الباطني في السودان حركة الزبالة

محاسن زين العابدين عبدالله

إهداء

إلى كل من علمني حرفاً وورساً في الحياة..

وإلى أحبائي الذين زينوا لي الدنيا ورحلوا تاركين آثارهم كما زلخراً من الجمال..

شيخنا التقى الورع السمع الشيخ زين العابدين بن الفكي عبرة لنا..

عزيزة النفس جميلة الحلقة والأخلاق الحاجة نفيسة محمد خير..

والنبيل الجميل جعفر حسن عباس الذي أثار المغامرة مبكراً..

وإهداء خاص للإبني وضاح جعفر حسن عباس..

شكر وتقدير

منذ ما يقارب ثلاثة عقود، بدأت في البحث عن حقيقة الزبالة. وكان أول ما قمت به، جولات ميدانية بمعينة الدكتور عبد الله على إبراهيم، ورفقة الباحث المرحوم الطيب محمد الطيب في منطقة الجزيرة، وعلى وجه التحديد ضاحيتي حنتوب وأبو حراز والقرى المجاورة لها.. لقد كانت بحق جولاتٍ ورحلاتٍ جذّ ممتعة، إلى مناطق أحفاد الزبالة في المناطق الممتدة على طول النيل الأزرق، ابتداءً بود مدني وضواحيها، مروراً بسنار والحاج عبدالله، إلى مدينة سنجة وما حولها. استقبلي أتباع وخلفاء الزبالة بحفاوةٍ بالغةٍ تجسّد فيها كرم أهل البادية.. حيث لم يُخفوا سعادتهم ورغبتهم في الإفصاح لأجل التوثيق لتلك الجماعة.. لقد استغرقت رحلتي إلى المنطقة المذكورة، الأسبوعين الأخيرين من شهر أبريل لعام ١٩٨٢، ولا أدري أين يكون هؤلاء الآن؟ وأشعر بالتقصير حيال متابعة رواياتهم الشفهية على أهميتها الشيخ النور بن الشيخ أحمد بن الشيخ البدر بن الشيخ الزاكي بن الشيخ فارس بن الزين بن سرور بن عامر بن آدم خليفة الزبالة حينها بقرية الجزائر، والشريف الإمام بن الشيخ البساطي بن محمد بن البساطي خليفة الزبالة في ذلك الوقت بقرية خدر، السيد العجبة محمد أحمد حفيد الشيخ أبكر مؤسس الطريقة، وقد تخرّج هذا الأخير في جامعة الخرطوم، وعمل موظفاً بوزارة الخدمة العامة والإصلاح الإداري. وممن قابلت، السيدة فاطمة بت أحمد ود خدر ود أحمد ود النور من حلة خدر بتاريخ ١٩٨٢/٤/٢٤. كما تتالت لقاءاتي، من لدن السيد نايل ود المك حسن عدلان، إلى شرف الدين المبارك، وعثمان السنوسي من سنجة، فالعابد متولي التجاني بمدينة سنجة.. هؤلاء قابلتهم جميعاً في يومي ١٨ و ١٩/٤/١٩٨٢، ومن بعدهم: الشيخ الخير من قرية ود بريمة، والشيخ إدريس مصطفى الأزرق بمدينة سنجة ١٩٨٢/٤/٢٠، والشيخ الشريف النور ود الشريف محمد الأمين الخاتم، والشيخ فرح القاسم ود الجيلي من قرية كساب الجعليين بالقرب من سنار، وقد زرناه في ١٥/٤/١٩٨٢، وعبدالله عامر الزين من كنانة البلياب، والتعيم ود يحي من عمارة فقدة قرب الحاج عبدالله، والطيب البشير موظف بالمعاش كناني من سنجة، والأمين بابكر المصباح من قرية الربوة، ويوسف حسين من الشكابة، والشيخ محمد عبدالله من سنجة، والشيخ الثوم ود بانقا، والشيخ الرضي ود الضو، والسادة العركيين ممن هم في معية شيخهم عبدالله بن يونس العركي بقرية أبو حراز.. والشريف الهندي وأتباعه في المنطقة،

وهناك آخرون كثر لم تسعفني الأوراق القديمة في تبين معلوماتهم بشكل دقيق، فأثرت إبعاد أسمائهم، فلهم جميعا الشكر والتجلة على استقبالهم وسعة صدرهم وحفاوتهم.

جزيل شكري، أسديهِ لأستاذي الدكتور عبدالله علي إبراهيم، أدام الله ظله. وعظيم تقديرِي، أوليه لأستاذي الباحث العالم الطيب محمد الطيب، طيب الله ثراه.. إذ رافقاني في رحلة البحث الميداني. وكان لرفقتهما وتوجيههما دور كبير في متعة البحث، فكلاهما باحث مغرم بالتراث وبالحكي. وجميل عرفاني، أزجيه لأستاذي الدكتور محمد سعيد القذال طيب الله ثراه، بقدر ما ساهم في مراجعة هذا البحث. وعزيز امتناني أوفيه للدكتور بشير إبراهيم بشير رحمه الله رحمة واسعة.

وإن أنسى لا أنسى يد الفضل التي أولانيها الأخ الكريم، زميلي محمد عباس، الذي استضافني بين أسرته في مدينة سنار، ويسر لي أسباب التنقل في المنطقة.. وشكري يمتد لزملائي من الضباط الإداريين بمدينة مدني فقد كان لمساندتهم دور كبير في تيسير التنقل والمقابلات بين مسائد المنطقة في منطقة أبو حراز والمناطق حولها امتدادا حتى الحاج عبد الله وغيرها، كما أشكر كل من قرأ وراجع هذا البحث: الأخ الفاتح عابدين السيد الأمين كاكوم والأخت سيزا الطاهر.

محاسن زين العابدين عبدالله

الدوحة ٢٠١١

الزبالعة: من شخير التاريخ إلى صحوه

عبد الله علي إبراهيم

لا أعرف من بين الكتب من أَرْضَى خاطري حتى بين كتبي مثل هذا الكتاب الذي بيدك أيها القارئ. فقد كان لي بعض فضل وجوده. وسرني لأنه أحسن إلى سمعة جماعة أبي جريد الصوفية التي اشتهرت بين خصومها بـ"الزبالعة" وساء ذكرها. وهي الجماعة التي نشأت في أوائل القرن السابع عشر الميلادي في قرى النيل من حول مندي وباديته. وكنت أقرأ عن الطريقة اتهامات لها بركة الدين والفجور ما لم ينهض عليه دليل. واستهجنه. وكنت فرغت من التعميد لنقض مثل هذا التاريخ المجاني خلال رسالتي للمجستير في التاريخ الشفاهي التي صدرت لاحقاً في كتاب بعنوان "قرسان كنجرت: ديوان نوراب الكبابيش وعقالاتهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" (١٩٩٦). ففيها وجدت المؤرخين يأخذون برأي المهديّة في خروج الكبابيش عليها وهو الكفر. وأتيح خلال عملي الميداني مع مؤرخي الحقل، مؤرخي الكبابيش، أن أعرف أن لـ"عصيانهم" وجهاً آخرًا لم يكثر له المؤرخون والترموا بما وجدوه في أرشيف المهديّة التي هي بالطبع سيئة الظن بمن قاوموها. ودعوت في ورقة قدمتها للمؤتمر المنوي على مرور ذكرى المهديّة (١٩٨١) إلى وجوب اعتبار مشروعية المعارضة للمهديّة. ويستوجب هذا غشيان أرشيف السودانيّين التاريخي للشفاهي بعد العكوف على دفاتر المهديّة.

جامعتي، وأنا على هذا المزاج التاريخي المُستفّر، المؤلّفة، السيدة محاسن زين العابدين، في نحو ١٩٨١ نسّسّيرني في موضوع لكتابة ماجستير في التاريخ من كلية الآداب بجامعة الخرطوم. وقلت لها بلا تردد "الزبالعة" لأنه سيلقي عليك تحدياً لا أعرف أن يلقّيه سواه. فقد اكتنفهم ما اعتقدت أنه سوء فهم عظيم يشحذ الآلة القصوى في المؤرخ في التّرام للحقيقة من جهة سعة الاستقصاء وانضباط المنهج وسماحة الخاطرة. وسيجعل تجربة الباحث الأكاديمي الأولى لا تتسى ولبنته الأولى في وظيفة ناجحة في طلب المعرفة.

وعلمت لاحقاً عني كمؤرخ "راجل" (من يسير على رجليه في معنى الكدح لا "راجل" (الرجل) ما لم أعلم يوم جامعتي محاسن. فكنت تجاذبت الحديث مع الأستاذ

الطبيب صالح على هامش مؤتمر الجمعية للدراسات السودانية بالولايات المتحدة. وبلغنا حديث: "أنت وين في الأهل؟" فقلت له أنا من بادية قرية القلعة - جلاس والبرصة بريف مروي. فقال: هذا قريب من دار السادة العجيبة. قلت: نعم. وهم المترة (الساقية) التي بعدنا مباشرة على درب الترك، ونحن أهل. قال ربما يفسر هذا نزوعك للخلاف مع المألوف ومفارقة السلطان. قلت له: ربما. غير أنه لم يخطر لي هذا الجذر العجيمي في تكويني الثقافي من قبل. فقد لقي الفقير (وهذا لقبه) (١٩٥٣-) من عنت الختمية الغزيرة المعززة مشاكلا، اتهموه بمثل ما اتهموا الزبالعة من رقة الدين بل بالإنكار وفساد مجالس الذكر. وجريرة الفقير طلبه الولاية والإرشاد من غير إرث. فهو من غمار الناس. ولم يقبل سائر أهله الختمية بذلك وناله من أذاهم الشيء الكثير. وانكر ما أزال طفلا كيف كان شباب الختمية لقرية القلعة يتوقعون بدقة رياضية عند جامع الفقير في سياحاتهم شمالا وجنوبا لإحياء ليالي الختمية المحصورة لينشدوا في ما يشبه التظاهرة: 'يا منكرين فوبلكم عكرت عواصف ليلكم'. والمنكر هنا هو الفقير وصحبه (وعرفوا بـ"الإخيان" وهي جمع لتصغير "أخ" "إخي") الذين خرجوا على الختمية الجامعة المانعة وسنعود إلى طرف من خبر طريقة الفقير، العجيبة، حين ندخل في جدل أبي جريد وخصومه.

• • •

لم يسبق لغير محاسن ممن كتبوا عن الزبالعة هذا الكتاب الذي شك في ما عرف عنهم وهو قديم ومختلط ومستهلك. بمعنى أنه لم يتجدد بكشف من وثائق أو بحث مبتكر. فأنقطع الزبالعة عن نهر التاريخ ليعطنوا في بركته. وصارت "الزبالعة" ومشتقاتها صنوا لركة الدين بل فساد بالكلية. وتنزل فساد دين الزبالعة المزعوم حتى قال الطبيب محمد الطيب إن مذهبهم صار عنوانا له وشاع التحذير من إتباعه في العبارة الدارجة. فأنت تسمعهم يقولون: 'يا ولد ما تربلع، خلي الزبلعة، واحد زبلعي ساكت ما تسمعو كلامه'. وتسرب هذا الظن السيء في الزبالعة من الخاصة للامة. فقد وردت "زبلعة" في كتاب "طبقات ود ضيف الله" أكثر من مرة. فمن المشايخ من سلك الناس طريقه وأمرهم بترك الزبلعة. وأشار ود ضيف الله، مؤلف الطبقات، بأنهم "كهنة وسحرة". والطريقة عند إبراهيم صديق، الذي نشر "طبقات ود ضيف الله" في الثلاثينات، عنوان لعدم الاستقامة والشعوذة واستعمال التكهن، وسلوك الطريق التي لا ترضي الله سبحانه وتعالى بترك

أوامره واجتتاب نواهيه. وشاع عنهم أنهم فساق يعملون المناكير ويبيحون الفحشاء مع النساء، وشاع عنهم أنهم "العكليّة" وهم قوم بغاة غصاب خارجون عن طاعة الحكام في السودان شأنهم النهب والله أعلم". أما نعوم شقير، الذي هو العمدة في كتابة التاريخ أو قراءته لمن لا يحسنون غير العربية، فقال عنها إنها خارجة عن الدين الإسلامي لا تعرف غير أبو جريد نبيا، ولا تؤمن بختام النبوة لسيدنا محمد "ص"، ويذكر بأنهم يجتمعون للأنكار مساء كل أحد وثلاثاء ويرددون في أنكارهم "لا إله إلا الله أبو جريد نبي الله".

ولا أعرف مؤرخاً تضايق من موضوع درسه مثل محمد عبد الرحيم. فالزبالعة عنده ثمرة بغیضة لحقيقة أن السودان "مئوى للترهات ومستودعا لغريب الخزعات". فشيخهم، أبو جريد، من جماعة كنانة، كان "أمياً لا يعلم شيئاً ولكنه نو دهاء ونكاه تظاهر بميله الديني". ولم يتمهل المؤرخ فأتهمه بالفحش. فهو يعقد الذكر "في جنح الظلام" يحضره أتباعه من النساء والرجال ويتواجدون ثم "يطفيء الرئيس المصباح وهناك يأخذ كل رجل التي تليه من النساء حيث يباح لها وطؤها" ثم يتفرقون. ووصف الزبالعة بالضلالة وأنها مثل البابكة المنسوبة إلى بابك الخرمي في أنزريجان. وأباح الحرمات. غير أنه، خلافاً للزبالعة الذين شاع الفساد بينهم بالتراضي، كان مغتصباً. إذا بلغه وجود امرأة جميلة أحضرها فنال حظوة منها أو قتلها. ثم عاد المؤرخ وقال إن للزبالعة أيضاً ليال اجتماع فيها الذكر والفسق. ولفت إلى ثقافة العطر للرجال بينهم فاقت ثقافة نسائهم. فالرجل يصافح الرجل منهم ويستششق ظهر كفه بدلاً عن تقبيلها. وقال هذا ما اعتاده السادة العلويون في جاوة الأندونيسية وحاربه الأستاذ الداعية السوداني أحمد سوركتي. وأقرب ما اتصل محمد عبد الرحيم بهم هو إيراده مقطع من نغمهم هو: وا وجدي وقت أطرى علي الله. وقال إن ذلك من تشيعهم فيؤلهون علياً كرم الله وجهه. وتحتمل العبارة أن تكون "على الله" أي "لأجل الرب".

واستنفر عداة الزبالعة، في قول المؤرخ، القوم لحربهم وتآلف مجلس من العلماء من مثل الشيخ سالم ود رابح الدويحي والفقير المصري ولد قنديل البديري والفقير عمر جاه الله. وبرز إلى حرب الزبالعة أحمد سليمان (الملقب بقرن العلج) مك الجموعية. ولكنهم قتلوه في وادي الكوب قريباً من محطة الباكير. وقام المك المحينة في مكانه

فأستغفر القوم فجاءه الجميعاب بقيادة نائل أبي صغيرة والسروراب والفتيحاب والعبدالاب بقيادة عبد الله ولد عجيب راس تيرة والفونج بقيادة أبو ريدة خميس ورحمة ود رحالة. وانهزم الزبالعة بعد حرب شرسة وطاردهم الخصم حتى نهري ستيت وباسلام وجنوب كسلا. ولم يعودوا إلا بعد الغزو التركي في ١٨٢١. وقل أن يكون أمر من اجتمعوا اجتماع الأقوام التي فصلها محمد عبد الرحيم على الزبالعة كله لله. ولم يغمد المؤرخ التاريخ في الحادثة ليردها إلى صوابها في معاش الناس وتدافعهم... لا لاهوتهم. وأغرب محمد عبد الرحيم عن الزبالعة باستعداده الكبير لمقارنتهم بمن اتفق له من الشيع. فبدل أن يرد عنهم ما لا يتفق والحقيقة، متى تحراها مستقلا عن التقليد التاريخي الذي اكتنفها، زادها إغرابا بمقارنات عقدها مع حركات قال بمماثلتها لها جزافا مثل البابكية أو السادة العلويين. فلم نعد نعرف ما للزبالعة وما ليس لها.

وليس الزبالعة بسعداء. فقد سنحت لهم فرصة بالقسط التاريخي فأنتهم كغيرها. فقد عالج شقا من أمرهم الإثنوغرافي المصقع الطيب محمد الطيب من كان شغله قاطبة رد الاعتبار الثقافي والتاريخي لجماعات شقيت ب"الفكرة". والفكرة عندي أن تحيل حياة أناس أو مؤسسة فولكلورا أي إلى إنتاج يكون تعاط الثقافة أو تذوقها في الدرك بالنظر إلى تراتب في الشوكة السياسي. فتقافة ما مثل الثقافة الغربية لا تربي أطفالها بصورة أفضل بصورة مطلقة عن ثقافة شرقية فحسب بل هي الثقافة وما عداها فولكلورا. فنحن هنا لسنا في موضع مقارنة "ثقافية" مجردة بين سداد أي من التريبتين. فواقع الأمر أن هنا ثقافة لها السلطان قررت بمحض الشوكة أن أطفالها هم الذين يلقون التربية المثلى وما عداهم كان لم يكونوا. وهذه مادة للحزاة والاستكبار لا مادة للقسط أو النصفة. فالطيب رد الاعتبار لـ"الإنداية"، بار المدن والقرى، المنفية عن جغرافيا المدن وجغرافيتها حين كشف عن العوالم الإنسانية الغنية التي تمور فيها، والبشر الشيقون الذين يتخبطون في جنباتها. لقد رد لها هذا الاعتبار حين أخذ القارئ منه فاستصحبها وعلم منها عن كتب ما كان لا يعلم.

وأحزنني أن الطيب إضطغن كمؤرخ للثقافة على الزبالعة وأخذ عن من سبقوه غالب سوء ظنهم في دين الجماعة ورقته. وسبب حزني أن الطيب كان الوحيد الذي اقترب من الزبالعة وكان بوسعه أن يوثق معرفته بهم بملكاته الإثنوغرافية المتفق عليها.

فقد زارهم في قراهم في ١٩٧٥ عرضاً ولم يأت بسيرة لأي شغل ميداني وسطهم. وربما شغف الطبيب بفرح ود تكتوك، الذي كتب عنه كتاباً مشهوراً، ويتداول عنه السودانيون نصوصاً درامية أسرة، شغفاً قيده بوجهة نظره فيهم بحذافيرها. وقال إن فرح كان الجناح الفكري للحملة التي قادها رجال الدولة وأنه لجم نفوذهم. وأنهم استفزوه كلما لقيوه فصبر عليهم صبر ولي على سفهاء. وناظر زعيمهم الشيخ كرين وأورد النص المحفوظ من المناظرة بدا فيه الشيخ فرح في صحيح العقيدة والزبالة خامسية ضالة:

كرين: نحن لم نخالف السنة والكتاب يا فقير، نحن نصلي ونصوم.
فرح: أريت صلاتكم ما صلاتي، المتروكة للبرد الشتائي (تؤجل متى سقط الجو).

* * *

لم تبتدع محاسن تقليد نصف الزبالة من شأنينهم. فقد سبقها إلى ذلك الشيخ خوجلي أبو الجاز بطريقة لبقة لطيفة. فحين ذاع أمرهم وأقض المضاجع كتب الشيخ حمد ود أم مريوم بشكوى لسلطان العبدلاب بقري المحروسة الشيخ عبدالله ود عجيب فحواها أن خوجلي، الذي يعظمه السلاطين ويكرمونه ويحترمونه وينادونه بعظيم توتي وكبيرها، لم يتحرك لمحاربتهم، فكتب ود عجيب لخوجلي يسأله عن صحة الشكوى. فرد الشيخ قائلاً: من بعد التحية والتعظيم والاحترام تسألني عن الزبالة ودخولهم توتي فأقول "عيني ما شافت أضائي ما سديتا أحمد ولدي أكان إزبلع ما خصائي وحمد أخويا ما بكضب".

ربما لم تبلغ محاسن براءة خوجلي الجذرية في "دعه يعيش، دعه يرى" الليبرالية" (وأصل "الليبرالية" الأريحية قبل أن تلتبس اللفظة بالسياسة ومذاهبها). فمحاسن أحياناً تعلق التهمة المأخوذة على الزبالة كأنها قد تثبت بعد كل هذا الزمن الذي وضعت فيه بيدنا مبحثاً حسن التأسيس في العمل الميداني لم يقبضهم متلبسين بالذنب التاريخي. فكل من كتبوا عن الزبالة لم يقفوا على أدبهم الذي هو صريح جداً في التوحيد بالله ونبوة صلي الله عليه وسلم. فمن نغم مديحهم ما نقلته محاسن:

الله هو الكبير في علاه

هو المعمر الدنيا

أوجد الخلود برضاه

.....

الذبيان مع الخلفاء والرسول مع القطباء
وصبر على الجاياء
وحمد الله فيما أعطاه
أصبحت قريش مابياه
قالوا ده كلامه براه
سبعمائة سنة وعامه
عاد مئين مشاها وجاء

وهذه المقاطع أيضا:

بسم الله للبداية
وبداية مو نهاية
العارف خطاي
بغفر لي أساي
شوقي وأشوقي
شوقي للنبي أي الهيبة
ختم الأنوار
دة سيدي نور طيبة

والكاتبة واثقة من براءة الزبالة من وصوف الدرجة عنهم متى استعصمت
بنصوص عملها الميداني غير المسبوق. فقد خلصت من النظر في هذه النصوص إلى
القول "إن معتقدات جماعة للزبالة لا تخرج في إطارها للعام عن الإسلام، بل هي
طريقة لها خصوصيتها الموضوعية ضمن الإطار الإسلامي العام".

وطالما توقفت محاسن عن إثبات الإباحة على الزبالة (دون أن تيرئهم بالكامل)،
ورجحت أن بداوتهم وكامل مواطنة النساء في جماعتهم هما ربما من وراء الطعن في
خلق الزبالة الديني، كان يمكن أن ترجيء النظر في الحيثيات حتى تتوافر لها هي أو

لباحث آخر القيام بالأمر على بينة. فقالت إنه ربما أضرت أمية الزبالعة وجهلهم بالدين بقوامهم الديني. ومعلوم أن الطرق سائرهما، لتقشي الأمية، قائم على ولاية الشيخ عن المحبين.

والمؤلفة شديدة الاعتقاد، من فوق معرفة بالزبالعة لم تتوافر لغيرها ببراءتهم من مزاعم فساد الدين، إلا أن الشك فيهم يساورها. ونسبت ذلك أحياناً للمتطرفين منهم والاتجاذب والجهل بالدين. قالت "وقد تملكنتي الحيرة وأنا أستمع لنعم من أنغامهم لأنه يحمل في باطنه نقداً بانناً لبقيّة الشيوخ"، فهل كان المقصود بالنبي في هذه المقاطع النبي محمد عليه السلام أم شيخهم أبو جريد، ونقول الأبيات:

أنا ببابي للغالي
للنبي جبر حالي
لا فكي ولا قاري
حاشا ما هو عنقالي
لا بيللم أموالي
وللمضيقة حلالي.

وزادت بأنها تؤكد أن هذه المظاهر سواء كانت فردية أو تصدر عن مجموعة، فإنها لا تتفي رأينا القطعي في أن جماعة أبو جريد هي طريقة تأسست ضمن الإطار الإسلامي، وضمن معطيات ومقومات انتشاره في تلك الفترة، ولم تكن ملة خارجة عن الإسلام سواء أكان ذلك عن جهل أو بوعي مدرك.

ولسنا نعرف لماذا حجت محاسن تمام براءة الزبالعة من الفحش. فهي فعلة لا أحد تأكد من ممارستها فوق الشبهة. فهيللسون لم يثبت السمعة بالإباحة الجنسية ولم ينفها. وسنخوض في أعراض الناس في شأن بهذا الحرج هدرًا لو لم نقطع إن كان فعل الفحش يحدث بعد الذكر من كل أسبوع في قول البعض أو أنه يحدث مرة في العام في اجتماعهم السنوي. ويقول الزبالعة إن الإباحة، لو وقعت، لكانت في الماضي. وليس يصح أن يعلق شرف جماعة مسلمة لتخرسات بلغ من ثقل وزرها واستبدادها أن التمس على الزبالعة أنفسهم ماضيهم.

* * *

وستبقى مساهمة محاسن الكبرى في دفع الافتراء عن الزبالة في تنبيه من سيعقبها على الموضوع إلى سبيلين سيكون فيهما ربما تحرير الطريقة من ربقة التاريخ لو تحريناها. وأول هذه السبل أنها طريقة غلب البدو فيها حتى أن الأب جيوفاني وجد في ١٨٥٥ شيخهم لم يتفرغ لدوره الديني على غير عادة الطرق. فليس بغير دلالة ربما أن الزبالة عابوا على الشيخ فرح أنه "رفيق الزراع". فلربما تضمنت الطريقة حماية ثورية بدوية على سلطنة سنار. وصح أن ندرسها في سياق الاقتصاد السياسي لـ "الأشقياء" وهي ما يصف به السلطان ثوار البادية أو العربان. وهي ثورات على إهانة شطط مكوس الدولة التي أحصيت نحو ١٣ ضرباً منها. وتشتأثر تلك الدولة بطريقها على الفائض الاقتصادي لإشباع غرائزها في التمتع والراحة. وكنت كل ما قرأت ما استورده سلاطين الفونج والفور وغيرهم من مصر بالقوافل استغربت لغلبة البضائع الترفية للتفاخرية بينها. وهي بضائع ندفع لها بتصدير الرقيق والعاج وريش اللعنام. وكان جمع هذه الطلبة أوجع. فمتى فشل عربان ما في دفع الطلبة بعث لهم الحاكم بتجريدة إما أخذت الضريبة وما فوقها بالتعصب إما أخذت شيخهم رهينة. ومن حق الحاكم "العظم" وهو أن يحيل لمصلحة شيخ أو ولي ضريبة الخالفين. فلربما نشأت الزبالة في اقتصاد "الأشقياء" للسياسي لدولة الفونج وتمرد به عربان على الدولة تمرداً أقض مضجعها وعبأت له تلك القوى فنازعوها حتى كانوا يهزمونها. والناظر إلى قوى الحلف الباغض للزبالة رأى أنه قل أن يجتمع على صحيحة في الدين. وإنما هو سيف آخر للملك كثر امتشاقه للسلطان لا للقرآن.

وسيكون من المثير أن نعرف جذور وامتدادات تلك الجنوة الثورية في الزبالة. وربط محاسن للزبالة والشاذلية يغري بذلك. فهم كانوا في البدء شاذلية. فحدثوا هيلسون بأن طريقتهم "شاذلية تقوم على سلسلة قوية من التقاليد تصلنا عبر سيدنا (من هو؟) وترجع مباشرة إلى الإمام الشاذلي". واتفق لهيلسون أن الذكر بأوراده الشاذلية كان متبعاً بين الزبالة خلال فترة المهديّة ومرحلة الحكم الإنجليزي. وقيل إن شيخهم المؤسس، آدم أبو جريد، كان شاذلياً قبل أن يفترع طريقه الخاص. ومن الثابت لدي الكاتبة أن الزبالة انضمت للمهديّة واشتركت في معاركها واستبسلاوا واستشهدوا في مسارح عملياتها الوطنية. وثبتت منهم جيوب في شرق السودان نتيجة لاشتراكهم في جردات المهديّة بتلك الناحية من القطر. وربما دخلوا المهديّة تحت راية "قبائل" دغيم وكنانة التي غرد مداح المهديّة ببسالتهم وصنق عزيمتهم وقوة بأسهم حتى سميتهم في

مرة بـ"بروليتاريا" الثورة المهدية. وعلى أننا لم نقف بعد على تاريخ مخصوص لثورية الشاذلية إلا أن تحول المجاذيب الشاذلية في الدامر إلى المهدية وبذلهم في سبيل الله، مما غرد به محمد المهدي المجذوب في "نار المجاذيب"، يغرى بالقول بأن الزبالة الشاذلية انطوا على تقليد ثوري أزج الدولة وحلفائها بين مشايخ الدين. وسننتظر بحث آخر في المسألة حتى نستتب ما يمكن استنباطه من المتواتر عن لقائهم بالمهدي وقولهم: "إهدنا" فرد عليهم بقوله: "أهديكم من شنو ما أصلكم مهديين".

أما السبيل الأخرى لفض مغاليق ذائعة الإباحة الجنسية عن الزبالة فهي اعتبار الدور المقدم للمرأة في الطريقة. فمرتبة المرأة المساوية للرجل في الطريق ربما كانت سبب تشوش خصومهم وشكهم في خلقهم بغير سبب وجيه. فقالت محاسن إن المرأة بينهم لم تنفرد بحق الانتماء العام لهم (ملازمة خدمة الحيران والذاكرين والضيوف) فحسب بل بحق الذكر أي أن تكون في حلقة الذاكرين. ومتى جاءت المرأة إلى موضع جاءت بأشائها من طيب وملبس حسن. وذلك كان دين المرأة في طريق الزبالة.

وكنت اقترحت على محاسن أن تقف على حقيقة تهم الإباحة الجنسية الموصوم بها الزبالة بالنظر إلى طرق أخرى حامت حولها الشبهة والتهمة. ففي بدء عملها زكيت لها أن تزور الشيخ عبد الباقي العجمي، شيخ الطريقة العجمية بالخرطوم، لأن طريقه ممن قويت الآراء في تحله في الذكر في الخمسينات ولم يعد. وكما مر كان شباب الختمية يصرخون بكفر العجمية في وجوههم كلما مروا بمسجدهم.

وقد حدثنا الشيخ حديثاً ذكياً ثاقباً مما هو باب فريد في علم الاجتماع الديني. فقد قال إن والده الفقير رأى هجرة الرجال إلى المدينة طلباً للعمل في حين تركوا زوجاتهم بالقريّة. وخاف الفقير على دين النساء وقوامهن النفسي فأخذ يجتمع بهن يرشدهن في الدين، ويصبرهن على فراق الزوج، ويسليهن عن ذلك بذكر الله والعبادة. ولما رأى خصومه جلوسه إلى النساء عدوه باطنياً موبوءاً يطلب الجنس بذرائع الدين. وكان ذلك اختلاقاً بائساً. وقال لنا الشيخ إن النساء كن السابقات من حيران الفقير وأفضلهن ديناً وخلقا. وكنا السبب في "تجنيد" رجالهن لطريقة الفقير. فلما عاد رجال السكة، أي المهاجرون، وجدوا زوجاتهم وقد بلغن من الزوجية والدين مبلغاً عالياً. وكان العم عطا المنان جلاب من أولئك الذين سلخوا طريق الفقير إجلالاً لزوجاتهم.

هذا كتاب من العلم النافع. أخرجنا بوكد البحث من الضيق إلى السعة، ومن التحامل على جماعة من الناس بغير بيئة إلى رد حقها بالبيانات، ومن الاستسلام للتقليد،

إلى ما وجدنا عليه آباءنا، إلى نقضه، ومن التاريخ الشخير إلى التاريخ للصحو. وسيكتمل نفعه متى نهض باحث في شأن الزبالة مترسماً ما أتفق للباحثة من بداوة الجماعة وما تمتعت به النساء من حقوق ثقافية فيها هما ما ألب عليها المعاصرين من نوي الشوكة. وورثنا ضغينتهم وشخرنا شخيرهم وأسأنا إلى مسلمين لم يسلموا لا من لساننا ولا من يدينا. ولمحاسن الفضل في أننا طويينا صفحة بغيضة عن الزبالة وفتحنا أخرى غراء عنهم.

تصدير

أعدت هذا البحث في بداية الثمانينيات. استهوتني كتابات ومحاولات لكتاب محدثين الغوص في إرث تاريخي ثر، أُوْرِخَ له بطريقة حكائيّة اتسمت بالتمطيّة التي تصل أحيانا إلى درجة انعدام المصداقية وتغييب الوعي، فالكتاب المدرسيّ للتاريخ جعلنا نغوص في الجهل بعمق الأشياء، فكنا لا نرى فيه سوى البطولات والخير الوطني لتاريخ ملئ بالحراك والقصص والحكاوي والخيال الشعبي والعاطفة والتناقض.

الزبالة، هداني إلى دراستهم الدكتور والصدّيق عبدالله علي إبراهيم وأنا في حضرة إبعاد رسالة لنيل درجة الماجستير. الإثارة التي جذبتّه للموضوع شدتني، فطفت لبحث وأتجول على أجد حقائق تاريخيّة تماثل ما هو مشاع ومدون من معلومات. الشكوك التي أحاطت بالموضوع وقلة المعلومات المدونة، جعلتني أتلفظ حول تقديمها، على الرغم من الجهد الكبير الذي بذل. فالإعداد لرسالة علميّة، يتطلب استخلاص حقائق تاريخيّة مؤكدة، ونتائج مقنعة لا يأتيها الباطل أو الشك.

لغوص في حكاوي التاريخ عشق ظلّ يلازمي، ويزداد كلما ازددت قربا منه، يجرني إلى حكايات متجددة وحاضرة بشكل أو بآخر.. أستلهم منه الكثير، ويقودني إلى التساؤل عن مدى قدرتنا - حاملي هويّة الثقافة العربيّة - على استخلاص العبر والتقدم نحو عصر الحداثة. هذا البحث يرجع بنا عشرة قرون إلى الوراء. استخلاص الواقع بعد مضي هذه القرون، يشير إلى عدم اهتمامنا بالتاريخ، وإلى عدم اهتمامنا بالتوثيق له، والتعلم منه، للانطلاق إلى الأمام. حينها اعتقدت أنني وجدت طريقي ومساري المهني لإعادة قراءة التاريخ، وقراءة واقع الإسلام وفق ما أحمل من رؤى تجانس بين الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وما فوقها من بُنى ثقافيّة وقيم وسلوكيات.

لقد حرص موظفو الاستعمار الإنجليزي على التدوين والتوثيق لكل ما يجذب انتباههم، وخلقوا معلومات وفيرة في مواضيع شتى، وكان لذلك أثره في أن يكون المؤرخون السودانيون الأوائل أكثر نشاطا وهمة في الكتابة وتدوين التاريخ السوداني. هذه السمة افتقدها السودان في مراحلها اللاحقة، بطغيان عوامل الجزر الثقافي الناجم عن

أحوال اقتصادية واجتماعية متردية، فأنحسر الاهتمام بكتابة التاريخ، ومثله انحسار كافة ألوان وأدوات البحث العلمي وتراجع الأعمال الإبداعية في مجالاتها المختلفة. والآن بقدر ما تبدو الحاجة ملحة للاهتمام بالتكوين والتوثيق وكتابة التاريخ، فإن الحاجة تبدو أكثر إلحاحاً لإعادة كتابة التاريخ.

وهناك ظواهر هامة في التاريخ السوداني يكاد أثرها أن ينمحي، فالحركة الواسعة لجماعة أبو جريد أو الزبالة، هي واحدة من تلك للظواهر.. ما أجده أكثر خطورة في رحلة الاختفاء هذه، هو ما يحدث من تبدل خلال هذه الرحلة للمفاهيم والمعاني والمحتوى إذ تأخذ أحياناً مناحي أخرى ومعانٍ أخرى، وهو ما سنلاحظه في هذا البحث، إذ ظلت المعلومة المتناقلة لكبار مؤرخي الحدث السوداني تتحدث عنهم باعتبارهم قبيلة، مما يناقض الواقع. كما أن تقاليد هامة في عرف الجماعة تنتشر باندثار أتباعها وبتباعد الأزمنة، ويصعب من الصعب الوصول إلى الحقيقة كاملة أو دون زيادات أو تحريف. هذا، وقد أثرت حول الزبالة الكثير من الزوايع والأقاويل، وأصبحوا بين مكذب يثير حولهم الكثير من الغبار، ومصنق خانع لاجئ لهم عند الإحن والملمات.

وتبدو الحاجة ملحة - في رأي- لتدارك هذا الموقف، أي الاهتمام بالتوثيق قبل اندثار المعلومة. كما تبدو الحاجة أكثر إلحاحاً لتنشيط حركة الترجمة لتاريخنا القابع في أضياب المخابرات الانجليزية، والمكتبات، ومكتبات الجامعات الإنجليزية والتركية، بلغات غير عربية لباحثين أجانب.

الزبالة أو جماعة أبو جريد، هي مجموعة نشطت في عهد دولة الفونج، ومن ثم انحسر نشاطها بفعل عوامل شتى، بينما بقيت الرابطة حية في نفوس أتباع الطريقة إلى يومنا هذا، وسوف نتطرق لذلك بالتفصيل في غضون هذا البحث.

لقد وجد شيوخ الطريقة وأتباعها أنفسهم في موضع التغريب والتهمة بالبعد عن دين الجماعة وقيمها وسلوكها، فأبرز ما لحق بالجماعة من صفات، هو بعدهم عن الإسلام، وارتماؤهم في حضن الشيطان، واستعانتهم بالجن في قضاء الحوائج والكشف عن المستور أولاً.. ثم إلصاق تهمة الإباحية، والبعد عن كل ما هو منطقي وعقلاني في

حياتهم و حياة شيوخهم وفي تجمعاتهم وأذكاهم. لقد كانت رحلة البحث على ما فيها من مشقة تحمل الكثير من المضامين، أهم هذه المضامين، هو أن ما تناقله الناس عن جماعة الزبالة وما ارتبط بهم من تقاليد تبدو غريبة وشاذة في أزمنة لاحقة، لا ينكرها أحفاد شيوخ القبيلة وشيوخهم الحاليون، ويتحدثون عنها بحذر، مستندين إلى أن ذلك ما قيل وما أشيع، دون إيراد تفسير له، ودون إنكاره أو التملص منه، وليس منهم من نكر أو استنكر سؤالنا بل كانوا يقابلون أسئلتنا بإيماءة وابتسامة فيها الكثير من التخييل، وتحمل الكثير من الفخر بتاريخ أجدادهم ولم تكن أبداً ابتسامة الرفض المستنكر. وقد بقي فيما بقي من آثار للطريقة الرابطة الروحية القوية والإرث الثقافي المشترك، وما يميز علاقتهم ويربط بينهم هو تجمعاتهم المستمرة والإرث الوافر من الصيد أو ما يسمونه بالنغم في تمجيد مجموعتهم وتمجيد خلفائهم وربما كان ذلك هو مرد فخرهم.

نقلني الزبالة إلى أجواء حافلة بالربط والمقارنات والتخيلات والتصورات.. لم أملك نفسي وأنا أحاول البحث والتدوين، من الغوص في بطون البوادي المترامية والأودية والأنهار.. في الخيام وفي العراء، وفي رحلات الخوف والوجل والكائنات المتربصة. وما أثارني أكثر، ذلك الكم الهائل من الحراك السكاني، وهذه القدرة البشرية الفائقة على تلمس مواطن العيش الأفضل.. رحلات تبدو في هذا الزمان عكسية، ليعلمنا التاريخ أن عجلة التاريخ دائماً ما تدور، وتدور معها الأحداث والمواقف والأزمنة.

هذا البحث، والذي قررت أن أنفض عنه الغبار بعد ما يقارب الثلاثة عقود، قد خضع للقراءة والمراجعة من قبل الدكتور بشير إبراهيم بشير رحمه الله، والدكتور محمد سعيد القدال أظله الله بظل ما أتحفنا به من جهود في التاريخ مقدرة، والدكتور الأديب عبدالله علي إبراهيم أطل الله في عمره.. وكانت رحلتنا البحثية بمعينته ومعينة أستاذنا الكبير الطيب محمد الطيب، تصفي روحاً وثابة ومحفزة على النشاط والكد لأناس يمارسون الغوص في تفاصيل الأحياء والقرى والبوادي بشغف كبير.

منطلقنا الاجتماعي/الاقتصادي - Socioeconomic - لدراسة التاريخ والتفصيل في دخول الإسلام والثقافة العربية في السودان لا يمكن أن نقول عنه إلا أنه وجهة نظر.. وجهة نظر قد يتفق معها البعض وقد يختلف معها الكثيرون. وبالتالي، فإننا لا

ندعي الموضوعية المحققة والثابتة التي لا يرقى إليها التساؤل أو الشك، فالحقيقة فيما هو متصل بالواقع الاجتماعي تبقى حقيقة نسبية.. لكن المثير في الأمر، هو أن البحث في هذا المجال أتاح لي الإلمام بجوانب هامة لقضايا مؤثرة لا زال الجدل يدور حولها.. تتصل بالأعراق، والحراك السكاني، والمؤثرات الثقافية، وقضايا الهوية، والديانات، وكريم المعتقدات الأفريقية. كما أنه يكشف بشكل جلي عن جوهر هذا الجو المشحون بالغيبيات. وأكاد أجزم بأن معرفة الزبالة، هو أمر يبعث الرغبة لدى الآخرين على المعرفة والاستطلاع، ويوفر في رأيي معلومات كانت أن تندثر لأناس كثر.

الرؤية التي سلكتها في كتابة هذا البحث، كان لابد من أن يصاحبها عمل متكامل لدراسة كافة المعطيات التي تقودنا في تسلسل رأيته متجانساً، إلى فهم الصورة المتكاملة لذلك العصر. ومن خلال بحثي، وجدت أن هنالك عوامل كثيرة قد تشابكت في محور رئيسي، وهو الكيفية التي انتشر بها الإسلام في السودان. ووجدت أن ذلك يقودنا إلى تلخيص لعصر بأكمله في أهم محطاته، فكان مدخلنا محاولة تبيان أسباب التحدث عن انتشار الإسلام في السودان، ومن ثم التطرق إلى المعالم الأساسية للبنية الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة مثار البحث أي (Land & People).

ثم انتقلت بعدها للحديث عن البنية الثقافية للمنطقة مثار البحث، وتشمل الديانات المتعاقبة والمعتقدات الشعبية، وما طرأ على هذه البيئة من تغيير جراء الهجرات المتلاحقة للعرب المسلمين، وأهداف هذه الهجرات العربية وتأثيرها في البنى الثقافية وما حملته من ثقافات جديدة.. لقد رأيت أن التطرق لهذه الجوانب يكتسب أهمية خاصة، لقدرته على استكشاف ماهية ونوعية الإسلام الذي انتشر، ومن ثم كان لابد من وصف عام مدعم بالأدلة لمظاهر الثقافة الإسلامية في دولة الفونج، وصحبنا معنا في دراسة ذلك الكثير من الظواهر التي ارتبطت بذلك العصر، كالكرامات والمعجزات والخرافة وغيرها.

الحديث عن نوعية الإسلام الذي انتشر في السودان والمؤثرات، كان لابد من أن يسند بمعلومات عامة وتوضيحية عن المؤثرات الأهم في الفكر والممارسة الإسلامية، فكان أن تطرقنا بشكل مبسط للإسلام المبني على الفكر الباطني والإسلام المبني على

الظاهر، ثم ربطنا بينهما وبين الإسلام الصوفي الذي انتشر في السودان.. ووجدنا فيما كتبه ود ضيف الله مؤشرات هامة لمبحثنا القائم على الدراسة الاجتماعية للدين والحركات الدينية، فهو الكتاب الوحيد الذي فصل الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لتلك الفترة تفصيلاً دقيقاً من خلال ترجمة السيرة الذاتية للأولياء وللصالحين والعناصر المؤثرة في ذلك الزمان.

لقد كانت رحلتنا لمناطق انتشار جماعة أبو جريد في منطقة النيل الأزرق في واد مدني وسنار وسنجة والحاج عبدالله والمناطق المحيطة بها، رحلة مثيرة، نظراً لما حسبناه من انقراض للجماعة والطريقة. لنجد أن الطريقة لا زالت حية بين أحفاد أتباع الطريقة، وأن نظم الخلافة لا زالت تتناقل وتتوارث بين أحفاد خلفاء مؤسسي الطريقة، بل إن ملامح ثقافتهم لا زالت تحت تأثير ما تواتر من معتقدات وسلوك وقيم متوارثة عن الجماعة ونسقتها. فالولاء الطائفي والقبلي لا زال جامعا لهم ومؤثرا في الثقافتهم كمجموعة مع بعضهم البعض وحول خليفة الجماعة، على الرغم من انقراض اسم الزبالة، كما أن النغم، أي القصيد في مدح خلفائهم، هو زادهم الثقافي والمعرفي، ومصدر فخرهم.. يرتدونه في تجمعاتهم وفي مناسباتهم. ولا زالوا يؤمنون بالكثير من المعتقدات المتوارثة عن الجماعة، فهم لا يخرجون من منازلهم، ولا يقربون الزرع في يوم الجمعة. وكأسلافهم، لا تكتسب الأدوات الهامة التي ارتبطت بالإسلام في السودان أية أهمية في عقائدهم، ولا يتعاملون معها.. كالرقى بالقرآن، واستخدام اللوح، والحجبات، والبخرات^١ والمحاية^٢، والكتابة^٣. ولديهم حذر خاص ومتوارث تجاه التمباك "السعوط"، إذ يعتقدون أن حمل التمباك أو استخدامه يقضي على حيواناتهم، ويؤثر على خصوبة الأرض وعلى خصوبة مواشيهم. وقد لفت نظري، حرصهم على إيصال واستمرار الرسالة بما تحمله من مكونات ثقافية وعقائدية إلى أبنائهم وأحفادهم، ويأملون أن يسير أحفادهم على هدى الطريقة وتقاليدها، وأن يحافظوا على تجمعاتهم وأناسيدهم وعاداتهم المتصلة بالكره للتمباك والسجائر. وما زال كل أملهم، أن تستمر الطريقة في

١ البخرات جمع بخرة وهي الورقة يكتب عليها الشيخ بعض الآيات القرآنية والرموز وتطبق وتوضع في النار ويبخر بها الشخص المستهدف بغرض الشفاء أو فطم الطفل وتهلته المجنون ... الخ والحجاب أيضا تعاويذ تكتب على ورقة وتطبق ثم تلبس في الرقبة أو اليد.

٢ المحاية عبارة عن كتابة للتعاويذ القرآنية في اللوح يتم بعدها غسله وشرب ماءه.

٣ والكتابة هي اللجوء إلى كتابة بعض التعاويذ لمضرة الآخرين.

أبنائهم وأحفادهم، وقد قمنا بتسجيل الكثير من أناشيدهم، لكن عوامل كثيرة أثرت في الحصول على كافة المعلومات المستقاة والأناشيد المسجلة، منها: كِبَرُ سَنِّ الشيوخ الحافظين لهذه الأناشيد، ورداءة المسجلات في ذلك العهد، وطول فترة التخزين.

الفصل الأول

الملاح الأساسية للبنية الاقتصادية الاجتماعية

المدخل إلى دراسة حركة كالزبالعة، لا يتأتى إلا بدراسة ملاح الإسلام في ذلك الوقت، ما يمكن تسميته بالإسلام الشعبي أو المحلي، وما تأتى من فهم خاص للإسلام. وسوف تتضح أهمية هذه الدراسة، بمعرفة الظروف التاريخية والاجتماعية التي أحاطت بدخول الإسلام في السودان، وذلك في إطار السعي لفهم الثقافة الدينية التي سادت بعد ذلك، ومن ثم تحري مكانة جماعة "أبو جريد" بفكرهم وثقافتهم في إطار هذه الثقافة.

هذه الدراسة، تحمل في باطنها مقارنة عامة وغير مباشرة للإسلام بصورته النظرية التشريعية، مع الثقافة الإسلامية التي سادت في السودان الشرقي محور حديثنا، حيث انتشر الإسلام في القرن الخامس عشر بين خطي عرض ١٠ - ١٢ ش. والدراسة تسعى إلى إثبات أن الإسلام كانت له دوماً خصوصيته وطابعه المتفرد به في كل منطقة حل بها، وهذا هو عين ما درج المحدثون من الكتاب والمؤرخين على تسميته بالإسلام الشعبي أو الإسلام المحلي.

وقد رأيت أن هنالك أهمية خاصة للتحدث عن الهجرات العربية للسودان.. ماهيتها وكيفيةها، قبل الحديث عن انتشار الإسلام في السودان، لمعرفة تأثير هذه الهجرات على مكونات الثقافة المحلية السودانية، وما حدث من تزاوج بين التعاليم الدينية الإسلامية الوافدة بالموروث من الثقافة المحلية، والتي شكلت في النهاية البنية المعرفية لرواد ذلك العصر. وهو ما أدى - في رأيي - إلى إيجاد مكون ثقافي هو هجين لما تراكم من معارف محلية، تزاوجت وامتزجت مع ما هو وافد. وسوف يتضح لنا هذا التمازج، عند التحدث عن الثقافة التي كانت سائدة قبل دخول الإسلام، ومظاهر الثقافة الدينية في عهد الممالك الإسلامية.

فمن الثابت في كافة المصادر التاريخية، أن دخول الإسلام تم بصورة تدريجية سلمية لم تحدث هزة عنيفة في المجتمع المحلي. هذا بالطبع لا ينفي وجود ثقافة محلية

متكاملة لها جنورها الراسخة، بل على العكس فإنه يثبت لنا، أن ما أخذ من الثقافة الإسلامية الوافدة ليُطبق في الحياة اليومية، لم يكن ليتعارض مع جوهر حياة السكان المحليين. فما حدث كان تزاوجاً بين التعاليم الإسلامية والثقافة الدينية الوافدة بالموروث من الثقافة المحلية بشكل تلقائي. وكان الإسلام الشعبي نتاج لهذا التزاوج.

وسوف نحاول في هذا البحث، أن نتطرق إلى المظاهر الداعمة لرؤيتنا هذه، من خلال استعراض عام لبعض المظاهر الأساسية للثقافة التي كانت سائدة قبل دخول الإسلام، ومظاهر الثقافة الدينية في عهد الممالك الإسلامية. وإذا سلمنا سلفاً بأن الثقافة الإسلامية التي انتشرت، لم تعزل أو تقضي على الثقافات التي سادت قبلها.. فإن المعرفة الحقيقية للثقافة الدينية التي انتشرت في العهود الإسلامية، تتطلب معرفة البنية الثقافية للمجتمع السوداني قبل دخول الإسلام. وهذا يتطلب معرفة المعالم الأساسية للبنية الاقتصادية والاجتماعية في ذلك الوقت، لأنه وبحسب اعتقادي، فإنه لا يمكن فصل الظروف الاجتماعية والاقتصادية، عن الثقافة التي تسود في مجتمع ما. ثم يتبع ذلك الحديث عن الأديان والمعتقدات الشعبية قبل وبعد دخول الإسلام، لأنها المحصلة النهائية التي شكلت مكونات الثقافة التي سادت.

في معرض ذلك، يأتي أولاً تحديد المنطقة مثار اهتمام هذا البحث. إذ إن الحديث عن السودان قديماً، كان يعني الحديث عن المنطقة الواقعة جنوب مصر دون تحديد.

٤ السودان: جمع سود، وسود جمع أسود (فالسودان جمع جمع) (لسان العرب المجلد الثالث) بيروت، ١٩٥٥، ص ٢٢٤

٥ وقد أطلق عليها قنماء المصريون اسم تانهو أو تانحسو والتي وردت في حجر باليرمو عن أن الملك سنقرو أرسل حملة إلى تانحسو (A.D. ARKEI AHISTAY- 1966 PP 41 UHNHSW) وردت مرة أخرى باسم أرض القوس (إن الإله آمون إله نبتة يعطي الملك، سلطة أرض القوس) (1912 Rp146). وتانحسو تعني أيضاً أرض السود. في هذه الفترة تبرز أسماء خاصة لبعض أجزاء من هذه المنطقة. فالقبائل بين الشلالين الأول والثاني أطلقوا عليها اسم الوابات. والقبائل حول الشلالات الأخرى حتى نبتة أو كورتى الحالية سميت بكوش أو كاش (ورد اسم كوش في التوراة، وقد جاء أنه جد النوبيين أخ لمصر إرم جد المصريين وكلاهما من حام بن نوح) كما تبرز أسماء أخرى للقبائل التي تسكن الجزء المتاخم لمصر كنباط تعني النوبة وهي المنطقة بين الشلال الأول والرابع ويقال إن نبتة في اللغة النوبية، تعني أرض الذهب، وبمجيء الإغريق أخذ يطلق على نفس المنطقة اسم إثيوبيا، وهي أيضاً تعني أرض السودان. ويقول الشاطر البصلي: إن أثيوبيا تعني الوجه المحترق.

باحتيال العرب لمصر عام ٦٤١م وما بعده، أصبح يطلق عليها اسم بلاد السودان. وحتى هذه الفترة؛ فإن حدود منطقة أو بلاد السودان لم تكن معروفة، غير أن العرب أطلقوا اسم السودان على كل الممالك الأفريقية الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى وصحراء نوبيا بين الحبشة والساحل الغربي.. وتشمل ممالك سنار ودارفور ووداي وباجرمي وكاتم وبرنو وسكوتر ومالي من الشرق إلى الغرب (تعود شقير جغرافية تاريخ السودان ص ٩ وهذه تشمل كما يقول يوسف فضل حسن عناصر الأحباش والميمة والنوبة والزغاوة والتكرور).

غير أن المنطقة التي تخصصنا في هذا البحث، هي المنطقة التي اصطلح مؤرخو هذه الفترة كيوسف فضل وماكمايل ونعوم شقير^٦ وغيرهم على تسميتها بالسودان الشرقي، الذي يشمل -كما حدده نعوم شقير- حدود السودان المصري الإنجليزي، والذي يحد بخط عرض ٢٢ ش، وجنوبًا بخط عرض ٥ ش، وشرقًا بالبحر الأحمر والحدود مع الحبشة وارتريا، ويحد بالصحراء الكبرى في الشمال، وبلاد وداي في الشمال الغربي، والجبال المتوسطة بين نهر الكونغو وبحر الغزال في الجنوب الغربي. وطوله من الشمال إلى الجنوب ١٢٠٠ ميل ومن الشرق إلى الغرب ١٠٠٠ ميل^٧.

هذه المنطقة، والتي تشمل حدود ممالك نوباتيا، وعلوة، والمقرة. سميت ببلاد النوبة في العهود المسيحية، وتضم مملكة نوباتيا منطقة حوض وادي النيل من أسوان حتى الشلال الثالث، بينما تضم مملكة المقررة المنطقة في الحدود الجنوبية لمملكة نوباتيا حتى ملتقى النيلين والجزء الأعظم من شمال كردفان ودارفور، أما مملكة علوة فتضم منطقة الجزيرة والبطانة وشمال أواسط كردفان ودارفور^٨. وفي بحثي هذا، سأشير إلى المنطقة المعنوية باسمها القديم، أي: بلاد النوبة.

ملاحح الطبيعة في المنطقة تتسم بالفقر والتصحر، ومناخها مداري يتدرج من صحاري حارة في الشمال حيث تتعدم الأمطار عبر مناخ شبه صحراوي وأمطار صيفية تتدرج إلى أن تصبح استوائية في الجنوب حيث يقصر فصل الصيف. ونسبة لعدم وجود فواصل تضاريسية، فإنه يصعب وضع خط فاصل بين الأحوال المناخية المختلفة^٩. هذا، ويمكن تقسيم المعالم الأساسية للبنية الاقتصادية إلى ثلاثة أقاليم، هي: الإقليم الشمالي، والمنطقة الوسطى، والإقليم الجنوبي.

٦ وقد ذهب إلى ذلك ترمينجهام باعتبار أن السودان الغربي يشمل ممالك الغرب في كاتم وبرنو وحامي وسكوتو ص٣.

٧ نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧م، ص ٦.

٨ علي عثمان، مجلة الثقافة السودانية، العدد ١٦، ديسمبر ١٩٥٠، ص ٤٣.

٩ أيضا، ص ٣٨

الإقليم الشمالي:

يتميز الإقليم الشمالي بأنه منطقة صحراوية تندر فيها الأمطار، وتعتمد الأحوال الجوية فيه على سرعة الرياح والحرارة^{١٠} هذه الأقاليم تشتمل على ثلاثة مناطق هي الصحراء، تلال البحر الأحمر والشريط الضيق على النيل.

المنطقة الصحراوية من الإقليم الشمالي، تشمل الصحراء النوبية والجزء من الصحراء الليبية الممتد داخل الأراضي السودانية لعدة أميال، هي عبارة عن تلال رملية أو حجرية تندر فيها منابع المياه، وتصب فيها أمطار تقل عن مقدار البوصة الواحدة، تساعد فقط على زراعة فقيرة في منطقة الخيران^{١١}. هذه المنطقة عبارة عن تلال ومناطق جبلية جافة، عدا الشريط الزراعي الضيق على طول وادي النيل، والذي لا يزيد عرضه عن أربعة أميال^{١٢}.

أما المنطقة الشمالية الشرقية أو منطقة مرتفعات البحر الأحمر، فتختلف في المناخ عن بقية مناخ السودان، فالرياح الشمالية تهب على التلال فيعتدل الجو وتصب الأمطار شتاءً، ويستمر الصيف فيها حتى أكتوبر. والمنطقة الشمالية منطقة شبه صحراوية فقيرة في المرعى، على الرغم من أنه يسكنها البدو وأشباه البدو^{١٣}. ومن أهم مناطقها أرض البجة.. التي تقع بين البحر الأحمر والنيل ونهر عطبرة، وقد اشتهرت بوجود معدن الذهب في وادي العلاقي ووادي حمامات.

هذه المنطقة في مجملها، تعتمد في معيشتها على الرعي والزراعة الاكتفائية باستخدام وسائل بدائية محدودة. أدت إلى ضالة الإنتاج الزراعي ومحدوديته على الذرة كغذاء رئيسي للإنسان والحيوان. إن بدائية وسائل الإنتاج واعتمادهم على الأمطار، وارتباط الزراعة بارتفاع مياه النيل، يشير إلى ارتباط معيشتهم بقوة لا يملكونها قوى

١٠ أيضا ص ٤٦.

١١ يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ السودان، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧١ ص ٤.

١٢ نعيم شقير، المصدر السابق، ص ١١.

١٣ يوسف فضل حسن، المصدر السابق، ص ٤.

غيبية تقوت على مداركهم ووعيمهم المحدود، وهو وضع له تأثيره على نوعية الثقافة التي كانت تسود المجتمع حينها ومعيارا هاما في مكوناتها.

المنطقة الوسطى:

الإقليم الثاني، والذي سميناه بالمنطقة الوسطى، يتميز بمناخ شبه صحراوي تزداد فيه الأمطار كلما اتجهنا جنوبا. ويشمل أرض الجزيرة للخصبة بين النيلين الأبيض والأزرق، ومنطقة الرعي الغنية المحاطة بالنيل - ونهر عطبرة - والنيل الأزرق والتي تعرف بالبطانة. ومناطق الرعي الأخرى الممتدة على عرض هذه المنطقة بين النيلين الأزرق والأبيض، والمنطقة بامتداد عرض السودان من الشرق إلى الغرب، حيث تكثر الخيران خاصة حول النيل الأزرق، وتكثر فيها الأنهار والفروع الصغيرة، متأثرة بهبوط الأمطار الغزيرة الممتدة حتى مرتفعات الحبشة.

ويشمل هذا الإقليم أيضا سهول كردفان ودارفور، وهي منطقة ارتحالية، بين كونها شبه صحراوية "سافانا فقيرة" و"سافانا غنية" بها نباتات شبه غابية. يقول ماكمايل: إن هذه المنطقة والمنطقة حول الخرطوم ومنطقة شمال الفونج وجنوب كسلا، تتشابه إلى حد ما. ففي شمال كردفان وجزء من كسلا، توجد مناطق رعي واسعة، ويعمل سكانها في رعاية الإبل والضأن، هؤلاء الرعاة يترحلون بمواشيهم في منطقة النيل الأبيض والضفة الشرقية للنيل الأزرق إلى شمال الفونج وجبال النوبة، ويتبعون الأمطار في ترحالهم، ويستقرون إلى جانب الآبار والخيران أو يقرب النيل أحيانا^{١٤}.

الإقليم الجنوبي:

الإقليم الثالث، وهو الإقليم الجنوبي، والذي يتميز بمناخ مداري واستوائي تصل فيه الأمطار إلى ٣٠ ملليمتر. ومبحثنا هذا لا يتصل بهذا الإقليم، إذ إن الظروف الطبيعية والمناخية والثقافية وما نتج من صعوبة اتصال هذه المنطقة بباقي أقاليم السودان، جعل هذا الإقليم -إلى حد ما- منطقة معزلة. هذا بالطبع لا ينفي دورها كمصدر للثقافة

١٤ تتبّع أهمية هذه المنطقة من الدور التاريخي الذي لعبته تجاريا وسياسيا فقد كانت المركز الإداري والثقافي للمنطقة في الفترة التي نحن بصدها.

الأفريقية، وكامتداد لجذور هذه الثقافة شمالاً، لتظهر معالمها في الثقافات المتلاحقة، بما فيها الثقافة الإسلامية التي جاءت بعد ذلك لتكون ثقافة منطقة شمال السودان.

الشعب:

أما بالنسبة للسكان، فإن كل الأسماء التي أطلقت على السودان، والتي أوردناها في بداية هذا الفصل، لا تخرج عن كونها صفة للسكان أي السود^{١٥}. هذا وقد قسم غالبية الكتاب سكان السودان إلى: نوبة - بجة - زنج - عرب. أما بالنسبة للنوبة فقد اصطلاح علماء الآثار على تسميتهم بالمجموعة (أ) في العهود القديمة، وقد عاصرت هذه المجموعة الفترة المتقدمة في تاريخ الأسر في مصر. هذا العنصر العرقي هو نفسه عنصر المجموعة (ج) والتي عاصرت الأسرة الحادية عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة المصرية. ويقال إنهم أتوا أساساً من المنطقة جنوب الشلال الثاني واستقروا في النوبة السفلى، ويقال إنهم ينتسبون إلى الجنس الحامي الذي ينتسب إليه سكان مصر قبل الأسر. يقول ترمنجهام^{١٦}: "إن هؤلاء يمثلون النوبة الحاليين، وهم عناصر حامية دخلوا السودان بعد طوفان نوح، وقد اختلطوا بالعرب، لكنهم احتفظوا بلغتهم الأصلية ويسمّون بالبرابرة، ويشملون المحس، والكنوز، والسكوت، والذناقلة. ويعيشون في المنطقة من أسوان حتى وادي حلفا، ومن وادي حلفا حتى المنطقة جنوب الدقة. ويذكر باربر: أن هذه المجموعات تعرضت لهجرات من زواج الجنوب، فأصبحت تتحدث لغات زنجية. هذا، وقد دار نقاش مستفيض حول الصلة بين نوبة الشمال ونوبة جبال النوبة في جنوب كردفان، وقد أثبتت الدراسات اللغوية تشابه بين لغة نوبة الشمال والنوبة القاطنين في شمال جبال النوبة^{١٧}.

١٥ يقول المسعودي الذي توفي في ٣٤٥ - ٩٥٦ م (ولما توفي ولد نوح في الأرض، اتجه كوش بين نعمان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا، وصارت منهم طائفة مقيمين بين المشرق والمغرب، وهم أنواع نحو الزغاوة والكوانم وحركة وكوكو. وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم (مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٤ ص ١) ويقول ابن خرزابه المتوفي في ٣٠٠ هجرية ٦١٣ م أو من سكن على النيل فإتاما هم ولد حام، السودان - بربر - أنباط ومضر وأضر. أما المسالك والممالك ص ٩٢. ولهذا أطلق على سكان المنطقة هذه من مصر عدا البجة اسم النوبة "يوسف فضل، المصدر السابق، ص ١٢".

Trimingham J. S "Islam In The Sudan, Oxford, 1965 Pp 5 ١٦

١٧ باربر ك. م.، سكان السودان، ترجمة هنري رياض وآخرين، مكتبة النهضة الخرطوم، بدون تاريخ ص ٧٥.

أما السود أو الزنج، فهم سكان أفريقيا الأصليين. ويتفق المؤرخون على أنهم السكان الأصليين في البلاد، ويذكر ماكمايكل أن هنالك بعض الآراء التي تفيد أن الزنج يمثلون جزءاً من الأسرة الأثيوبية التي حكمت مصر^{١٨}، ويقول باربر: إنها تشمل القبائل المحلية الأصلية. وهؤلاء ربما أتوا من الحبشة أو القرن الأفريقي^{١٩}. وتشير كل الدلائل إلى أن هؤلاء السود، هاجروا في فترات متلاحقة شمالاً، واختلطوا مع سكان الشمال، بينما يحدد ماكمايكل الفترة الزمنية لاستقرار الزنج في النوبة شمال أسوان، بالمرحلة التي زامنت حكم الأسرة الثالثة^{٢٠}.

أما البجة، فيعيشون بين البحر الأحمر شرقاً، ونهر عطبرة ثم إلى النيل غرباً، وتمتد هذه المنطقة من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية إلى أسوان. وهي منطقة جبلية تتخللها بعض الوديان. وأهم مواردها المائية خور بركة والقاش، وهي منطقة رعي غنية. ويقال إن أصل البجة حامى، وقد اختلطوا بعرب ربيعة في القرن التاسع الميلادي، إلا أنهم احتفظوا بملامحهم الحامية ولغتهم وعاداتهم^{٢١}. وتدل الآثار على أن هذه المنطقة كانت تقطنها قبائل بدائية تعتمد على الصيد في الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وقد جاءت بعدهم قبائل حامية رعوية هم أسلاف البجا الحاليين^{٢٢}. ويقول كرايفال: إن هنالك تشابهاً بين البجا والمصريين في مرحلة ما قبل الأسر^{٢٣}، وقد أطلق عليهم قدماء المصريين قبائل أو رجال التلال، بينما كان الإغريق والرومان يسمونهم بليميين، وهم من أصل حامى^{٢٤} وربما كانوا من بقايا شعوب أثيوبيا القديمة^{٢٥}. وتشتمل قبائل البجة على أربعة قبائل رئيسية: هي الإمرار والبشاريين والهدندوة والبنى عامر، وكلها قبائل رعوية أو شبه رعوية وتتحدث في معظمها اللغات اللتيداوية والأمهرية.

١٨ انظر ماكمايكل ه، تاريخ العرب في السودان، ج ١، ص ١٤.

١٩ باربر ك. م، المصدر السابق، ص ٧٤.

٢٠ ماكمايكل، المصدر السابق، ص ١٥.

Trimingham J. S, Abid pp3. ٢١

Barbour K. M, The Republic of the Sudan: a Regional Geography, ٢٢
London. 1961, pp77

٢٣ أيضاً ص ٨٠.

٢٤ عبدالله حسين، تاريخ السودان القديم، القاهرة، ١٩٣٥ ص ٤١.

٢٥ أيضاً ص ٤٦.

إن المصادر التاريخية والأثرية في تاريخ السودان القديم كافة، تؤشر إلى قدم التأثير المصري والعربي عرقياً على السودان الشمالي الممتد من الحدود مع مصر وحتى الشلال الرابع. بل إن بعض الأثريين استندوا على دلالات إحصائية متعددة لإثبات أن سكان السودان الشمالي نزحوا من مصر أساساً، وفي المقابل فإن بعض الأثريين جمعوا من الدلالات الكثير، لتأكيد أن سكان مصر في عهد الأسر نزحوا من السودان أصلاً، مستندين في ذلك على اعتبار المشابهة الفيزيائية ومشابهة الأديان والمقابر^{٢٦}. وفي هذا تأكيد لدور مصر في عروبة السودان. ويتفق كل من يوسف فضل وعبد المجيد عابدين ومحمد فوزي مصطفى، على أن السودان عرف العروبة منذ أزمان بعيدة عبر مصر.. باعتبار أن سكان مصر أنفسهم نزحوا من الجزيرة العربية^{٢٧}. وسواء كان العنصر المصري عربياً أم لا، فإن الوجود المصري في السودان يتأكد منذ الأسرة الثالثة، عندما ضم زوسر إقليم الشلال الأول، وقام ستقرو مؤسس الأسرة الرابعة بغزو بلاد النوبة في عام ٢٩٠٠ قبل الميلاد^{٢٨}.

كما تم احتلال المنطقة الواقعة بين الشلال الأول وكرمة في المملكة الوسطى على يد الأسرة الثانية عشرة، وقد أقيمت القلاع في بوهين، ودانبارتي، ومرحيسا، وشلفك، وسمنة، وادروناتي، وقد وضع سيزوستريس مسألة في الشلال الثالث تمنع عبور السودانيين للمنطقة. وقد كانت هذه الفترة فترة استقرار تام للمصريين في المنطقة انتهت بغزو الهكسوس، غير أنها انتعشت على عهد الأسرة الثامنة عشرة التي قضت على الهكسوس، وقد وصلت حدود مصر جنوباً حتى الشلال الرابع. ويرى هيرودتس أنه يوجد على مسافة اثني عشر شهراً من النيل جنوب مروي، قوم يعرفون بالأتومولي أو الاسماح، وهم سلالة فرقة مصرية بلغت نحو مائتين وأربعين ألف نسمة، نزحت من بلاد مصر إلى السودان إبان حكم بسماتيك الأول^{٢٩}. ثم تلا ذلك قيام مملكة نبتة والأسرة الخامسة والعشرون التي حكمت مصر وثلاثها حضارة مروي.

٢٦ أيضاً ص ٥٢.

٢٧ محمد فوزي مصطفى، الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان، بيروت ١٩٦٢، ص ١٥.

٢٨ Arkel, a history of the Sudan to ap 1821, London 1955

٢٩ look at Herodotus, histories, vol 1 London, 1964

خلاصة القول، أنّ الوجود والتأثير المصري على السودان، كان وسيظل عملية مستمرة تطال الأوجه كافة، ابتداء بالعرق وانتهاء بالتأثر الثقافي. هذه الحقيقة سوف يكون لها دور كبير فيما سيتم ذكره لاحقاً عن تأثير العنصر العربي في المكون السوداني، سواء في هذه الفترة، باعتبار عروبة المصريين أو نتيجة الهجرات العربية المستمرة عبر مصر. والتي تزايدت في الفترة من القرن السابع وحتى القرن الخامس عشر الميلادي. إنّ هذه الهجرات كانت لها تأثيراتها المفصلية فيما حدث من متغيرات في البنى الهيكلية المكونة للعنصر والهوية السودانية، بحيث أدت إلى تداخل عرقي بين العناصر المحلية الأفريقية والعنصر العربي الوافد، ليكون العرق العربي -بذلك- من أهم مكونات العناصر السودانية، وسوف نحاول تفصي التفاصيل فيما يلي من فصول.

البنية الثقافية لمجتمع النوبة:

مما ذكرناه سابقاً عن البنية الاقتصادية الاجتماعية لمجتمع النوبة، نخلص إلى أنّ مجتمع النوبة البدائي كان ينظم علاقاته بقدرات محدودة على العمل، لم تتح له إلا اكتساب وسائل بدائية للإنتاج، وذلك، لجهله التام بالطبيعة، وعدم امتلاكه القدرة على معرفة كنهها أو مواجهتها، فضلاً عن إمكانية تسخيرها لمصلحته.. في هذا المجتمع، وبما توافر له من ظروف تاريخية واقتصادية واجتماعية ولمجابهة ما وراء الطبيعة، يبرز شكل أولي من أشكال الوعي الإنساني، هو الوثنية^{٣٠} لاتقاء شر الطبيعة وعالمها المجهول عن طريق تملقها وعبادتها بالصلاة لها، وتقديم القرابين إلى آخر هذه الطقوس. فالسؤال عما وراء الطبيعة، يجعل الجو مؤاتٍ للإيمان بالغيبات وبالروح العليا لحل أزماتهم. يقول ترمنجهام: إنّ كلّ طقس يدخلهم في حياة جديدة، يعتبر أزمة، كالمولد، والطهارة، والزواج، والموت، والمرض. وكان الحل يكمن في الإيمان ليعطيهم الحماية ضد المجهول^{٣١}. غير أنه وبعود الإنسان تدريجياً على مظاهر الطبيعة تأتي مرحلة تلي الوثنية، وهي السحر والأسطورة. فالسحر هو محاولة السيطرة على الأرواح من خلال خلق علاقات غيبية عن طريق طقوس خاصة يقوم بها أناس موهوبون. والأسطورة هي محاولة أكثر وعياً لربط كل الظواهر التي تواجه الإنسان ومحاولة تفسيرها.

٣٠ وثنية أو اثني وتعني الروح.

Trimingham, abid ٣١

هذا المجتمع نفسه، هو الذي أصبح مُلتقىً لكثير من الديانات الوثنية بأشكالها المتعددة.. ثم الديانة المسيحية فالإسلام. ولتفصيل ذلك، فقد قسمناها إلى ثلاث مراحل، هي أولاً: مرحلة انتشار المعتقدات الوثنية، والتي تمثلت في الديانات القديمة النبتية والمروية. وثانياً مرحلة انتشار المعتقدات الشعبية، والتي تتمثل في السحر والأسطورة والإيمان بالجن. ثم المرحلة الثالثة وهي مرحلة اليقين بالإله الواحد، والتي تمثلت في الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية.

الديانات الوثنية:

انتشرت الديانات الوثنية^{٣٢} في الفترة التي سبقت دخول المسيحية إلى السودان، والتي تشمل عهد المملكة الوسطى المصرية وممالك نبتة ومروي. في هذه الفترة، كان الاتصال بين مصر والنوبة مزدهراً، وكان نتاجه تآثر النوبة طوال هذه الفترة بالثقافة الدينية المصرية، وقد كان التأثير يتقارب تبعاً للعلاقات بين البلدين. ففي العهد المروي حدث تماثل كامل في ثقافة البلدين، أخذ في التضاؤل بنهاية مملكة مروي، حيث أخذت النوبة تتعرض لمؤثرات هيلينية ورومانية^{٣٣}. ومن الثابت، أن الديانات النوبية في هذه الفترة، تأثرت بالديانات المصرية وديانات الدول التي حكمت مصر كالإغريق والرومان.

٣٢ قلنا قبلاً، إن الأثن هي الروح والوثنية عبارة عن معتقدات وممارسات تتفق على عبادة الطبيعة. قد تتخذ الوثنية عدة أشكال، منها وحدة الوجود (الإيمان بأن الطبيعة المادية هي الإله)، تعدد الآلهة (الإيمان بأكثر من إله)، مذهب حيوية المادة (الاعتقاد بأن الأشكال المادية في العالم هي الطاقة الإلهية). تاريخياً، داعي الديانات الإبراهيمية (اليهودية، المسيحية، الإسلام) قد أطلقت المصطلح على الديانات المحلية التي صالفتها خلال انتشارهم. "ويكيبيديا"، وقد ذهب بعض المحدثين من الكتاب "قرنق/ الصادق المهدي/ فرانسيس دينق/ عبدالله علي إبراهيم". على استبدال كلمة ديانات وثنية بإطلاق مصطلحات جديدة مثل كريمة المعتقدات المحلية أو المعتقدات الأفريقية تهرباً من كلمة وثنية والتي حملت تاريخاً من التجني عليها والخط من قدرها ويصدورها من المعسكر المضاد لها. وهو ما لا أراه وما تطرحه هذه الدراسة يعطي هذه الديانات والمعتقدات حقها. هذا النقاش حول المسمى طرحه أيضاً محمد إبراهيم نقد في نقده لكتابات حسين مروة وإطلاقه مصطلح الجاهلية على الفترة التي سبقت الإسلام بذات الاعتبار الذي تهرب منه المحدثون عن كلمة الوثنية.

٣٣ يوسف فضل، دراسات في تاريخ السودان، دار جامعة الخرطوم للنشر، ١٩٧٢، ص ١٥.

إنّ مجتمع النوبة وفي بحثه عن ظواهر وكوامن الكون، كان لابد له من التمسك بما يعينه على مواجهة المجهول، وكان الحل يكمن دائماً في مظاهر القوة في الكون، كالشمس، والنيل، والنار، والكواكب. هذا، إلى جانب الآلهة المتعددة، والتي كانت بدورها ترتبط باحتياجاتهم وترمز إليها. فمن آلهة النوبة السفلى الإله إيزيس إله الخصب، والذي بُنى له معبدٌ في نبتة، أصبح مركزاً للعبادة والحج.

ومن عادات النوبة، حمل تمثال إيزيس في موكب ضخم يزور كل القرى على ضفتي النيل، معتقدين أنّ مروره يمنح نساءهم وأرضهم ومواشيهم الخصب، وكانت كل القبائل ولا سيما البلبيين يحجون إلى فيلا^{٢٩}. ويقال إنّهُ وفي عام ٤٥٢ ق.م، غزا القائد الروماني ماكسمين النوبة وهزمها، وعقد اتفاقية بين البجة والنوبة، نصّ فيها على السماح لهم بممارسة عاداتهم القديمة المتصلة بعبادة إيزيس، والتقليد السنوي بزيارة الآلهة وحملها للمرور بها على القرى ثمّ إعادتها^{٣٠}.

ومن العبادات التي انتشرت، عبادة الإله آمون، والذي انتشر بشكل خاص في النوبة العليا، وكان بمثابة كبير الآلهة وآله الحرب، وهو من الآلهة المصرية. وتدل الآثار على انتشار عبادته، بدليل وجود معابد له في طيبة وأبي سمبل والكوة ونبتة. وهناك الإله مايزوليس إله الشمس، الذي بنى له البطالمة معبداً فخماً في كبوشية، وقد أعاد القيصر الروماني أغسطس بناءه توتدًا إلى النوبة^{٣١}.

ومن الآلهة المحلية في النوبة العليا، الإله أبيدماك، ورمزه جسم الإنسان يعلوه رأس أسد، وله معابد في النقة والمصورات ومروي وكبوشية. وكان سكان مروي في عهد هيرونتس يعبدون جوبيز كأمون رع، أي إله الحرب وباخوس كإوزيرس. وهم يؤمنون أنّ جوبيز كأمون رع، هو الذي يوجه غزوات الإثيوبيين إذ يوجهون حملاتهم للجهة التي يشير إليها^{٣٢}.

٢٩ جيوفاتي فانتيتي، تاريخ المسيحية في ممالك النوبة القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، ١٩٧٨ ص ٣٠.

Mackmichel, Abid, VI.PP 25 ٣٥

٣٢ فانتيتي، المصدر السابق، ص ٣١.

Mackmichel, Abid, VI.PP 42 ٣٧

ومن آلهة النوبة حتى حدود الشلال الأول الإله مورش، وصورته جسم إنسان عليه رأس نسر، وهناك الإله ارتسنوفس إله البجة والنوبة ويشيرون إليه بصورة صياد يمسك غزال بيده وباقه من الزهور باليد الأخرى. يقول أولمبيدس (Olympledes) إن البجة وحتى منتصف القرن الخامس مازالوا وثنيين يعبدون إزيس في فيلا وقال (Precocopur) إنهم في نفس الفترة يقدمون قربانا للشمس، ومقرهم الديني الرسمي في تلميس حيث إله الشمس ماندوليس. لهذا اختار سيلكو تلميس ليطبع فيها اللوحة التي تحكي غزوه للمنطقة^{٣٨}. ويذكر فانتيني أن من آلهة النوبة أيضا الإله طهوت^{٣٩}.

وقد اكتسبت بعض الرموز أهمية خاصة، كالغيل في المصورات الصفراء، والذي كان يتمتع بعبادة خصوصية، نسبة إلى أحد الآلهة المحليين. وكانت تقام حفلات عظيمة ومواكب مهيبه يسير فيها الغيل تكريما له^{٤٠}. كما كانت للتمساح أيضا مكانته. ويشير الشاطر البصلي إلى أن التمساح عبادة فرعونية^{٤١}.

لقد كان النوبة يؤمنون بالحياة بعد الموت، لذلك كانوا يضعون جوار جثة الميت أنية مليئة بالماء واللبن والأطعمة وأدوات أخرى كالمرآة والسكاكين والأسلحة وغيرها. ولقد بلغ اعتقادهم باستمرار الحياة بعد الموت أنهم ذبحوا بعض الرجال والنساء والخيول والأبقار في زمن ملوك النوبة في بلانة لظنهم أنهم سيؤدون خدمات للملك^{٤٢}.

هذه الديانات ذات الطابع المصري، تأثرت أيضا بالثقافة المحلية الأفريقية، كما تأثرت بالثقافات الإغريقية والرومانية عبر مصر، بدليل أن اللغة الإغريقية تصبح لغة رسمية في بعض المناطق^{٤٣}.

٣٨ أيضا ص ٤٠.

٣٩ فانتيني، المصدر السابق، ص ٣٢.

٤٠ فانتيني، المصدر السابق، ص ٣١ (Herodotus, Histories V.1 London 1964 – PP125)
"11").

٤١ الشاطر البصلي عبد الجليل، مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية، مصر وزارة الثقافة والإرشاد، بدون تاريخ ص ٣٣.

٤٢ فانتيني، المصدر السابق، ص ٣١.

٤٣ أيضا، ص ٤٨.

يقول ماكمايكل: إن آثار العلاقات بين أثيوبيا ونهر النيل واليمن، والتي بدأت قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة قبل المسيحية، تبرز واضحة في آثار النوبة في معبد مروى، ومعبد الشمس، ومعبد الأسد، ومعبد إيزيس، وتمائيل الأسود في النقعة والمصورات وسوبا، والمرتبطة بعبادة الشمس في تلميس، والتي نجدها أيضاً في أثيوبيا^{٤٤}.

أهمية الديانات في هذه الفترة تكمن في كونها تلقى بظلالها على صورة الحكم وتقسيم العمل في المجموعات المختلفة. وفي ظل هذه العلاقات، تبرز أهمية خاصة للملوك والكهنة إيماناً بقداستهم، وأنهم ظل هذه الآلهة. لهذا صارت معتقدات الملوك بمثابة الدين الرسمي للدولة، كما صار الكهنة يمثلون الارستقراطية الحاكمة^{٤٥}.

خلاصة القول، إن هذه الفترة بالنسبة للنوبة تمثل مرحلة الإيمان بديانات وثنية متعددة، فهم في محاولتهم لتفسير ظواهر الكون المختلفة، وسيادة الشعور بوجود قوى غيبية أعظم، ولها القدرة على حمايتهم، لجأوا إلى آلهة متعددة، هي -في غالبيتها- مُستمدّة من الديانات المصرية وديانات من اتصلوا بهم من الأمم كالرومان والإغريق.

الديانة اليهودية:

هناك من الدلائل ما يشير إلى أن للنوبة اتصالات مع اليهود والديانة اليهودية عبر مصر، يقول فانتيني: إن هناك جالية يهودية كبيرة تقطن بجزيرة الفنتينة الواقعة تجاه مدينة أسوان، وكانت تحتكر التجارة بين مصر والنوبة^{٤٦}.

هذا وقد جاء في أعمال الرسل قصة عن وزير الملكة الأم في المملكة المروية في عام ٣٧٠ قيل فيها "كلم ملاك الرب فيليب قال: قم فامض نحو النوبة في الطريق المنحدرة من اورشليم إلى غزة وهي مقفرة، فقام ومضى، وإذا دونه رجل من الحبشة خصي ذو منصب عال عند قنّداقة ملكة الحبشة وخازن جميع أموالها، وكان راجعاً من

٤٤ ماكمايكل، المصدر السابق، ج ١ ص ٤١.

٤٥ يوسف فضل، دراسات في تاريخ السودان، الخرطوم ١٩٧٥. ص ١٥.

٤٦ فانتيني، المصدر السابق، ص ٤١.

أورشليم بعد ما زارها حاجًا، وقد جلس في مركبته يقرأ النبي أشعيا، فقال الروح لفيلبس: تقدم فالحق هذه المركبة، فبادر إليها، فسمعه يقرأ النبي أشعيا، فقال (أنفهم ما تقرأ) قال: (إن لي ذلك إن لم يرشدني أحد)^{٤٧}.

ويقول فانتيني: إن ازدهار العلاقات بين النوبة والمملكة اليونانية، جاء أساسًا بسبب الحجيج من النوبة إلى الأماكن المقدسة بأورشليم. هذا وكانت الجالية تملك مكانًا خاصًا لها في كنيسة القيامة بالقدس. وبعد أن فقدت النوبة هذا المقام، استمر المطران الأرمني بالقدس في دفع نفقات الحجاج من النوبة والحبشة، حفاظًا على تقاليدهم القديمة^{٤٨}.

الديانة المسيحية ودخولها في السودان:

تطرقنا في حديثنا السابق عن الشعوب في السودان، إلى الدلائل التاريخية التي تشير إلى تأثر السودان عبر التاريخ بجيرانه خاصة في الشمال. هذا وقد دخلت الديانة المسيحية مصر في القرن الأول الميلادي، حيث جوبهت بمعارضة شديدة من الدولة في بداية الأمر، إلى أن تم الاعتراف بها كديانة رسمية في القرن الخامس الميلادي. بينما سبقت أثيوبيا مصر والسودان في الاعتراف بالمسيحية كدين رسمي للدولة في العام ٣٣٠م.

هذا وباستقراء هذا الواقع الذي يشير إلى أن آلهة النوبة في العصور التي سبقت دخول المسيحية وحتى دخولها في القرن الخامس كانت هي آلهة الفراعنة المصريين، فإن انتشار الديانة المسيحية في مصر كان لابد من أن يكون له أثره المباشر على بلاد السودان.

هذه الآثار تبدو جلية في الإشارات لحالات فردية اعتنقت المسيحية في النوبة قبل إعلانها رسميًا من قبل الدولة في القرن السادس الميلادي. وقد ذكر فانتيني أن أول مسيحي دخل النوبة هو قس في حاشية الملكة الأم في المملكة المروية حوالي العام

٤٧ أيضا، ص ٤١.

٤٨ أيضا، ص ١٢٢.

٣٧٠م. وكان وزيراً للملكة المروية، سبق أن تعلم مبادئ الديانة اليهودية، وفي طريقه لزيارة المدينة المقدسة، قابل أحد المسيحيين، حيث نال المعمودية ورجع إلى بلاده^{٤٠}

وقد بدأ التبشير المنظم في بلاد النوبة في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، حين طلب أحد القساوسة في الإمبراطورية البيزنطية يدعى جوليان من الملكة ثيودورا السماح له بالذهاب إلى النوبة لنشر المسيحية على مذهب اليعاقبة "القبطية"، حينها أرسل الإمبراطور جستنيان أيضاً رسالة إلى النوبة لنشر المسيحية على المذهب الملكاني المنادي بطبيعتين للمسيح. وقد نجحت الملكة في استمالة حكام النوبة وعرقلة سير رسل الملك. هذا وقد وصل جوليان للنوبة في العام ٥٤٣ م، ومكث فيها حتى العام ٥٤٥ م. استطاع خلال ذلك تعمد كل الأسرة المالكة والنبلاء وحاشية الملك والقليل من العامة. في هذه الفترة فإن بعثة الملك جستنيان اتجهت نحو المقررة حيث نجحت أيضاً في تعمد الأسرة المالكة^{٤١}.

وبعد رجوع جوليان أرسلت الملكة قساً آخر هو لونجينس الذي مكث لمدة ست سنوات نجح خلالها في نشر المسيحية في علوة. وقد اعترفت علوة بالمسيحية كدين رسمي للدولة في القرن السابع الميلادي^{٤٢}.

هذا وبنهاية القرن السادس وبداية القرن السابع توحدت دول الممالك الثلاثة وهي نوباتيا وعاصمتها فرس والمقررة وعاصمتها دنقلا العجوز وعلوة وعاصمتها سوبا في الدين المسيحي بينما ظل البجة على وثنيته. يقول ماكمايكل: إن أولمبيدس عندما زار البجة في القرن الخامس كانوا لا يزالون وثنيين. واستمروا كذلك حتى منتصف القرن السادس. ويقول ربما اعترف البجة بالمسيحية نتيجة لغزوات سيلكو للمنطقة^{٤٣}. وتشير المصادر التاريخية إلى أن مملكتي علوة ونوباتيا اعتنقتا المسيحية على المذهب اليعقوبي بينما كانت المقررة ملكانية. وفي هذه المرحلة حولت الكثير من الهياكل الوثنية إلى

٤٠ فانتيني، المصدر السابق، ص ٤٠.

Trimingham J. S, abid Pp 55 ٥٠

٥١ ماكمايكل، المصدر السابق، ص ١٨.

٥٢ أيضاً، ص ٤٠.

كنائس، ويقال إن أول قس مسيحي لفيلة هو مكدونيس، الذي ثار غضبه عندما رأى السكان يعبدون حورس في فيلة. فقام بتعميد اثنين من المواطنين وعينهم على الكنيسة.

ويبدو أن المسيحية قد انتشرت بصورة واسعة مما حدا بكوزما أن يقول: "إن دين المسيحية قد انتشر في جزيرة العرب والساحل الغربي للبحر الأحمر، وذكر من القبائل التي اهتمت بالمسيحية النوباطي وأهل قرافتش^{٥٣}. وفي رسالة من لونجيوس إلى ملك نوباطيا أعلمه أنه لدى وصوله إلى سوبا وجد فئة من المسيحيين الأكسوميين الذين يعرفون باليعاقبة ويدّعون أن جسد المسيح منزّه عن الأوجاع والآلام^{٥٤}. ويذكر مكّي شبكية أن لونجيوس عند وصوله علوة ذكر "بشرنا الملك وعمناه مع كل أسرته وحاشيته ونبلائه وكان عمل الرب ينمو كل يوم"^{٥٥}

ويبدو أن الصراع بين المذاهب المختلفة كان له أثره على النوبة أيضاً فالمنقول من تاريخ الكنيسة اليعقوبية في أنطاكية " أن بعض الأساقفة من الطائفة التي تدعى الملكانية قد قدموا إلى بلاد كوش في زمن دخول الممالك للنوبة وكان غرض هؤلاء الأساقفة أن يمنعوا نشر المسيحية بحسب عقيدة اليعاقبة^{٥٦}. هذا وفي العام ٥٨٠ م أصبحت للمسيحية الديانة الرسمية لكافة الممالك الشمالية نوباتيا وعلوة على مذهب اليعاقبة والمقرة والقراميش على المذهب الملكاني الأرثوذكسي.

وقد نقل المقريري^{٥٧} عن ابن سليم الأسواني واصفا سوبا عاصمة علوة: "بأنها كانت فيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين، وبها رباط فيه جماعة من المسيحيين. ومستملك علوة أكثر مالا من مستملك المقرّة وأعظم جيشاً، وبلده أخصب وأوسع والنخل والكروم عندهم يسير، وزرهم اللحم عندهم كثرة المواشي والمروج

٥٣ فاتتيني، المصدر السابق، ص ٤٥.

٥٤ أيضاً، ص ٥١.

٥٥ مكّي شبكية، السودان عبر القرون، دار الثقافة، بيروت - لبنان ١٩٦٤. ص ٢٥.

٥٦ أيضاً، ص ١١٨ يقول فاتتيني أن الطائفة الفاتنارية تعتقد أن جسد المسيح شبح وليست كجسد إنسان.

٥٧ المقريري: تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٧٠ م.

الواسعة العظيمة السعة، وعندهم خيل عيان وجمال صهب عراب، ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل الإسكندرية كالنوبة وكتبهم باليونانية".

هذا وتشير المصادر إلى بعض المخلفات الأثرية الملموسة للحضارة النوبية المسيحية وتتمثل في الآثار لعدد ٦٠ كنيسة مبعثرة في المنطقة ما بين الجوف المصرية إلى جبل سقدي جنوب سنار، وقد أنشئت هذه الكنائس على طراز الباسليكا الذي كان شائعاً في العالم البيزنطي، كما يشتهر فخار دنقلا وسوبا بالنقوش المسيحية ومن أبرز ملامحها نقش الصليب.

هذا وقد أوكل بعض ملوك النوبة للأسقف مسؤوليات سياسية في المدينة. فكانوا إلى جانب منصبهم وموقعهم الديني ينوبون عن الملك في بعض الأحيان. والجدير بالذكر أن جميع الأساقفة رهباناً حسب تقاليد الكنيسة الشرقية.^{٥٨}

هذا ومما لا شك فيه هو أن المسيحية انتشرت على طول وادي النيل من أسوان إلى سوبا وفي أرض البجة وسواحل البحر الأحمر، غير أن أثر المسيحية كان ضعيفاً لأنه انحصر في أفراد الأسرة الحاكمة وحاشيتها، ولم يطرأ تغيير يذكر على الثقافة المحلية مما نتج عنه استمرار سيادة الكثير من الديانات القديمة والعادات المحلية على الرغم من اعتناق الدولة للدين المسيحي كدين رسمي.

خلاصة القول، إن حديثنا هذا عن الأديان في الفترة التي سبقت دخول الإسلام، جاء مؤكداً ما ذكرناه في مقدمة هذا الفصل، عن أن المعتقدات الدينية كانت هي المشكلة الأساسية للوعي وما يتصل به من أيديولوجيات وفهم ومجموعة قيم سادت في تلك الفترة. وهو - أي المعتقد الديني - يعد محاولة لتفسير ظواهر هذا الكون. وسنتطرق لاحقاً إلى المعتقدات الشعبية من مخلفات هذه المراحل وبقائها حتى بعد سيادة الإسلام وانتشاره.

٥٨ فانتيني، المصدر السابق، ص ٥٣.

وتسعى هذه الدراسة إلى المقاربة بين مآلات وإشكاليات الوعي والمعرفة في تلك المرحلة التاريخية وربطها بالواقع الاجتماعي والثقافي الذي ساد تلك الفترة، إذ إن فهم هذا الواقع بشكل متكامل وفهم الفترة التي تليه ودخول الإسلام في السودان لن يتأتى إلا بفهم الكيفية التي دخل بها الإسلام في السودان والنوعية التي حملته، بهدف أن تأتي المقارنة سلسلة توضح بجلاء نوعية الثقافة الدينية التي سادت بعد دخول الإسلام واضعين في الاعتبار الاعتقادات المتأصلة في نفوس المجموعة مع الإمكانات التي توفرت بهجرة العرب والثقافة التي حملوها حتى ينتهي لنا فهم مكونات المعتقدات والثقافة الدينية السودانية في تلك الفترة، والتي جاءت لتكون ثقافة هجين تجمع بين ثنائياها الإرث الوثني الأفريقي وأثار الديانات الفرعونية ومخلفات الديانة المسيحية مع الثقافة العربية الإسلامية الوافدة.

الهجرة العربية وانتشار الإسلام في السودان

يقول حسن أحمد محمود: إن هجرة العرب إلى السودان وانتشار الإسلام يعني تعرض المجتمع المحلي السوداني لظواهر ثلاث هي الثقافة العربية والدين الإسلامي والشرعية الإسلامية^{٥٩}.

وقد لعبت الهجرات العربية دوراً رئيسياً ومؤثراً في نشر الثقافة العربية ونشر الديانة الإسلامية، أن غياب التعمد والتخطيط المسبق لنشر الدين الإسلامي في السودان، واقتصار انتشاره على هذه الهجرات أدى إلى أن يكون التطبيع مع مكونات الثقافة الوافدة تدريجياً وسلساً، وقد استمرّ لفترة امتدت حوالي السبعة قرون قبل أن يستتب الأمر للعرب ولتوطين الثقافة العربية والديانة الإسلامية. خلال هذه الفترة لم يفرض الدين الإسلامي ولا الثقافة العربية بقوة السلطة أو السلاح، بل إن هذه الهجرات المتتالية والمتزايدة استطاعت عبر تعايشها السلمي مع المجموعات المحلية في بلاد النوبة أن تنشر الثقافة العربية والديانة الإسلامية.

لقد ساهمت عوامل عديدة محلية ووافدة في تكريس هذا الوضع الجديد، ويأتي على رأسها العامل الأيديولوجي المتمثل في الوضعية السائدة للدين أو الديانات ودورها المفصلي في حياة الناس، ثم العوامل الاقتصادية والاجتماعية المتمثلة في المكاسب المادية والتجارية من وراء هجرات العرب، ومن ثم ما يمتلكه العرب من قدرات أتاحت لهم دور ريادي في إنعاش التجارة وتطوير وسائل تجيم المعادن، وأثر كل ذلك في اكتساب مكانة حيوية كان لها تأثيرها في تطبيع السكان المحليين بالثقافة الوافدة للعرب المسلمين. وهذا ما اسماء توبيني بظاهرة الالتقاء أو التماس الثقافي. يقول توبيني عن ذلك

٥٩ أنظر حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

"إن الخصائص الفردية للثقافة الأجنبية أكثر قبولاً من الثقافة في مجموعها" ويقول أيضاً:
"إن فترة النفاذ لأي إشعاع ثقافي تكون على نسبة عكسية للقيمة الثقافية لذلك الإشعاع"
ويضرب مثلاً على ذلك اختلاط المسلمين أولاً بالسكان المحليين^{٦٠}. وهذا في مجمله يعني
أن المجتمع السوداني حينذاك أخذ من الوافدين بقدر يتماشى مع واقع السكان المعيشي
الاجتماعي والاقتصادي والذي ينعكس بدوره على الواقع الثقافي للمجتمع. نستدل على
صحة مقولتنا هذه بنظرة متأنية لواقع انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ليس في السودان
فحسب، بل على مستوى كافة الأماكن التي انتشر فيها.

ففي الجزيرة العربية اختلطت الرسالة الإسلامية بالإرث الثقافي الموجود. فدار
الإسلام كانت زاحرة بميراث حضارات شتى هيلينية ومشرقية إلى إسرائيليات
ووثنيات^{٦١}. فكان لابد من أن يستفيد الفكر الإسلامي من ذلك الميراث الحضاري
الضخم. وعن مصر يقول الدكتور محمود إسماعيل: "لقد تغلغلت العقلية الإسلامية داخل
مكتبة الإسكندرية وأديرة وكنائس النصارى وبيع اليهود ومعابد النار الزرادشتية،
فكشفت عن أسرار الحكمة والمعرفة وكيفتها مع طبيعة العصر وأعطتها طابعاً إسلامياً
مميزاً"^{٦٢}. هذه التراكمات لم تقتحم الفكر الإسلامي فجأة أو عنوة فقد كانت العهود الأولى:
عهد النبي وأبو بكر وعمر أكثر التصاقاً بما هو منزل وبما يمليه عليهم رسول الله
(ص)، "غير أنها بدأت تظهر جلياً بعد خلافة عمر، وكان نتاج ذلك تفرق المسلمين إلى
فرق ومذاهب شتى فلسفية وسياسية.

٦٠ أيضاً.

٦١ محمود إسماعيل، تاريخ الحركات السرية في الإسلام، رؤية عصرية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣،
ص ٢٨.

٦٢ أيضاً.

٦٣ جاء في السيرة أن شخص يدعى «ذو الخويصرة» الذي يقال إن الخوارج يخرجون من صلبه فعن
أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسماً،
أتاه ذو الخويصرة، ويقال له أبو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال:
«ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». فقال عمر يا رسول الله، الذن لي فيه
فاضرب عنقه؟ فقال: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم،
يقرءون القرآن لا يجوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا
يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نصبه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه
شيء، ثم ينظر إلى قنذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل
ثدي المرأة»^{٦٤}.

وفي مصر ارتبط وفود الثقافة الإسلامية إليها بالغزو بعد أن فتحها عمرو بن العاص في عهد سيدنا عمر بن الخطاب في عام ٦٤١ م فارضاً سلطة الدولة الإسلامية بقوة السلاح. وعلى الرغم من ذلك فإن فرض الديانة والثقافة الإسلامية في مجموعها لم يسلمها من الاختلاط بثقافات إغريقية ورومانية وفارسية لها مؤسساتها ومراكزها الفعالة في جامعة الإسكندرية وأديرة وكنائس اليهود والنصارى.^{٦٤} هذه الثقافة التقت أيضاً بثقافة محلية منبعها الحضارة والديانات الفرعونية القديمة. وقد التقت النظم الإسلامية بمخلفات نظم الشعوب التي تتالي حكمها على مصر، وقد كان نتاج هذا الالتقاء طراز من الحضارة إسلامي الطابع متأثر في جوهره بهذا الإرث الحضاري الثر. وفي بلاد المغرب امتزجت الثقافة الإسلامية بثقافات إغريقية ولاتينية وفينيقية، وبتقاليد ونظم درجت عليها شعوب البربر.

هذا ومن الثابت أنّ الهجرات العربية التي ساهمت في نشر الدين الإسلامي والثقافة العربية في السودان قد جاءت من الجزيرة العربية وعن طريق مصر ومن بلاد المغرب، من هنا نستطيع القول بأنّ الثقافة الإسلامية عندما حلت بالسودان كانت قد امتزجت بالكثير من القيم والمظاهر للثقافات المتعددة التي حلت بهذه المناطق. هذه الثقافة الوافدة إلى السودان بفرقها ومذاهبها المتعددة والمتنوعة وليست على وجه الشريعة الإسلامية، جاءت إلى السودان لتلتقي أيضاً بإرث ثقافي محلي تطرقنا إلى تفاصيله في الفصل السابق. هذا الإرث الثقافي المحلي هو تزاوج بين المسيحية والوثنية والمعتقدات والديانات الأفريقية، فكان أن نتج عن هذا الالتقاء إسلام وثقافة إسلامية لها طابعها المحلي والمتفرد بها، وهو ما أطلقنا عليه في بداية هذا الفصل الإسلام الشعبي وأسميناه لاحقاً بالإسلام. لذا نجد أنّ الثقافة الإسلامية كان لها دائماً طابعها المتفرد بها في كل مجتمع حلت به، تبعاً لظروفه الاجتماعية والاقتصادية، واتصالاته الخارجية مع الشعوب الأخرى وإرثه الثقافي.

وكان لكل مجتمع حل به الإسلام ثقافته ومكوناتها التي تمثل خليط من الديانات والتقاليد المحلية الموروثة والثقافات الإسلامية المكتسبة. تتضح لنا هذه الحقيقة بدراسة ما كتب عن التاريخ الاجتماعي والسياسي للسلطنات الإسلامية في أفريقيا والمنطقة العربية.

٦٤ أنظر حسن أحمد محمود، المصدر السابق.

على وجه الخصوص كتابات القلقشندي وابن بطوطة وابن فضل الله العمري والتي تصف مظاهر الحياة في السلطنات الإسلامية التي قامت في غرب ووسط أفريقيا. ومن مظاهر ذلك أيضاً المكون الثقافي لبلاد النوبة في عهد السلطنات الإسلامية سلطنات الفور والفونج وتقلي، خصوصاً في التقاليد والنظم الملكية وفي نظام تنويع السلطان والألقاب السلطانية وفي ملكية الأرض والقوانين العرفية، يقول الدكتور حسن أحمد محمود: "أنه وبدخول الإسلام نشأت في أفريقيا بيئات حضارية محلية، لكل بيئة مقوماتها الخاصة واتجاهاتها الخاصة، ولكن تجمعها في إطار واحد صفات إسلامية مشتركة من وحدة اللغة والدين والمثل"^{٦٥}

إن حقيقة الالتقاء والتماس الثقافي للثقافة الوافدة مع الثقافات المحلية، وقدرتها على الفرز وتمثل الخيارات والتقية والاختيار بطريقة عفوية وآلية من بين مكونات كل هذه الثقافات، لإيجاد ثقافة متوازنة تتعايش وتتجانس دون اختلاف أو تضاد ودون القفز فوق أو تخطي ما هو سائد من نظم وقيم وسلوكيات، كان عاملاً رئيسياً من عوامل نجاح الإسلام في السودان، إذ إنّه لم يقض على العادات والتقاليد المحلية كالخوف من المجهول والخرافات، بل ساهم في تعزيز مسوغات بقائها وإيجاد الوازع الروحي لإسنادها معززاً بذات الأيديولوجية الدينية التي يعتمدونها في حياتهم اليومية. وجدير بالذكر، أن دخول الإسلام للسودان بعد مضي قرون من نزوله، أتاح تشبعه بروح بعض الثقافات الأخرى، فأصبح أقرب إلى حياة الناس، خصوصاً وأن معتقداً حيويًا كالإيمان بوجود الإله الأكبر، لم يختل، بل ازداد ثباتاً وبقينا بوجود الإسلام.

التطور التاريخي للهجرة العربية وأهدافها:

وهجرة العرب إلى بلاد السودان لم تبدأ فقط بعد الإسلام، بل إن الصلات بين العرب والنوبة قديمة، ويقال إنها ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد^{٦٦}، ويقال إن

٦٥ حسن أحمد محمود، المصدر السابق، ص ١٣.

٦٦ يذكر المقرئ في كتابه البيان والإعراب عما يارض مصر من الأعراب بأن جماعات من السبنيين قد نزحوا من شمال بلاد العرب إلى السواحل الغربية للبحر الأحمر ويدل يوسف فضل حسن على ذلك بوجود الكثير من الأسماء السامية في مصوع ويقول ماكمايكل إن عبادة الشمس قبل ميلاد المسيح كانت مزدهرة في جنوب بلاد العرب بين عرب حمير الذين استعمروا شمال الحبشة والكلايشة حتى عهد جستنيان، وتشير الروايات إلى أن هؤلاء النازحين استقروا في سقطرة وذلك كما تشير بعض الروايات إلى حملات عسكرية قام بها الحميريون في وادي النيل الأوسط وشمال أفريقيا قام بها أبرهة ذو المنار الحبشي وابنه أخريش وتركوا وراءهم جماعات أقامت في شمال السودان.

العرب من قبل، حملوا معهم ثقافتهم الجاهلية^{٦٧} إلى بلاد النوبة. هذا، وقد شهد القرن الثاني الميلادي نشاطاً تجارياً بواسطة السبثيين في نفس هذه المنطقة. والشاهد على ذلك، آثار نبتة وحمير^{٦٨}.

عوامل هجرة العرب قبل الإسلام ونزوحهم إلى مصر والسودان وبلاد الحبشة متعددة، يجملها يوسف فضل في فقر الجزيرة العربية، وقلة الموارد الطبيعية، وسعي العرب إلى توسيع تجارتهم، والتخلص من مناخ الساحل القاسي، ومن موجات التصحر والجفاف وكثرة العواصف.

لم نجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى أن الهجرات العربية في العصر الجاهلي تركت آثاراً مشهودة على النوبة أو على واقعها الثقافي، وربما مرد ذلك أن هذه الهجرات لم تكن تحمل رسالة ثقافة جديدة تسعى إلى نشرها، لكنها تؤكد قدم الوجود العربي في المنطقة وهي تعني أيضاً تزاوج تجارب مختلفة وربما ثقافة أكثر تقدماً للعرب كتجار وزراع ومنجمين مع السكان المحليين. وما يهمنا من ذلك أن هذه كانت البداية ليكتسب العرب - بتجارهم المتعددة التي اكتسبوها خلال هجراتهم الطويلة سواء كان ذلك عن طريق الشرق أو عبر مصر - مكانة مرموقة وسط المجتمع المحلي الأفريقي.

أما الهجرة العربية بعد الإسلام فيحدد الشاطر البصيلي^{٦٩} بدايتها بدخول العرب المسلمين أولاً عن طريق أثيوبيا نتيجة لموقف نجاشي الحبشة من الهجرة الأولى لأصحاب نبي الله محمد عليه السلام واستضافته لهم، علاوة على الوضع الذي اكتسبته أثيوبيا من جراء ذلك، والذي أتاح تغلغل بعض المسلمين في أثيوبيا وحوض وادي النيل الأوسط^{٧٠}. ومما لا شك فيه فإن التزامن هذه الهجرات مع تفكك سلطان الدولة المسيحية

٦٧ اصطلاح على تسمية الفترة السابقة للإسلام بالعصر الجاهلي.

٦٨ يذكر يوسف فضل أن استرابو ذكر أن الصحراء الشرقية قد سلكت بواسطة العرب ومنهم من حمل التجارة على ظهور الجمال بين النيل في مصر العليا وبين البحر الأحمر.

٦٩ الشاطر البصيلي، المصدر السابق، ص ١١٧.

٧٠ توصل الأثريون إلى الكثير من الآثار العربية في الأجزاء الوسطى والغربية من أفريقيا. وقد عثر الإنجليز في عام ١٩٠٥ على قبر لعربي في روديسيا "سلام المتوفي في عام ٧٠٤-٧٠٥" كما يدل على هذا التغلغل وجود الآثار الحميرية في مدينة حلايب ووجود المجموعات القبلية كالبني عامر والتي تتحدث لغة التكري.

في أثيوبيا والسودان، وفي وقت اشتدت فيه الصراعات المذهبية بين الأنظمة المسيحية المتفرقة كان له دور محوري في تعزيز الوجود العربي وتكريس تغلغل الديانة الجديدة.

يقول ريد في هذا الصدد: إنه وقبل فتح العرب لمصر كان بعض العرب يتسللون عبر البحر الأحمر إلى السودان الشرقي، وقد استطاعوا أن يتزوجوا مع الحاميين من السكان المحليين مما مكنهم من أن يرثوا بعض مناصب الحكم بفضل قانون الوراثة عن طريق الأم وبفضل تقدمهم الحضاري كتجار وزراعي ومنجمين، كما كان للتجارة دور بارز في استقرار هؤلاء العرب. وفي عام ٧٠٢ م أنشأ العرب محطات على الساحل الغربي درءاً لهجوم القراصنة في سواكن وباضع وأوناس ودهلك وزيلع وبربرة وبرادة وعيداب.^{٧١}

ومن أهم الهجرات العربية التي ذكرتها الروايات التاريخية هجرة جماعات البلي والحضارمة^{٧٢} إلى بلاد البجة في القرن السادس الميلادي، ولجوء أولاد مروان وشيعتهم واستقرارهم بأرض البجة^{٧٣}، وهجرة جماعات من عرب هوازن عبر البحر الأحمر في نهاية القرن السابع الميلادي واستقرارها في أرض البجة حيث عرفوا باسم الحلانقة. وقد أخذ العرب القاطنون في أسوان منذ عهد بني أمية يشترون من أهل النوبة أراضي يستثمرونها حتى تملكوا ضياعاً كثيرة داخلية بأراضي النوبة في منطقة مريس^{٧٤}.

وأورد القلقشندي وثيقة هي عبارة عن مكاتبة بعث بها سلطان برنو في السودان الغربي إلى سلطان الممالك في مصر يشكو فيها اجتياح أعراب جذام وغيرهم ببلاده وإفسادهم فيها ويطلب من السلطان للملوكي أن يتعقبهم ويقبض عليهم ويوقع بهم أشد العقاب^{٧٥} وقد ازداد عدد القاطنين من العرب في القرن العاشر على النيل الأزرق

٧١ الشاطر البصلي، المصدر السابق، ص ٨١.

٧٢ يذكر المسعودي وجود جماعات مسلمة منهم في بلاد البجة دون سائر "البجة يسمون اللغة العربية بلويت نسبة إلى بلي وبلي تعني العربي في البداوية ويقول يوسف فضل أنهم أتوا قبل الإسلام وقد تزواج الحضارمة مع الزنائج وسموا بالحدارية وقد استطاعوا أن يبنوا مركزاً مرموقاً أتاح لهم الوصول إلى الحكم بفضل قانون الوراثة وتقدمهم الحضاري كتجار وزراعي ومنجمين وهناك أسطورة عند البجة تقول إن البلويين عرب هاجروا قبل الإسلام.

٧٣ الحنبلي، ابن العباد، شذرات الذهب، ج ١، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د ت، ص ١٨٤

٧٤ المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين، القاهرة ١٩٦٤ ص .

٧٥ القلقشندي. أحمد بن علي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٢ ج ٥، ص ١١٧.

وازدادت ثروتهم حتى استطاعوا أن يلتصقوا الإذن ببناء مسجد في عاصمة المملكة المسيحية.^{٧٦} وذكر اليعقوبي حوالي ثلاثين موضعا من مواضع الذهب والتي كانت مراكز لاستيطان العرب،^{٧٧} ويذكر ابن سعيد "١٢١٤ - ١٢٨٧" أن البجة بعضها نصارى وبعضها مسلمون.^{٧٨} وبعد ذلك بأكثر من قرن يأتي ابن بطوطة ليذكر أن مدينتي عيذاب وسواكن عامرتان بالإسلام والمسلمين.^{٧٩}

إن كل هذه المؤشرات تؤكد أن تكاثر مجيء العرب للسودان كان مرتبطا بمصالح خاصة لهم تتمثل في التجارة والبحث عن مصادر الثروة. هذه الهجرات التلقائية للعرب تخللتها بعض المحاولات الرسمية لتقنين علاقة تبعية واضحة للدولة العربية، وأهم هذه المحاولات حملة عمرو بن العاص على النوبة بقيادة عقبة بن نافع في عام ٦٤١م، هذه الحملة انتهت بمعاهدة الصلح الشهيرة مع فيرقس ملك النوبة.^{٨٠} إن بعض مما حكى عن هذه الحملة يؤكد صحة ما أشرنا إليه من أن هذه الغزوات لم يكن مقصود بها نشر الإسلام، فقد حكى شيخ من الحمر شهد الغزوات قرمونا حتى ذهبت العيون فعددت مائة وخمسون عينا مققوعة، فقلنا ما لها ولاء خير من الصلح وإن سلبهم لقليل ونكايتهم لشديدة.^{٨١} وقد كانت الحملة ومن ثم المعاهدة التي وجهت بموجبها العلاقات الأمنية بين الدولتين. وبدراسة متفحصة لنصوص المعاهدة نستطيع أن نستبين بأن الحملة كانت تستهدف تنظيم وتأمين الحدود الجنوبية للدولة الإسلامية الوليدة، ولم تكن بأي حال من الأحوال تسعى إلى نشر الإسلام. وقد أتبع هذه الحملة بحملة أخرى بقيادة عبدالله بن أبي السرح. والتي انتهت بتوقيع معاهدة البقط.^{٨٢} وتكتسب معاهدة البقط أهمية خاصة في

٧٦ أرنولد توماس ولكر. الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م

٧٧ انظر أبو العباس أحمد بن إسحاق اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

٧٨ انظر المقرئ، المصدر السابق، ج ٥

٧٩ انظر ابن بطوطة. شمس الدين أبو عبد الله محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار بيروت بيروت ١٩٦٤ م.

٨٠ ملحق رقم (١) معاهدة الصلح

٨١ كان النوبيون أولي بأس شديد وقد برعوا في رمي السهام وعرفوا برماة الحدق وقد قال عنهم الشاعر:

لم تر عيني مثل يوم دنقلة **** والخيل تعدو بالذروع مثقلة

٨٢ ملحق رقم (٢) معاهدة البقط.

تحديد وتقنين العلاقة بين الدولة الإسلامية وبلاد النوبة إذ إنها حكمت العلاقة بين العرب وبلاد النوبة لمدة ستة قرون لاحقة.

وقد شملت هذه المعاهدة المنطقة من أسوان شمالاً إلى حد أرض علوة جنوباً. والمعاهدة إلى جانب أنها تستهدف تأمين الحدود وحفظ العلاقات السلمية بين البلدين، إلا أنها ركزت بصفة خاصة على تنظيم العلاقات السياسية والتجارية بين البلدين. والمعاهدة تؤكد محاولة الدولة العربية في مصر فرض سيادة اسمية على النوبة بإلزامها دفع جزية سنوية سميت بالبقط.

وتشير وقائع الأحوال إلى أن استتباب الأمن لم يكن أمراً ميسوراً بفعل عوامل كثيرة من أهمها تداخل المصالح الاقتصادية، لذا لم تتجح هذه المعاهدات في إنهاء مظاهر العداء بل تواصلت الغارات. وتشير المصادر التاريخية إلى غارات العرب على دنقلا العجوز في العام ٦٥٢م. كما أن غارات البجة على مصر لم تتوقف، وكانت سبباً في إرسال حملة أخرى بقيادة ابن الحجاب، وقد تم على أثرها وضع ضوابط لتنظيم العلاقة بين طرفي النزاع وبموجب هذا الاتفاق تعهدت البجة على دفع جزية سنوية عبارة عن ٣٠٠ من الإبل للصغيرة. ولعدم التزام البجة ببنود المعاهدة تم إرسال حملة أخرى بقيادة عبدالله بن الجهم وقد انتهت هذه الحملة بهزيمة البجة، وعقد صلح مع ملكهم كنوف بن عبد العزيز^{٨٣}. ومن أبرز نصوص هذه المعاهدة النص الذي التزمت بموجبه البجة على عدم التدخل في كل ما يخص مناجم الذهب التي يملكها العرب.

هذه المعاهدة مع كنوف بن عبد العزيز تكشف لنا بجلاء مدى تمكن العرب في المنطقة وفي اقتصادها وفي ثقافتها، وتكشف عن وجود مؤسسة إسلامية متكاملة في ذلك الوقت، إذ ورد بنص الاتفاق (حفظ المساجد القائمة وجمع صدقات ممن أسلموا) ومن المساجد التي ذكرت في المصادر التاريخية عند توقيع هذا العقد مساجد دنقلا وكنسه وإسراجة. وفي رواية لابن حوقل أن أفراداً من البجة أسلموا لإسلام تكليف وحفظوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض^{٨٤}. هذه الحملات المتكررة

٨٣ ملحق رقم (٣) صلح كنوف بن عبد العزيز

٨٤ أنظر ابن حوقل محمد أبو القاسم، المسالك والممالك، ١٨٧٣

ضد البجة تثير الكثير من التساؤل حول الصراع على مصادر الذهب كفرضية محتملة لتأجج هذه الصراعات من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنها أيضا تثير الكثير من التشكك حول مدى جدية البجة وإخلاص نيتهم في دخول الإسلام وإلى أي مدى يمكن أن يكون إسلامهم مرتبطا فقط بالإذعان والتظاهر تفاديا لدفع الجزية.

كما تذكر المصادر التاريخية محاولات أخرى من جانب النوبة لترسيخ علاقات سلمية مع الدولة العربية، ففي العام ٨٣٦م أرسل الملك جورج بن زكريا وفد نوبي سافر إلى الخليفة المعتمد، وكان الهدف الرئيسي من الزيارة هو طلب تقليل البقطة، وتيسير المصادر إلى أن هذا الوفد طلب من الخليفة المعتمد إرسال علماء يعلمونهم أمور الدين الإسلامي. وقد أرسل لهم الخليفة المعتمد سبعة من علماء بني العباس تتواتر الروايات بعد ذلك عن أنهم أقاموا بدقلا وتناسلوا بها^{٨٥}.

هذا وقد تميز العهد الفاطمي بسيادة علاقات سلمية طيبة مع النوبة، لم تتوان النوبة فيها عن دفع البقطة. غير أن هذه العلاقات توترت مرة أخرى بمجيء الأيوبيين^{٨٦} ووقوف بعض النوبة ضدهم.

هذا وعلى الرغم من سيادة العلاقات العدائية بين المماليك وبلاد النوبة إلا أن عهدهم يمثل نقطة تحول بارزة لصالح انتشار الثقافة العربية والإسلام في السودان. إذ إن عدم التزام النوبة بما ورد في المعاهدات لحفظ السلام أدى إلى سلسلة من الغزوات على النوبة، من أهمها حملة الظاهر بيبرس^{٨٧}. هذه الغزوات كانت سببا في تخلف الكثيرين ممن صاحب هذه الحملات من أعراب بني هلال وبني شيبان وأولاد عمر. كما كان

٨٥ هذا الطلب تقدم به قيرقس ابن زكريا بهنس الذي قدم إلى المعتمد لتسوية البقطة المتأخر "كتاب الشونة تحقيق الشاطر البصيلي القاهرة ص ١٤٢"

٨٦ وقد ثار بعض النوبة على صلاح الدين الأيوبي مما أدى إلى فتنة وقتال وتراجع بعدها النوبة إلى صعيد مصر "فاتنيتي ص ١٥٠". وقد تقدم ملك النوبة بجيش إلى صعيد مصر مساندا الأسرة الفاطمية غير أنه أخفق فقتل ذلك غزوة توران شاه في أواخر ١١٧٣ ردأ على حملة ملك النوبة حيث استولى على قصر إبريم ورجع بعدها إلى مصر لقلة السلب.

٨٧ أهمها حملة الظاهر بيبرس والتي كان نتائجها عزل داؤود ملك النوبة وتتويج شكندة بدلا عنه بعهد عقده لصالح سلطة الفاطميين في المنطقة كما قام قلاوون بعده بإرسال ثلاث حملات ضد شماعون ملك النوبة.

هنالك تدخل مباشر إثر ذلك قضى بعزل داؤود وتتويج شكندة بدلا عنه بعهد عقده لصالح سلطة الفاطميين في المنطقة، وهي المرة الأولى التي يتم فيها تدخل سافر لتعيين حكام النوبة. هذه المرحلة هي البداية الفاصلة لانتهيار الدولة المسيحية لصالح قيام كيان يعتمد الدين الإسلامي. وقد مثل تتويج عبدالله بن سنو ملكا على النوبة علامة فارقة بتدشينه إقامة أول مسجد في دنقلا في العام ١٣١٧م.^{٨٨}

إن هذه المحاولات الرسمية المتتابعة لتحديد أشكال العلاقة بين الدولة العربية في الشمال وبلاد النوبة، كان لها أثرها في فتح الطريق لانتشار العرب في السودان بثقافتهم الإسلامية العربية ولغتهم العربية، الشيء الذي كان له أثر فعال في تنظيم العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين، ومن ثم تغلغل هذه الثقافة الوافدة بين مجموع السكان.

ويذكر ابن سليم الذي زار بلاد النوبة في نهاية القرن العاشر، أن المنطقة الممتدة من أسوان حتى الشلال الثالث يتصرف فيها المسلمون لا تصرف المهاجرين اللاجئين إنما تصرف الملاك وأصحاب البلاد.^{٨٩} ويذكر المقرئ أي أنهم أي المسلمين كانوا متمتعين باستقلالية تامة في هذه المنطقة، وقد اندمجوا في حياة الناس وتعلموا لغتهم وفهموا عاداتهم وتقاليدهم.^{٩٠}

الخلاصة أن النواة الأولى لهجرات العرب المسلمين والتي بدأت منذ القرن السابع الميلادي تألفت من هجرات متعاقبة لبقايا الأحلاف العربية بقيادة قبائل جهينة وجذام وربيعة والعركيين والهاليين والقرشيين والهواره.^{٩١} هذه الهجرات استمرت في التدفق والتزايد والتكاثر والاختلاط مع السكان المحليين فقامت مكانتهم في البلاد وأصبحوا قوة اقتصادية واجتماعية مؤثرة، وبحلول القرن العاشر الميلادي استكملت حلقات التأثير

٨٨ فانتيني، المصدر السابق، ص ١٧١.

٨٩ حسن احمد محمود، المصدر السابق، ص ١١٣.

٩٠ المقرئ، البيان والإعراب عما بارض مصر من الأعراب، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة، ١٩٦١م، ص ١٩٨.

٩١ البلاذري، أبو جعفر أحمد بن يحيى، معجم فتوح البلدان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956م، ص ٥٨.

والسيادة لصالح العرب المهاجرين في المنطقة. وسوف نتضح لنا الصورة بشكل جلي عند التحدث عن أهداف هذه الهجرات.

أغراض الهجرة العربية إلى السودان:

لقد ذكرنا في مسار حديثنا في الجزء السابق موجزا لأهداف الهجرة العربية إلى السودان قبل الإسلام، وحيث إن ما يهمنا لأغراض هذا البحث، هو الهجرات العربية التي جاءت بعد نزول الإسلام، فإن ذلك يستوجب تفصيلا أكثر للأسباب التي حدثت بالعرب المسلمين الهجرة إلى بلاد النوبة، إذ إن أهمية البحث في الأهداف الحقيقية من وراء هذه الهجرات يكمن في أنها تكشف لنا صورة حقيقية ومتكاملة لكيفية دخول الإسلام، والنوعية التي أدخلت الإسلام في السودان، وبالتالي نوعية الثقافة الوافدة كما وكيفا. وهي في ذات الوقت تكشف لنا تطور تدخل العرب والثقافة العربية وسط السكان المحليين، وكيف أن هذه الثقافة تغلغت ثم تمكنت لتصبح الثقافة المسيطرة، وليكون بعدها الإسلام هو دين الدولة واللغة العربية هي لغته. لقد امتد التأثير العربي على السكان المحليين وتغلغل ليصبح مكونا رئيسيا من مكوناته ولتصبح القبيلة قواما للتكوين الاجتماعي كما هو ماثل في الجزيرة العربية. وقد انتقل المكون القبلي إلى السودان بما يحمله من مظاهر إيجابية وسلبية بل حتى أن ما حدث من تحالفات بين القبائل هو انتقال وامتداد لثقافة الأحلاف التي كانت سائدة في الجزيرة العربية.

إن وفود الثقافة العربية والعروبة إلى السودان تم على مرحلتين، المرحلة الأولى هي المرحلة قبل قيام الممالك الإسلامية في السودان، والمرحلة الثانية هي المرحلة ما بعد قيام هذه الممالك، وقد تميزت المرحلة الأولى بعلاقات غير واضحة بين بلاد العرب وبلاد النوبة على عكس ما توافر من معطيات إيجابية بعد قيام ممالك إسلامية. هذا إلى جانب أن المرحلة الأولى تميزت بمجتمع اكتفائي بدائي بمجموع علاقاته والأنظمة التي تحكمه، ثم ما حدث من تغيير في هذه العلاقات نتاج قيام حكومة مركزية تمثلت في سلطنتي الفونج والفور الإسلاميتين.

وعموماً فإنه لم يرد ذكر بعثات تبشيرية إسلامية منظمة جماعية كانت أم فردية إلا في مرحلة متقدمة بوفود أفراد من العلماء وسيجيء تفصيل ذلك في أوانه.

هذا وفي تتبعنا السابق لتطور العلاقات الرسمية بين الدولة العربية في مصر وبلاد السودان، رأينا أن كل الحملات التي أرسلت في العهود الأموية والعباسية، وعهود دولة الفاطميين والمماليك في مصر لم تكن تهدف إلى نشر الإسلام، بل كانت تستهدف فرض علاقات سلمية مع بلاد النوبة، وتأمين الحدود الجنوبية وطرق التجارة للمارة عبرها، إلى جانب الحفاظ على المكاسب المادية التي نالها العرب في بلاد النوبة عبر السنوات السابقة وتحصيل بعض الإيرادات، كما تشير الاتفاقية بشكل واضح لحاجة الدولة الإسلامية الناشئة في الشمال للعبء^{٩٢} وتأمين بقاءهم وعدم رجوعهم أو هروبهم إلى السودان بتعهد من الحاكم.

إن المتتبع لهذه الحملات وما نجم عنها من اتفاقات يستطيع أن يجزم وبجلاء حقيقة أن نشر وانتشار الإسلام في السودان لم يتم بناء على مخطط منظم ومستهدف من قبل الدولة الإسلامية، كما لم يكن نزوح العرب إلى بلاد النوبة يستهدف ذلك إلا في وقت متأخر، وأن الإسلام لم يفرض على السكان المحليين، كما لم يكن دخول الإسلام عنوة أو ثوره أو انقلاباً على الأوضاع السائدة اجتماعية كانت أم ثقافية أم اقتصادية. وهي تؤكد حقيقة أن الإسلام والعروبة قد تغلغلتا وسط السكان المحليين بطرق سلمية هي المعاشة والمصاهرة والمصالح المتبادلة بين الطرفين.

هذه الهجرات فردية كانت أم جماعية جاء معظمها للاستقرار بعد أن ضاقت به الأحوال المعيشية في الجزيرة العربية، وبحثاً عن حياة أفضل لهم ولحيواناتهم وهرباً من المجاعات المتكررة وموجات الطاعون، وبعضها جاء عابراً مع للتجارة.

ومما لا شك فيه أن التجارة لعبت دوراً أساسياً في نشر الإسلام، إذ إن موقع السودان كمعبر إلى منتجات أفريقيا وباعثباره حلقة وصل للتجار القادمين من الشمال كان له فعاليتته في ديمومة المواصلات بين العرب والسودان. كذلك فإن منتجات السودان من العاج وريش النعام والجمال وشن الفيل والرقيق والصمغ العربي والذهب كانت من

٩٢ كلمة عبيد كانت هي الكلمة المستخدمة لذا فضلت استخدامها لأنها تفي بغرض استخدامهم على تنوعه.

أهم منتجات السوق العالمي. وقد لعبت الموانئ كسواكن وعيذاب وبادي والمراكز التجارية التي قامت بها دوراً هاماً في توطيد هذه الصلات. ما يدل على ذلك استقرار الكثير من مهاجري عرب جنوب الجزيرة العربية على شواطئ شرق أفريقيا وإنشاؤهم مدناً ساحلية مثل سواكن وباضع وعيذاب وزيلع وبربرة ومقديشو.^{٩٣} وقد كان لعيذاب نصيب الأسد في كل ذلك، وقد ازدادت أهمية عيذاب باندلاع بعض الحروب للصليبية وتحول كافة القوافل التجارية وقوافل الحجاج المسلمين لتمر عبرها، ويعبر المقريري عن ذلك بقوله " وهكذا أصبحت عيذاب عامرة أهلة بما يصدر أو يرد من قوافل الحجاج والتجار".^{٩٤}

وقد كان لازدهار تجارة الرقيق دور بارز في تمتين العلاقات التجارية. فاستجلاب الرقيق كان لازمة مهمة فرضتها رؤى وجهود الدولة العربية للتوسع، وحاجتها المتزايدة للرقيق لتقوية تكوين الجيوش العربية، هذا ويرى ترمينجهام "أن تجارة الرقيق كان لها شأن عظيم في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية، وذلك بتأثيرها في تدمير مراكز الحياة الوثنية والقضاء على الكثير من القبائل الوثنية مما يسر دخول الإسلام".^{٩٥} ويرى الدكتور يوسف فضل أن تجارة الرقيق أفادت انتشار العرب في السودان لسببين، الأول هو أن هذه القبائل لن تقف بعد ذلك في وجه مسيرة العرب إلى السودان، والثاني أنها زادت في معرفة العرب للقطر مما سهل حركتهم في المنطقة.^{٩٦}

كما لعب الحج دوراً أساسياً في تطوير العلاقات بين النوبة والعرب، إذ إنه أتاح الفرصة للكثيرين للتعرف على بلاد النوبة من خلال الوافدين منها. وقد أتاح موقع السودان كمعبر للحجاج من غرب أفريقيا من سلطنتي جني وكانم الإسلاميتين فرص الاختلاط مع السكان المحليين والتعرف على الديانة الجديدة، ومن هنا نستطيع القول بأنه حتى العابرين من هذه السلطنات مرورا إلى الحج، كان لهم دورهم في نشر الإسلام في السودان، بل الاستقرار فيه في أحيان كثيرة.

٩٣ حسن أحمد محمود، المصدر السابق، ص ٥٩.

٩٤ أنظر المقريري، المصدر السابق.

Trimingham J. S. abid Pp 5 ٩٥

y. Fadul, The Arab and The Sudan P. P. 49. ٩٦

والحج نفسه كمركز تجاري هام تلتقي فيه القوافل التجارية من كل أنحاء المنطقة العربية والأفريقية ومن الشرق الأدنى، أدى إلى تبادل المعلومات والخبرات والتعرف على منتجات السودان من خلال هذا الالتقاء. ومن المهم هنا أن نذكر أن الحج إلى بيت الكعبة لم يرتبط فقط بمجيء الإسلام، بل إن مواسم الحج ومنذ العهد الجاهلي كانت ملتقى ليس فقط لأولئك الآتين لتأدية واجبه الديني، بل أيضًا كموسم تزدهر فيه التجارة وتُستعمل على فئتي الحجاج والتجار وغيرهم من المنتفعين به.

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار التبادل التجاري وتكاثر الهجرات العربية إلى المنطقة القدرات والمهارات المتطورة للوافدين العرب في تتجيم المعادن خاصة الذهب في الصحراء الشرقية في كل من منطقة العلاقي ومنطقة البجا عموماً. وقد كان لاكتشاف الذهب أثره في هجرات الكثير من عرب ربيعة ومضر واليمن إلى المنطقة. وقد تكاثرت الهجرات العربية في المنطقة للدرجة التي جعلت للخليفة في مصر يرسل حملة بقيادة القمي ضد البجة عندما حاولوا طرد العرب من المنطقة. ويرجع يوسف فضل اهتمام الدولة بذلك للمكوث التي تحصل من العرب في منطقة المعادن والتي تبلغ الخمس.^{٩٧} وقد وصل اهتمام الخليفة بذلك حد تعيين القمي على المنطقة. وقد أورد المقرئزي "وظهر التبر لكثرة طلابه وتسامع الناس به فوفدوا في البلدان، وقدم عليهم أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمري ومعه ربيعة وجهينة، وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة في البجة"^{٩٨}. وأبو عبد الرحمن العمري كان من منقبتي الذهب الذين لعبوا دوراً رائداً في استيطان العرب بالمنطقة بل في ترسيخ ريادة وسلطة العرب في منطقة الذهب وقد أنشأ ولاية مستقلة في الجبال، قامت بالعديد من الغارات في سبيل توطين سلطته على المنطقة وقد وصل بحروبه إلى الجهات الواقعة حول أبي حمد بهدف إيجاد منفذ إلى النيل. وقد بلغ شأن سلطته على المنطقة ونفوذه عليها الدرجة التي جعلت أحمد بن طولون يخاف من نفوذه في المنطقة وتقوده بها فيرسل له من يقتله.

هذه التجارة كمؤسسة متكاملة كان لها الدور الرائد والفعال في إيجاد علاقات إنتاج جديدة. أول ما تأثرت به هو أنظمة الحكم النوبية السائدة. هذا ومن ثم كان لابد للطرق الأكثر فاعلية في هذه المؤسسة من خلخلة الأنظمة القائمة والتي تبدأ أول ما تبدأ بلغة

٩٧ يوسف فضل حسن، المصدر السابق، ص ٥٠.

٩٨ أنظر المقرئزي، المصدر السابق

الاتصال والمعاملة لتشمل بعد ذلك الديانات والمعتقدات ومظاهر الثقافة الأخرى، وهذا ما أسميناه قبلاً بالتماس الثقافي.

ومن الأسباب الهامة لجزء من هذه الهجرات العربية سواء من مواطنهم في الجزيرة العربية أو في المناطق الأخرى التي امتدت فيها حدود السلطة الإسلامية اللجوء إلى النوبة لأسباب سياسية تتعلق بالسلطات القائمة هناك، فبعض المهاجرين أتوا إلى النوبة هرباً من هذه السلطات. هذه النوعية من الهجرات - أي الهروب لأسباب سياسية - تكانثرت في العهد الأموي والعهد العباسي، وهي عهود شهدت صراعات حادة وتميزت بانحيازها لمصالح الأثرياء من السكان دون الاهتمام بمصالح المجموعات الكادحة والأقليات العنصرية. وقد تمثلت أولى هذه الهجرات في هروب المنحازين لسلطان العهد الأموي إلى النوبة بعد مجيء العباسيين إلى الحكم، ومن أشهر هؤلاء عبدالله وعبيد الله أبناء مروان آخر خلفاء بني أمية. يقول الدكتور يوسف فضل: إن أبناء مروان جاءوا إلى النوبة وبمعيتهم أربعة آلاف أو ألفان من أتباعهم^{٩٩}. ومن أمراء العهد الأموي الأمير أبو ركة وأحمد سفيان الملقب بالمعقور وغيرهم.

وفي العهد العباسي كثرت الحركات المعادية للحكم العباسي وكثرت بذلك حالات اللجوء السياسي، وكانت النوبة من مناطق الاستقطاب لهذه الهجرات، وتشير بعض المصادر إلى أن بعض فلول القرامطة والزط والزنج وغيرهم ممن ثاروا في وجه الدولة العباسية قد نزحوا إلى بلاد النوبة منذ القرن التاسع الميلادي وتركوا آثارهم فيها^{١٠٠}. وقد استمرت هذه الهجرات القائمة على دوافع سياسية إلى بلاد النوبة بتفرق دولة الخلافة الإسلامية وتفككها. وتزايدت أعدادها بتزايد الحركات المناهضة للدولة في عهود حكم الفاطميين والأمويين والمماليك.

وبقراءة متفحصة للتاريخ، نخلص إلى نتيجة مفادها أن وفود العرب المسلمين إلى السودان بهدف محدد ورسالة واضحة لنشر الدين الإسلامي وتعاليمه، لم تتحقق إلا بعد قيام كل من مملكتي الفونج والفور الإسلاميتين، حيث ظهرت إلى جانب الهجرات السابقة

٩٩ يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان وأفريقيا وبلاد العرب، دار جامعه الخرطوم للتأليف والنشر، الخرطوم: ١٩٧٥ ص ٢٥.

١٠٠ عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان، مكتبة الشبشيكي، القاهرة، ١٩٥٣، ص ٣٤.

التي ذكرناها نوعية رابعة من المهاجرين هم الوافدون من العلماء والمتعلمين، ولم تكن هذه الجهود جهود مؤسسية أو مساع للدولة، بل ظلت هذه المساعي الهادفة إلى نشر الإسلام مساع فردية للمتصوفة المتقنين، إذ إن قيام ممالك إسلامية شجع أعدادًا كبيرة منهم للقدوم إلى السودان، وكانت لهم الريادة في نشر وتدريس علوم القرآن. وقد ازدادت أعدادهم بتشجيع من السلطة الإسلامية الحاكمة في الفونج والفور، والتي احتضنتهم واختصتهم بالكثير من المكاسب والامتيازات الاقتصادية والاعتبار الاجتماعي المتميز، فاقتطعت لهم الإقطاعيات ومنحتهم الكثير من الامتيازات، وكان لهم حق الحجز والشفاعة عند الملوك. وفي محاولة التحقق من كنه هؤلاء العلماء، يقول عبد المجيد عابدين: إنه وبما أن نظام الدعاة كان أساسًا من أسس للتعاليم الدينية عند بعض الفرق الفاطمية، فلا يستبعد أن بعض دعائهم قد شق طريقه إلى السودان لنشر الدعوة الفاطمية^{١٠١}.

وفي فترة الممالك الإسلامية ظهرت أيضًا نوعية أخرى حاملة للواء الدعوة الإسلامية، هم المتطلعون من أبناء السودان إلى التعليم الديني، وهؤلاء هاجروا هجرة عكسية لينتقوا العلم على أيدي المشاهير من علماء الدين في مصر والحجاز، وقد كثرت أعدادهم وأصبحت لهم مكانتهم فخصصت لمجموعاتهم الكثير من الأروقة داخل الأزهر الشريف كرواق الفور ورواق سنار.

هذا ويذكر بروس عاملاً آخر من عوامل سيطرة العرب إلى جانب السيادة الاقتصادية وهي قضية توثيق الأرض والتي اتخذت في القرن السابع عشر طابعًا إسلاميًا وبعدًا جديدًا كعامل من عوامل سيطرة العرب. ويروى بروس أن أسلمة الأجهزة السنارية كانت نتاج لرغبة السلاطين المحليين في بناء علاقات تجارية قوية مع مصر والحجاز ودول البحر الأحمر المجاورة. وقد تلازم ذلك مع شح الإنتاج الزراعي واعتماد الدولة على العائد التجاري.

ويتفق كل من بروس وأوفاهي وسبولدينق على أن التحالف كان ضرورة فرضتها التجارة للحماية، وأن عماره دنقس غير العربي، تحالف مع العرب العبدلاب فقط حفاظًا على مصالحه التجارية، بدليل أن السلطان وأجهزته البيروقراطية العليا كانت تشترك في

١٠١ أيضًا، ص ٣٥.

النشاط التجاري، فقد كانت السلع السلطانية توضع للتجارة أولاً، ومن بعدها يسمح لبقية القافلة التجارية بممارسة البيع. ومن العوامل الاقتصادية القوية التي ساهمت في ذلك حماية الملوك وزعماء القبائل الواقعة على الطرق التجارية وفرض ضرائب على القوافل نظير هذه الحماية^{١٠٢}.

وقد لخص لنا الدكتور إدريس سالم ارتباط العرب باقتصاد النوبة بقوله " فإنه وعلى المستوى الإنتاجي فإن القوة العاملة في شكل رقيق، والثروة المعدنية، والأراضي الزراعية، والحيوانات كوسائل إنتاج أساسية، أصبحت تدريجياً تحت السيطرة العربية، حتى المنتجات كالذهب والفضة كانت تصدر إلى المراكز الحضرية للإمبراطورية الإسلامية"^{١٠٣}.

هذا على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، أما على المستوى السياسي، فإن العلاقة بين المملكة العربية الإسلامية الممتدة شمالاً في مصر وبلاد النوبة، وبحكم المعاهدات الكثيرة بينهم والصلات التاريخية كانت تأخذ شكل السيادة لصالح الدولة العربية، لأنه وبحكم المعاهدات. التي تحدثنا عنها سابقاً فإن الدولة العربية كانت تضع النوبة في مصاف رعاياها، وكانت تمارس بعض الامتيازات بحكم هذه الوضعية وصلت حد تعيين وخلع ملوك النوبة والبيعة.

كل ذلك يؤكد سيادة العرب واندماج العرب مع النوبة بحكم علاقات الإنتاج الجديدة ومن خلال التعايش والتصاهر للدرجة التي حدث فيها التماس الثقافي بين المجموعتين. إن انتشار وسيادة الثقافة العربية والإسلام لا يعنيان حدوث تجربة تطبيقية شاملة للإسلام بصورته النظرية والتشريعية كما أنه لا يعني القضاء على الثقافات المحلية، فما حدث كان تزاوج وانصهار ثقافي متوازن أفرز أنماطاً جديدة وسيادة لثقافة مختلفة نوعاً وكما من كليهما، ثقافة يمكن أن نصفها بالثقافة الهجين بمكوناتها من الإرث المحلي بآثاره الوثنية الأفريقية والمسيحية والثقافة العربية الإسلامية الوافدة بمكوناتها الأخرى والتي

١٠٢ انظر مقال د. الكرسي " دور التجارة في دولة الفونج "

Dr. Idris Salim " Introduction of Tung in to the Sudan p 135. ١٠٣

تطرقنا لها سابقا. والواقع، أن سيادة العرب اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا^{١٠٤} وما حدث من متغيرات عقائدية لدى بعض السكان كان لهما دورهما في أن تكون الثقافة العربية هي الثقافة المسيطرة ولتصبح ثقافة للسكان في المنطقة التي امتدت فيها حدود الممالك القديمة وما حولها حتى اليوم، وفي ذلك تأكيد لما سبق ونكرناه عن دور الأديان والعقائد في تشكيل حياة الناس.

في هذا الوقت فإن كتابات الرحالة والمؤرخين تشير كلها إلى تفكك الدولة المسيحية في النوبة، ويذكر علم الدين سنجار بأن الدولة تفككت إلى ولايات وأمصار، مستشهدا في ذلك ببقائه أثناء رحلته في المنطقة مع تسعة ولاة محليين. كما يذكر أوفاهي على لسان أحد الزائرين بأنه وجد مائة وخمسة عشر قلعة كل واحدة عليها قائد بمثابة الوالي. ويذكر أيضا بأنه وقبل نهاية القرن الرابع عشر كانت مملكة خريس الشمالية قد أصبحت مسلمة تحت السيادة العربية^{١٠٥}. وقد كتب العمري يقول: "بأن أي ملك لا يستطيع أن يحكم دون أن يكون تابعا للسلطان في مصر، وقد كان على حاكم دنقلا إرسال جزية سنوية لحاكم مصر"^{١٠٦}.

إن عوامل الضعف المذكورة هذه، والتي تأثرت بالتغلغل التدريجي للعرب وتزواجهم مع الأسر الحاكمة تزامنت مع الاضطرابات الداخلية وتوتر العلاقات مع مصر المماليك إلى جانب ضعف الثقافة المسيحية وضعف تأثيرها على مجموع السكان والنابع من كونها ديانة للأسرة الحاكمة وأصحاب النفوذ وهو وضع نجم عن أن انتشار الديانة المسيحية اعتمد على مبشرين أفراد لم يستقروا ويتصاهروا مع سكان المنطقة، كما لم يسعوا إلى إيجاد مؤسسات لتدريس تعاليم الديانة المسيحية وتعزيزها وسط عامة السكان المحليين. لهذا فإن توتر الأحوال السياسية في مصر والتي تتلقى منها النوبة التعاليم المسيحية كان يلقي بظلاله على النوبة. إن تضافر هذه العوامل المستجدة كافة، وما أفرزته من تمازج للعرب مع النوبة، والانتماج الثقافي، والانتشار التدريجي لمظاهر الثقافة العربية الإسلامية، والتطبع التدريجي لسكان النوبة بهذه الثقافة كان إيذانا بانهايار الممالك المسيحية والقضاء تبعا لذلك على المسيحية كديانة لسكان المنطقة. هذا وقد

Idris Salim p.p ١٠٤

R. S. Ofahi & J Spoulding pp 19 ١٠٥

١٠٦ انظر العمري ابن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.

اكتملت السيادة لصالح الإسلام بما حدث من تحالف بين الفونج والعبدلاب والذي أثمر قيام دولة الفونج الإسلامية. هذا وبانهيار الممالك المسيحية استكملت السيادة لصالح العرب والإسلام في المنطقة المذكورة.

هذا وقد طرحت الكثير من الآراء حول سيادة العرب وقيام دولتي الفونج والفور، إذ يشير الكثير من المؤرخين إلى أنّ الاندماج حدث عن طريق مصاهرة العرب للأسر الحاكمة ومن ثم سيادة العرب بفعل نظم الوراثة، وقد عبروا عن ذلك بوفود " الغريب الحكيم". هذا وعلى الرغم من أنّ النظام الأمومي كان سائداً، إلا أنّ الاعتماد عليه كعامل حاسم يبدو في رأيي ضعيفاً، ومن المؤكد أنّه كان عاملاً مساعداً مع ديناميكية الحركة الاقتصادية والاجتماعية الضخمة لصالح العرب. ذلك لأنهم استطاعوا بفعل العوامل التي ذكرناها سابقاً أن يكتسبوا وضعاً مرموقاً يؤهلهم لمصاهرة الطبقات الحاكمة، ومن ثم اكتساب وضع استشاري مستحق في دوليب السلطة وأركانها.

الخلاصة، أنّ الهجرات العربية الكثيرة والمتتابعة كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأنشطة التجارية والاقتصادية، كما أنّ انتشار المسلمين أنفسهم والثقافة الإسلامية، كان أكثر فاعلية على طول الطرق التجارية ومراكزها. إنّ مجيء العرب وما استحدثوه من علاقات جديدة في مجتمع النوبة البدائي بما يحملونه من معارف وقدرات، ومن ثم معرفتهم وتطويرهم للتجارة ولتجسيم المعادن، كان هو الفاعل المحرك لاندماج العرب وتغلغلهم في قلب العلاقات الاقتصادية السائدة في النوبة. والشاهد أنّ هذه الصلات تطورت إلى حد تملك العرب تدريجياً للكثير من الأراضي في النوبة، وصلت حد قيام دويلات عربية صغيرة في إطار الدولة المسيحية، كتلك التي سيطر عليها العمري وقبائل الحدارية وغيرها. وقد وصل الأمر إلى حد تقديم ملك النوبة شكوى رسمية في عهد المتوكل ذكراً أن بعض الرعايا المسلمين قاموا بشراء وتملك الأراضي الزراعية.

وقد كان رد فعل الخليفة المتوكل، هو تكوين لجنة بضغط من الرعايا المسلمين، بحجة أنّ العرب المسلمين ليسوا من رعايا الملك النوبي. ومما لا شك فيه فإنّ وضعية بلاد النوبة في ذلك الوقت، ومجموع الأنظمة والعلاقات التي تحكمها، قد كان لها دور كبير في تعزيز الوجود العربي ووصوله إلى سدة السلطة والسيادة للعرب وللثقافة العربية والديانة الإسلامية.

الفصل الثالث

مظاهر الثقافة الإسلامية في دولة الفونج

دراستنا لمظاهر الثقافة الإسلامية في دولة الفونج، تعتمد في الأساس على دراسة وصف الرحالة من الأوروبيين والعرب للمنطقة. إلى جانب دراسة وتحليل ما جاء في كتاب طبقات ود ضيق الله، والذي يحوي وصفاً دقيقاً للواقع الفكري والروحي لتلك الفترة. وتحوي هذه الدراسة في باطنها مقارنة غير مباشرة لمظاهر ثقافة عهد الفونج، وهي تطرح نفسها باعتبارها مملكة إسلامية ومدى قرب هذه الثقافة أو بعدها من جوهر ومظهر الشريعة والدين الإسلامي. وذلك بإسناد الظواهر التي تبدو مخالفة للإسلام في سياقها التاريخي والمكاني وربطها بالواقع المعيشي والاجتماعي للمنطقة، وبالتالي تحديد وضع الحركات التي تبدو مخالفة للإسلام من حركات باطنية وسرية نشأت ضمن الإطار الديني نفسه، وقياس مدى موضوعية هذه الظروف مع ما تحمله هذه الحركات من ملامح ومنظومة قيم وسلوك.

هذا وسوف نجمل مظاهر هذه الثقافة في القوانين السائدة ونظم الحكم ووضعية الحكام، والجماعات الأخرى المختلفة، والتعليم، وممارسة التعاليم الدينية، ثم نقدم بعضاً من المعتقدات الشعبية التي كانت سائدة.

كان قيام دولة الفونج نتيجة لتحالف الفونج والعبدلاب^{١٠٧}، ويعتبر قيام هذه الدولة العامل الأساسي في إتمام أسلمة الجزء الشمالي من السودان، وفي تعميق مظاهر الثقافة الإسلامية، لتصبح المعلم الأساسي لثقافة الجزء الشمالي من السودان حتى اليوم، وليصبح الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة. كما كان لإسلام الطبقة الحاكمة والأمراء

١٠٧ على الرغم من الاختلاف حول عروية الفونج وعلى الرغم من أهمية هذه النقطة في أنها تخدم الخلاف حول أسلمة أجهزة الدولة السنارية إلا أننا لن نتطرق لها هنا. غير أنه من الثابت أن دولة الفونج قامت وهي تحمل في عمومياتها الثقافة العربية الإسلامية، ونتاج هذا بالطبع كان فتح الباب على مصراعيه للدين الإسلامي ليصبح الدين الرسمي والشعبي. وبصرف النظر عن النقش حول إسلامية عمارة نقس إلا أن الثابت أن خلفاؤه من بعده كانوا كلهم مسلمين.

المسلمين الذين حكموا بعد ذلك تأثيرا كبيرا في جر الرعية نحو الإسلام بمساعدة النظم الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قائمة، ونظم التوزيع القائمة على حق التفويض الإلهي للملوك وتقديسهم والانتقاد لهم.

لقد حاولنا في تتبعنا لكيفية دخول الإسلام في السودان، إيجاد صورة ذهنية تماثل الواقع بمكوناته المحلية، وما وفد على هذه المكونات، من كيفية وفودها، ومن حملها، ومن ثم تحرّي العوامل التي تقودنا إلى تكوين رأي يتمثل ويمثل واقع ذلك العصر، لنتضح لنا الحقيقة حول ماهية الثقافة الوافدة. هذا، ويتضح لنا من خلال ما ذكرناه، أن عوامل متشعبة كان لها تأثيرها في إعادة تشكيل المكون الثقافي الوافد، وتتخص تلك العوامل في:

أولاً: وجود رواسب محلية قوية لديانات سابقة تمثلت في الديانات الفرعونية والمسيحية والوثنية الأفريقية إلى جانب المعتقدات الشعبية.

ثانياً: إن النوعية التي جاءت بالإسلام إلى السودان، تشكلت من التجار ومجموعات من القبائل البدوية التي تقتفر إلى امتلاك ناصية العلم الديني الشرعي، وبالتالي، قابليتها للتشكل الديني والعقائدي.

ثالثاً: لقد تميزت تلك الفترة من تاريخ العالم الإسلامي بانتصار التصوف والإسلام الباطني. تبع ذلك أن العلماء الوافدين كانوا أهل حقيقة لا شريعة. رابعاً: إن الإسلام الباطني والتصوف كان أكثر ملائمة للظروف الاقتصادية والاجتماعية لتلك المرحلة لما يتميز به من مقدرة على استيعاب رواسب الثقافات المحلية الأفريقية.

خامساً: إن الإسلام الوافد للسودان لم يكن ثورياً ولم يبلغ ما سبق من معتقدات وعادات، بل جاء تدريجياً ولم يحدث تغيير جذري في المجتمع السوداني، بل إن ما حدث كان تراجُعاً للبرث الحضاري المحلي بالثقافة الوافدة.

أما عن القوانين السائدة ونظم الحكم، فعلى الرغم من أن الدولة دانت بالديانة الإسلامية، إلا أن الإسلام والتعاليم الدينية لم تكن المرجع ولا القانون للنظم السائدة، والتي اعتمدت في أساسها على الموروث من الأعراف والتقاليد التي كانت سائدة في

مراحل مختلفة من تاريخ المنطقة، والتي تكونت كما ذكرنا عبر تمازج مستمر للآثر السابق من ديانات وثنية أفريقية إلى ديانات فرعونية ونظم مسيحية. واعتمد الهيكل الإداري على الهياكل التي كانت سائدة قبلا في الثقافة الوثنية المحلية. حتى الأسماء الإدارية اعتمدت على ما سبق من مسميات لمراتب رجال الدين الوثني. وهناك وظائف شبه وثنية ترجع أصولها إلى مؤثرات الديانات المصرية القديمة والديانة المسيحية. وكذلك نظم التتويج والتي تستند على العامل الوراثي، يتضح فيها الأثر الديني الوثني القائم على إلهية الحكام، فحتى عهد قريب كما يقول ديزني عن تتويج ملك الفونج في فازوغلي: ^{١٠٨} 'فقد اعتمد الفونج طقوساً ينعدم فيها الأثر الإسلامي لطرق تتويج الملك. وحتى مظاهر الملك، فهي في معظمها تتبع الأثر الأفريقي، فالكر والطاقية لم قرينات والطبول والنحاس وعقد الهيكل كلها آثار أفريقية محلية نابعة من تراكم الثقافات والديانات المتعاقبة، ففي كنيسة عبد القادر في الشمال تبرز صورة لحاكم نوبي 'هو أبارح' وهو يلبس غطاء الرأس ذو القرنين ويحمل شعار الكنيسة، كما توجد في بعض الرسومات للنسور ذات الرأسين. ويذكر مكي شببكة أن صاحب الجبل أعظم الملوك في فرس، ظهرت صورته في كنيسة الجبل يلبس عمامة يبرز فيها قرنان ^{١٠٩}. بينما استحدثت مظاهر انتقلت من الثقافة العربية الواقعة كالقفطان والعباءة والسيف.

هذا وبمقارنه النظم السياسية عموماً، فإن حكومة المدينة الأولى بقيادة النبي محمد (ص) اعتمدت رجال الدين حكماً. هذه الظاهرة كانت سائدة في الديانات الأخرى، وظهرت بصورة أوضح في إقطاعية الكنائس في العصور الوسطى في أوروبا. وكان لذلك أثره على دولة المقررة وعلوه. وفي كل الأحوال اكتسب رجال الدين وضعاً سياسياً بارزاً ومرموقاً، مبعثه معتقدتهم الخاص بنظام التفويض الإلهي للملوك، ومكانتهم المقدسة، والتي كانت نتاجاً طبيعياً للظروف التاريخية حينذاك، حيث كانت علوم الدين واللاهوت هما الوعي والمعرفة الأكثر تقدماً، وحيث اختلطت السلطة السياسية والقوة الدينية.

١٠٨ يقول ديزني أن هنالك عدة مراحل قبل تتويج الملك يقصد منها تأهيل السلطان لهذه المكانة المقدسة انظر،

Disney, A W M: The Coronation of the Funj King of Fazougli SWR V, 26 1945 PP37.

١٠٩ مكي شببكة، السودان عبر القرون، ص ٢٧.

أما في دولة الفونج، فقد انفصل الدين عن الدولة في إدارة شؤون البلاد السياسية والإدارية لأسباب عدة، تتضمن حداثة العهد بمركزية السلطة، وطغيان الحركة التجارية الواسعة، وربما بفعل البعد الزمني وبروز وعي أكثر تقدماً. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل لرجال الدين شأنهم في صنع سياسة الدولة بصوره غير مباشرة، وبفعل المحرك الأكثر فاعلية وهو مكانة الدين ورجل الدين لدى عامة الشعب، وهي مكانة يسند لها اعتماد الدين أيديولوجية موجهة لشعوب ذلك العهد، لحياتهم ولعواطفهم. هذه المكانة لرجال الدين ربما كانت امتداداً لدور الكجور الوثني في الثقافة الأفريقية المحلية، وعلى وجه العموم فإن دور الحاكم اقتصر فعلياً على حفظ الأمن وجباية الضرائب وتعزيز أوضاعهم كقوة اقتصادية وسياسية، بينما يكتسب رجل الدين مكانة أكثر فاعلية وسط مجموع السكان.

أما عن ممارسة التعاليم الدينية فإن عهد الفونج كان امتداداً لما سبقه من عهود، والتي تحدثنا عن مظاهر تعاقبها في صدر هذا البحث، فالوافدون كما يقول الشاطر بصيلي لم يدخلوا على المجتمع السوداني ما يعرضه لهزات فكرية عنيفة أو تغيير ذي شأن في مقومات حياته الاقتصادية والاجتماعية، فظل الإيمان بالغيبات وبالروح العليا لتفسير ظواهر الكون ولاكتساب اليقين ومجابهة المجهول دون تغيير.

إن قابلية المجتمع للإيمان كانت هي المحرك الأساسي للمكون الثقافي للمجتمع ولأنظمتهم ومثله. هذه المثل التي سادت والتي تمثلت في الوثنية والإيمان بالجن والسحر والأسطورة تلتها مرحلة اليقين بالإله الأوحى والتي فشلت المسيحية في تجسيدها للأسباب التي تعرضنا لها في صدر هذا البحث.

هذا الواقع أفرز مناخاً ملائماً لامتصاص هذه الحالة والتي يصفها أغلب المؤرخون بالتعطش الديني، وقد عمدت في هذا البحث إلى تفسير هذا التعطش ضمن الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وباعتبار ما توصلنا إليه سابقاً من أن الإيمان بالديانة الواحدة هو أفضل أنواع الوعي والمعرفة الإنسانية. من هنا يتضح لنا أن تقبل المجتمع السوداني للديانة الإسلامية، لم يكن وعياً منهم بديانة أفضل فحسب، بل إن كافة الظروف المحيطة كانت مولية، خصوصاً وأن الإسلام عندما حل على هؤلاء لم يكن جسمًا غريباً اقتلع

ثقافة المجموعة السابقة من جذورها، بل إنه حتى لم يتقاطع مع الثقافة المحلية السائدة، وبالطبع فإنه لا يمكن تغيير ثقافة كاملة واقتلاعها من جذورها إلا بتحول المجتمع نفسه بسبل معيشته ومجموع علاقاته. وهناك حقيقة لا بد من التنويه لها تتمثل في أن تطبع الديانة الإسلامية التي وفدت على السودان بالطابع الصوفي جعلها أقرب إلى المكون الثقافي للمجتمع المحلي الأفريقي.

إن أسلمة بلاد النوبة، وما تبعها من واقع ثقافي جديد بما يحمله من مجموعة قيم وسلوك وتعاليم لم يحدث نقلة أو طفرة مغايرة في المفاهيم الثقافية للسكان المحليين، فظل التعطش والمحاولة لتفسير ظواهر الكون واكتساب اليقين أمراً يتجاوز إدراكهم البسيط. ومرد هذا أنه لم يطرأ تغيير جوهري في البيئة المعرفية للسكان يتيح لهم تفسير ذلك، فكان أن ظلت العديد من الأمور الحيوية في عداد الغيب والغيبيات بسبب ضالة الحصيلة التي اكتسبوها في جوهر علوم الدين الإسلامي. بل إن هذا الواقع ساهم في تكريس مظاهر إرث الثقافات السابقة، واكتسابها بعداً جديداً وفريداً، فعلى سبيل المثال، ارتبطت المعتقدات السابقة في السحر والجن وغيره بالدين، وسواء أن كان هذا الربط ربطاً أصيلاً أو افتراضياً، فقد كان له أثره السلبي، مما حدا بمجموع الجماهير والتي لم تتلق دراسات، سواء في الثقافة الدينية الإسلامية أو الثقافة عموماً إلى التمسك بها، وبلورة مفاهيمها لتصبح بصورة أو بأخرى أداة من أدوات الزعامة الدينية الجديدة.

فالوجود التاريخي للجن في الثقافات العربية الجاهلية والوثنية والأفريقية، ثم اصطباغ وجوده بصفة إسلامية من خلال تأكيد الإسلام لوجود الجن 'وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ' ^{١١٠}. وقوله تعالى 'الْأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ' ^{١١١} وقوله تعالى 'قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ' ^{١١٢} ثم 'قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا' ^{١١٣} لقد كان لتأكيد وجود هذه القوة المجهولة في الديانة الإسلامية أثرها في تعزيز قوة تأثير الجن في التكوين النفسي للفرد والمجتمع على حد السواء. فهذا الجن والذي يمكن أن

١١٠ سورة الرحمن آية ١٥

١١١ سورة السجدة آية ١٣

١١٢ سورة الناس

١١٣ سورة الجن آية (١)

يتحول إلى المارد الخادم، كما ورد في قصة سيدنا سليمان، حيث عرض على سيدنا سليمان إحضار عرش بلقيس، ثم قدراته الفائقة على خدمة بني البشر، كانت الأكثر رسوخًا في ثقافة مجتمع بلاد النوبة حينذاك. وقد ورد في طبقات ود ضيف الله عن الفقيه حمد النحلان (أن امرأة في جلته اسمها عبادة قالت: هذا للرجل يحدثونه الزبالعة بالواقع ويقول أنا ما بكاشف). باعتبار أن الزبالعة أنفسهم يعتمدون على الجن في المكاشفة وقضاء حوائجهم.

كذلك تمثلت الأسطورة في المجتمع الجديد فيما ذكر في الإسلام عن قصص الأولين، فالأسطورة والتي تعتمد على كائنات خيالية أو فيزيائية، لها قدرات خارقة امتدت لتشمل الاعتقاد بقرات خارقة لبعض الأفراد. وكان سندهم ما ورد من آيات وأحاديث في أولياء الله وخاصته وعباده المقربين إليه. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه".

وقد حفلت ترجمة الأولياء والصالحين في كتاب طبقات ود ضيف الله بالكثير من القصص والأحاديث حول كرامات هؤلاء الأولياء، أي امتلاكهم القدرة على فعل الخوارق والمعجزات وعادة ما تحف هذه السمعة حول الفقيه هالة أسطورية، هذه الهالة بقدر ما هي ضرورية لتعزيز مكانته الدينية والاجتماعية فأنها في العادة تسبق الاعتراف الرسمي به كولي من أولياء الله، وكان يصاحب كل بحث لولي جديد الكثير من الحكايات الأسطورية التي تدعم موقفه كولي من أولياء الله، وعادة ما تظهر بعض علامات الصلاح قبل توليه الشياخة، هذه الدلالات على تميز الولي تجسد في الواقع بجو يحفه الخيال الجمعي بالكثير من القداسة والبركة والتي تنتهي بالمدد الذي يأتي من عند الله. وفي قصص الأولياء والصالحين نجد أن التمهيد لولاية الشيخ تبدأ برؤية رآها الشيخ نفسه أو رآها غيره، فعلى سبيل المثال نجد أن الشيخ حسن ود حسونة تلقى المدد في خلوة في باعوضة من النبي نفسه بحضرة سيدنا علي وسيدنا أبو بكر، ثم يحكي صاحب الطبقات أن روحه رجعت إلى السموات السبع.. الخ. وعادة ما ينتهي كل ذلك إلى

تلاشي العناصر الواقعية في شخصية الشيخ واستحالته إلى شخصية لها قدسية تحيطها هالة من الإيمان والتبجيل والتصديق. هذه الشخصية تتحول لدى الجماعة إلى قوة قادرة على حل المشاكل وصنع المعجزات ولها القدرة على شفاء المريض وتطبيب المجنون، والتفرقة بين الزوجين أو جمعهما، والقدرة على الشفاء من العقم والطيران بالعنقريب، وتصل إلى حد إحياء الموتى والعلم بالغيب.

إن شخصية الولي أو الشيخ في الواقع الثقافي للسلطنات الإسلامية، وما يرتبط بها من قدرات للولي تفوق قدرات بني البشر، لا تعبر عن أو تمثل واقع الإسلام والفكر الإسلامي الشرعي في شيء، بقدر ما أنها تعبر عن الواقع المعيشي والخيال الجمعي للشعبي لدى السكان.

أما السحر فقد سبق الاعتقاد فيه مجيء الإسلام والكثير من المؤرخين ينسبونه إلى اليهود ثم جاء الاعتراف به صريحاً في الإسلام. واللجوء إلى السحر لم يكن مسيطراً في فترة الازدهار الفكري والنضوج على عهد النبي "ص" فالسحر كآلية محرّكة للأحداث يتطلب حالة من الركود الذهني. وقد ذكر السحر في سورة طه (وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى.. الخ) ثم هنالك القصة المشهورة عن سحر اليهود للنبي (ص).

وهناك عادة أخرى تمثلت في القرابين وهي كعادة كانت أكثر رسوخاً في عهود الوثنية وتمثلت في نبح القرابين لإرضاء الإله وللافتداء بها عن الشرور التي يمكن أن تقع للإنسان، هذه الفلسفة أيضاً تعززت في الإسلام بعيد اللقضاء "عيد الأضحى" ولم تقتصر عليه، فقد تبعثها كرامات أخرى إذ اعتاد الناس على نبح القرابين أو صنع البلبلة عند المولد والمرض والحوادث والوفيات وفي المناسبات الدينية المختلفة.

إن رسوخ هذه المعتقدات والاعتراف الضمني بها في الإسلام أدى إلى تزواجها بالتعاليم الدينية. وسنرى مظاهر هذه المعتقدات فيما سنذكره نقلاً عن الأسواني في حديثه عن كهنة البجة وممارسة الجن للزراعة في الجزيرة، وما ذكره التونسي عن الدمزوقة،

وما ذكره ديودورس عن القتل الطقسي لملوك الفونج، ثم ما ذكره هيرودتس عن مرج الشمس.

كل هذه مظاهر لسيادة هذه المعتقدات. غير أنه ويتطور الصلات بين العرب والفونج ووفود الكثير من العلماء وعلماء الصوفية على وجه الخصوص، بدأت بعض التعاليم الدينية تسود لتتخذ هذه المظاهر مظهرًا جديدًا هو خليط بين هذه المعتقدات والإسلام. ففي الديانات والمعتقدات السابقة للإسلام ارتبطت هذه الممارسات بوجود الكاهن أو الكجور أي وجود الواسطة المحسوسة دائمًا والتي تظهر في السحر والجن وسنتطرق لاحقًا إلى نقاط العوائد عند الفور "سرgetti Sergeti ووجود المرأة العجوز.

هذا التفكير امتد ليشمل الزعامة الدينية في الإسلام والتي تمثلت في رجالات الطرق الصوفية، حيث يقومون بنفس الدور الراسخ في هذه المعتقدات، لذا نجدهم قد اكتسبوا قدرات خارقة مكنتهم من أن يكونوا الواسطة بين الخالق والمخلوقات. وكما قلنا فإن منبع ذلك هو الاحتياج لأداة محسوسة تكون لها الزعامة والريادة في توجيههم نحو تفسير الغيبيات، هذه الزعامة اكتسبت قوة وفعالية أكثر بورود الآيات التي تنص على وجود طبقة تكتسب مكانة خاصة بما أوتيت من تقوى ومجاهدة. بنص الآيات "يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ" وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ" والآية "إِلَّا إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" ثم قول النبي "ص" "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله".

إنَّ المجتمع الإسلامي السوداني في القرون الوسطى بطروفيه الاقتصادية والاجتماعية التي ذكرناها آنفاً، وسيادة الجهل والبدائية إلى جانب ما تواتر بعد ذلك من سيادة ثقافة دينية إسلامية ضحلة، أي ضحالة الحصيلة العلمية واقتصارها على المبادئ الأولية والتي تقتصر على معرفة السمات العامة للدين أدى إلى إيجاد طبقة كبيرة ممن اكتسبوا الولاية في الدين، إذ أن كل من يتلقى تعليمًا أوليًا يصبح فقيهاً أو ولياً أو معلماً دينياً.

هذا الواقع ساهم في انتصار وسيادة الثقافة الصوفية والتي تعتمد المجاهدة ومعرفة طريق القوم والكشف وملازمة ذكر الله باللسان، مما يعني إلغاء الدين على وجهه الشرعي المنزل بصورة غير مباشرة والاعتماد على الحقيقة، وبالتالي انتفاء دور تراكم المعرفة العلمية الشاملة بتفاصيل وتعاليم الدين في اكتساب مكانة مقربة لله تؤهل الشخص لاكتساب الولاية. وتكشف لنا طبقات ود ضيف الله أن اكتساب الحظوة والمكانة لدى العامة لم يأتي أبدا كنتاج للحصيلة العلمية للولي أو الشيخ فالكثيرون منهم نالوا الحظوة بالفيض الإلهي عبر النبي محمد أو النبي الخضر.^{١١٤} وقد كان لهذا الوضع دور كبير في تكريس معطيات هذا الواقع.

وعند التحدث عن الحصيلة العلمية للمبشرين الأوائل من المتصوفة الوافدين، فإن الكثير من الأسئلة تبرز حول ذلك، إذ أن واقع الحال يؤكد محدودية وضآلة الحصيلة العلمية في أمور الدين الشرعية التي يتلقاها الجمهور. وعلى الرغم من أنهم نجحوا في نشر الإسلام كديانة إلا أن الثقافة الجمهور حولهم والسير على طريقهم يبقى في حقيقته مرتبطا ارتباطا كليا بشخصية الشيخ أو الولي والكرامات التي يأتيها الفرد منهم. إن هذا الواقع المشحون بالإيمان بالولي أو الشيخ والالتقياد له أو على طريقه كان له تأثيره حتى على الفقهاء السنيين والذين لم يجدوا بدا من الاتجاه نحو الإيمان بالتصوف، وأصبح الكثيرون منهم يجمعون بين العلم والعمل كما هو وارد في الطبقات.

هذا وقد اتضح لنا جليا فيما ذكرنا، وسوف يتضح لنا بجلاء في سياق دراستنا لطبقات ود ضيف الله، حقيقة انتصار الإسلام الصوفي في السودان، إذ لا يختلف أي من المؤرخين لهذه الفترة حول الدور الرئيسي لرجال الصوفية في نشر الدين الإسلامي، بل وفي تعليمه منذ بدء انتشار الإسلام في السودان وحتى الانتصار الكبير لصالح الإسلام والعروبة بقيام مملكتي الفونج والفور الإسلاميتين وإلى عهد قريب حيث بدأت بعض التوجهات الرافضة للمسالك الصوفي والمعززة للإسلام بصورته الفقهية الشرعية في الانتشار.

١١٤ محمد ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، المكتبة الثقافية، بيروت ١٩٧٤، ص ١٣٤ .

وإذ أحاول تحري وسير أغوار هذه الفترة فإنني أرى بأن كتاب الطبقات^{١١٥} يمثل المرجع الأساسي والصورة المتكاملة التي تصنف لنا طبقات الأولياء والصالحين والشعراء في ذلك العهد. وبمعرفة إلى أن الإسلام وممارسة التعاليم الدينية اعتمد كلياً وجزئياً على هؤلاء المشايخ فإن ذلك يؤكد لنا أنهم كانوا الملجأ والقبلة لمجموع الشعب بمختلف فئاته حتى الحكام منهم.

نماذج من المعتقدات الشعبية في دولة الفونج

سوف نتحدث فيما يلي عن بعض مظاهر الثقافة في دولتي الفونج والفور الإسلاميتين والتي تمثلت في المعتقدات الشعبية. ذكرنا لجزء يسير فقط من هذه المعتقدات، يستهدف المقاربة للصورية لتمثيل تعاليم الإرث المحلي والسابق مع الديانة والثقافة الوافدة، وهي مأخوذة أساساً من أقوال الرحالة الذين زاروا هذه المنطقة.

أولاً: القتل الطقسي عند الفونج:

فالمالك عندهم وحسب رواية بروس يسمح له باعتلاء العرش وفق شرط أساسي يتمثل في قبوله على أن يقتل بواسطة رعاياه متى ما رأى كبار رجال الدولة ذلك، كما يقتل كل أبنائهم وإخوانهم الذين يشكلون خطراً باحتمال إثارة الفتن مطالبين بالعرش^{١١٦}، ويقال إن هذه العادة مستمدة أساساً من الاعتقاد بالملك الإله أو الملك المقدس، لاعتقادهم أن الملوك قوة إلهية متى ما ظهر عليها الضعف وجب إعدامها. وقد ازدهرت هذه العادة عند سكان فازوغلي وجبل قول والشلك، وهم يخافون وقوع الكوارث عليهم من جراء ضعف روح الملك^{١١٧} ويقال إن هذه العادة اشتهر بها كهنة كوش^{١١٨}. إن استمرار هذه

١١٥ على الرغم من أن كتاب الطبقات ظل وسيظل مرجعاً أساسياً ووصفياً للتعليم الديني والطرق الصوفية في ذلك الوقت ومجمل ما يتكون من علاقات إلا أنه جدير بالكثير من الاعتراض والشكوك في الآونة الأخيرة.. شكوك مردها في معظمه استنكار لما وصفه من حال ساد في ذلك الوقت وهي شكوك في رأيي لم تتحرى الواقع الاجتماعي والثقافي بشكل متعمق.. وما ورد في كتاب الطبقات من وصف لذلك العصر استغرد به الكتاب وخلا التاريخ لهذه الفترة الهامة إلا من كتابات الرحالة والأجانب.

١١٦ أشار إلى هذه العادة شارلز يونسية والأب برفيدان الذين وصلوا سنار في ١٦٩١ يقول " إذا حدث وتوفي ملك سنار يجتمع المجلس الأعلى ويأمرؤا بأن تدق أحناء أخوة الأمير الذي سيتوج " ويقول الأب برفيدان " أنه ولدى موت ملك سنار ينتخب خليفته بواسطة الشيوخ والنبلاء ويقتل بالرمح بقية الأمراء الملكيين المحبوسين بالقصر".

١١٧ يومف فضل، المصدر السابق، ص ٩٥

العادة لدى ملوك المملكة الإسلامية يوضح بجلاء تناقضها مع مبادئ هامة وأساسية وهي قتل الروح التي حرم الله قتلها.

ثانيًا: مرج الشمس^{١١٩}:

وقد ذكر هذا المعتقد هيرودوتس نقلًا عن الجواسيس الذين أرسلهم ملك الفرس كامبيس Gambyse وقد وصفوه بأنه مرج واسع في طرف المدينة. يقوم حراس الدولة بوضع كل أنواع لحوم الحيوانات المسلوقة به بعد مغيب الشمس، وكل من يود الأكل أثناء النهار من الرعية يأكل منه، وهم يؤمنون بأن الأرض هي التي تعطي هذا الطعام^{١٢٠}.

ثالثًا: المعتقدات المتصلة بالزراعة:

هذا وقد دون الأسواني خبرًا مفاده أن من عادات بعض القبائل التابعة لعلوة والتي استمرت حتى زيارته للمنطقة أنهم إذا جاء موسم الزرع ينظفون التربة ثم يأتون بالبذور ويضعونها في وسط المزرعة ويضعون فيها أنية مملوءة بالمزر "المريسة" ثم ينصرفون إلى منازلهم، وهم يعتقدون أن الجن يساعدونهم في أعمال الزراعة وأنهم يسيطرون عليهم بذلك^{١٢١}. ويقول التونسي: إنهم في دارفور يؤمنون بقدرة الملك على إخصاب الزرع لذا جرت العادة أن يشترك السلطان في الاحتفال سنويًا بموسم البذر^{١٢٢}. ويقال أن

١١٨ يوسف فضل، المصدر السابق، ص ٩٦ .
١١٩ هذه العادة هي من بقايا عبادة الشمس وقد رأينا آثار هذه العبادة واضحة حتى بعد دخول المسيحية فما كتبه برنوكونت عن البجة في منتصف القرن السادس عن أنهم يقدمون رجلًا قرينًا للشمس إلى جانب استمرار مقرهم الرسمي في تلميس حيث سادت عبادة الشمس والآله ماتدوليس يقول ماكماكل إن هذه العبادة كانت منتشرة في إثيوبيا وهناك مظاهر مشتركة بين البجة والإثيوبيين تتضح في معابدهم كالخدمة الليلية التي تنتهي عند بزوغ الشمس والكنائس الدائرية ذات الأربعة أدوار المتجهة مع البوصلة.

يوسف فضل دراسات ص ٩٦ .

١٢٠ فانتيني، المصدر السابق، ص ١٦٤ . Herodotus Histories v. 1 London 1964 pp

218

١٢١ التونسي، محمد بن عمر، تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد ومحمد زيادة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م، ص ٧٧ .

١٢٢ أيضًا، ص ٧٧

الملك يحضر الاحتفال برفقة مساعده حيث يبنزون أول بذر في الموسم ويؤكد ماكمايكل استمرار هذه العادة في عهد الفونج.

وايضا نجد فيما يذكره عبد المجيد عابدين عن معتقداتهم حول الخصب والزرع تأكيد لاستمرارية المعتقدات السابقة للإسلام، إذ تقام بعض الطقوس الهادفة إلى الحصول على ثمار جيدة ومحصول وافر لبعض أنواع الأشجار مرة أو مرتين في العام، تبدأ في موسم الحصاد ويقوم بطقوس الاحتفال نساء عجائز يأخذون هذا الحق بالوراثه، حيث يقمن بكنس المكان وتنظيمه حول الشجرة، وتقدم الخرفان قربانا كما يقدم اللبن والسمن والدقيق وتؤدي بعض الشعائر^{١٢٣}.

رابعا: تجسيد الجن واعتقادات أخرى:

(أ) الدمزوقة:

يقول التونسي: من أعجب ما سمعته بجبل مرة، أنّ الجن ترعى مواشيهم التي ترعى في الكلا بدون راع معها، وأن كل من يقربها ظانّا أن لا راع لها، فإن ذبحها تلتصق السكين على منحرها، ويعجز عن الفكك منها حتى يأتي أربابه. ١٢٤١ ويحدثنا عن الدمزوقة وهي من الجان تتعامل مع البشر وتتواجد بينهم ويستعان بها في حراسة المنازل، ويحكي أنه ذهب إلى دار رجل يسأل عنه فسمع صوتا يقول له أكبا، قال: فاردت أن أتقدم فجذبني رجل وقال لي: إنه من الجن وهو الدمزوقة، ويقال إنها تباع وتشترى. ويحكي التونسي بأنه لم يؤمن بالدمزوقة إلا بعد أن عمد بنفسه لشراء واحدة لتحرس له أمواله، وكيف أنها قتلت ابنه الذي حاول أن يأخذ من أمواله. ويقول ماكمايكل: إنها يمكن أن تكون مضرّة تحطم المنازل.. إلخ.^{١٢٥}

١٢٣ عبد المجيد عابدين، المصدر السابق، ص ١١٢.

١٢٤ التونسي، المصدر السابق ص ١٦١.

١٢٥ التونسي، المصدر السابق، ص ١٦١.

(ب) الشجر والحجر:

يقول ماكمايكل: إنَّ معتقدات الفور إلى اليوم ترتكز على الشجر والحجر في تحديد محلات العوائد (سرجتي Sergeti) وهم يعتقدون أنَّ تحت كل شجرة أو صخرة منها شيطاناً، فإذا مر زعيم العشيرة بأي موضع منها، عليه أن يقدم قرباناً لهذا الشيطان، وإلا فإنَّ كارثة سوف تحل به، ويعتقدون أنَّ الشيطان القابع تحت الشجرة أو الصخرة على شكل ثعبان قصير سمين أبيض اللون وله رأس كبير، وعينان حادتان، وقد عمد الفور إلى استخدام النساء الطاعنات في السن للقيام بمراسم التقرب إلى الحية فتقدم لها اللحم والدماء لتتزل عليهم المطر الوفير^{١٢٦}.

ويذكر لنا الأسواني أنه رأى في المقررة والثوبة من يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف الباري ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنته من شجره أو بهيمة^{١٢٧}.

ويقول أيضاً: إنَّ البجة الداخلة في صحراء بلد علوة ممَّا يلي البحر المالح إلى أول الحبشة والداخلة على كفرهم في عبادة الشيطان والافتداء بكهانهم ولكل بطن كاهن تضرب له قبة، فإذا أرادوا استخارته عما يحتاجون إليه تعرى ودخل إلى القبة مستديراً ويخرج إليهم وبه أثر جنون، يقول الشيطان يقريكم السلام، ويقول لكم كذا وكذا فيما يسألونه. فإذا أرادوا الرحيل حمل الكاهن هذه القبة على جمل منفرد، فيزعمون أنَّ ذلك الجمل لا يثور ولا يستطيع السير إلا بجهد، وأنَّ الجمل يتصبب عرقاً والخيمة فارغة لا شيء فيها. وقد بقي من الحدارب من هو على هذا المذهب، ومنهم من يتمسك بذلك مع إسلامه^{١٢٨}.

ويحدثنا الأسواني عن أن الفور يؤمنون بتناسخ الأرواح. ويقال إنَّ نبتي تعني أن هذا الشخص يعيش بقاءه الثاني بعد الموت.

١٢٦ أيضاً ص ١٦١.

١٢٧ أنظر ابن سليم الأسواني: أخبار النوبة، (المواعظ والاعتبار للمقرزي)، ج ١.

١٢٨ أيضاً

التاريخ والمغزى:

لقد تعمّدنا الكشف عن بعض المعتقدات الشعبية للإشارة إلى حقيقة سيادة معتقدات غير إسلامية لأناس دانوا بالإسلام، وهي أي هذه المعتقدات، تكشف لنا حقيقة التماس الثقافي بين إرث الثقافات السابقة والثقافة الإسلامية الوافدة. هذه المظاهر تمحورت وتشكلت في ظل سيادة الثقافة العربية الإسلامية وقد اكتسبت بعض المظاهر بعدا جديدا في ظل هذا التلاحق للثقافات فوجود الوسطة بين الخالق والمخلوق والتي تجسدت في الشيخ أو الولي تجسدت -كما ذكرنا آنفا- في الكثير من المسميات كوجود الكاهن أو الكجور أي وجود الوسطة المحسوسة دائما والتي تظهر حتى في حالات السحر والجن^{١٢٩}.

هذا النمط من التفكير امتد ليشمل الزعامات الدينية الإسلامية التي تشكلت بعد دخول الإسلام والتي تمثلت في رجال الطرق الصوفية، فتمثل دور الولي مع الدور المحوري للكاهن في الديانات والمعتقدات الأفريقية، فاكتملوا بذلك قدرات خارقة مكنتهم من أن يكونوا الوسطة بين الرب والمخلوقات، وفي ذلك تعبير عن الحاجة في الواقع لممثل تكون له الريادة والزعامة في توجيههم نحو تفسير الغيبيات. وبمجيء الإسلام اكتسبت هذه المفاهيم قوة وفعالية أكبر بورود الآيات التي تنص على وجود طبقة تكتسب مكانة خاصة بما أوتيت من تقوى ومجاهدة بنص الآيات (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَّ الْأَمْرِ مِنْكُمْ).

إنّ الإيمان المطلق بقدرة الشيوخ والأولياء على فعل خوارق العادات والمعجزات ليست من واقع الإسلام والفكر الإسلامي الشرعي في شيء ولكنها تعبر عن الواقع المعيشي والخيال الجمعي الشعبي لدى السكان في السياق التاريخي المذكور وإسناد ينتهي إلى ثقافات سابقة للإسلام تعززت بانتشاره وأسبغت عليها العقلية الجماعية الكثير من القداسة في جو أسطوري حافل بالقصص والإشاعات والمبالغات. هذه الدرجة من القدسية المسبغة على كرامات وقدرات الأولياء استوجبت الدفاع عنها عبر ذات الآلية فغالبا ما تواجه الآراء المخالفة لهذا الواقع بعقاب إلهي بائن وبذات الدرجة من التهويل.

١٢٩ يؤكد هذا وجود المرأة العجوز في نقاط العوائد عند الفجر "سرجتي".

هذا وبالنظر إلى المجتمع الإسلامي السوداني في القرون الوسطى بظروفه الاقتصادية والاجتماعية التي ذكرناها آنفاً، وسيادة الأمية والجهل والبدائية إلى جانب ما تواتر بعد ذلك من سيادة ثقافة دينية إسلامية ضحلة اقتصرت على معرفة السمات العامة للدين عبر أولياء أو فقهاء لا يمتلكون بالضرورة المعارف العلمية الكافية لنشر تعاليم الدين الإسلامي على وجهه الشرعي، أو لامتلاكهم نواصي أخرى مرتبطة ارتباطاً يمكن أن يكون عميقاً ويمكن أن يكون مظهرياً بمبادئ التصوف، وبتمثل الحقيقة الراسخة بانتصار وسيادة الثقافة الصوفية في السودان، والتي تعتمد على المجاهدة والكشف وملزمة ذكر الله باللسان، فإن ذلك يعكس إلغاء غير مباشر للمناحي المعرفية والعلمية وللكثير من الأحكام الشرعية، والإسناد إلى ما يعرف بالحقيقة في نظر المؤمنين بالإسلام الباطني. وبالتالي ينتفي دور العلم والتبحر في العلوم الدينية في اكتساب مكانة دينية أو مكانة مقربة لله.

ينعكس لنا ذلك فيما ذكره إسماعيل مكي الدقلاش في مخطوطته إذ يقول: (المشايخ على خمسة أنواع، شيخ الجماعة وشيخ الإرشاد، وشيخ التربية وشيخ الترقية وشيخ النقالة، أما شيخ الجماعة فهو الذي يدير لهم مصالح دنياهم، وشيخ الإرشاد هو الذي يعلم العلم والقرآن وشيخ التربية هو الذي يربي مريديه بالسلوك والأوراد والخلوات وشيخ الترقية هو الذي يرقى تلميذه بالدعوة الصالحة والنظر بعين الرضا في رقيه من منزلة إلى منزلة حتى يبلغ المقصود، وشيخ النقالة هو الذي تسعد الطائفة بنظره حيث إذا نظر إلى قوم فساد صاروا يرقصون مجاذيباً في ساعتهم^{١٣٠}. كما قسم الأولياء إلى درجات ومنحوا ألقاباً بناء على ذلك فهناك الغوث والأقطاب والإبدال والأوتاد والعصب والأخير والنقباء والنجباء والعمد.

ويقول أيضاً عن الولاية الصوفية: فالصوفي على ثلاثة أقسام الأول باطنه صوفي وظاهره شرعي وهو أدنى مراتب الصوفية لأنه يعرفه العام والخاص فلا ينكر عليه أحد، والثاني باطنه صوفي وظاهره صوفي وهو أعلا من الأول لأنه لا يعرفه إلا الخواص وأما العوام ينكرون عليه لأجل جهلهم بحاله، والثالث باطنه صوفي وظاهره بدعي وهذا أعلا درجات الصوفية... ويذهب إلى وصفهم بقوله "وصاروا يتلفظون

١٣٠ مخطوطة إسماعيل بن الشيخ مكي الدقلاشي ص (٥).

بالفاحشة ولا يفهم ذلك لأن المعاصي من جملة المخلوقات والمخلوقات عندهم كالعدم المحض^{١٣١}.

هذا وبفهمنا لفلسفة ذلك العصر والتي تطرقنا إلى بعض مظاهرها، وتحليل مكوناتها فيما سبق وذكرناه في الفصول السابقة، وفهمنا إلى انتصار الإسلام الصوفي في السودان والذي يتضح لنا أكثر في سياق دراستنا لطبقات ود ضيف الله، نستطيع أن نفهم تلخيص محمد المكي إبراهيم لهذه الحالة بقوله: "إن دخول الصوفية في السودان يتخذ شكلا أكثر خطورة إذ امتزج الإسلام بالصوفية بحيث اختلط الاثنان في أذهان الناس، وأصبحت الصوفية تعني الإسلام"^{١٣٢} إن هذا التمازج بين الإسلام وبين الطرق الصوفية مبعثه الأساسي الدور الكبير والمساهمة الحيوية والحاسمة لرجال الطرق الصوفية في نشر الإسلام في ربوع السودان المختلفة وعبر إنشائهم لمراكز التعليم، سواء كان ذلك تحفيظ وتجويد القرآن أو عبر الانضمام للطريقة والانقياد في تلقى العلم الديني على يد هؤلاء المشايخ.

وكتاب الطبقات يحوي وصفا دقيقا لهذه الطبقة، أي طبقة الأولياء والصالحين والعلماء والتي كما أشرنا سلفا كان لها القدح المعلى في محو الأمية ونشر التعاليم والممارسات الدينية مما أهلها لتصبح الملجأ والقبلة لمجموع الشعب بمختلف فئاته حتى الحكام. هذا وبالاستناد إلى ما سبق وأشرنا إليه في تصنيف المشايخ ومراتب رجال الصوفية وتدني المستوى العلمي لبعض المشايخ واقتصار نيلهم هذه المكانة أو الحظوة لدى الجماهير على ما يؤتونه من كرامات وخوارق للعادات نستطيع أن نخلص إلى ضالة الحصيلة العلمية التي يمكن أن يتلقاها الجمهور من هؤلاء. بل إنه وفي سياق الإطار التاريخي المعني فإن الجمهور لم يكن في حاجة إلى أكثر من ذلك ولم يكن ليستوعب أكثر من ذلك وهو ما ثبت بالدليل القاطع في انتصار الخط المبني على الحقيقة وليس الشريعة، ولأن الالتفاف حول الشيوخ مرتبط في حقيقته ارتباطا كلياً بمكانتهم في

١٣١ أيضا ص (٣).

١٣٢ محمد المكي إبراهيم، الفكر السوداني : أصوله وتطوره وزارة الثقافة والإعلام، الخرطوم ١٩٧٦، ص (٩).

الخيال الجمعي أكثر منه ما يملكونه من حصيلة علمية أو مرتبة في التحصيل العلمي للشرعة الإسلامية.

إن مؤثرات هذه العقلية قد انعكست حتى على الفقهاء السنيين^{١٣٣} أو من كانوا يميلون إلى إحكام الكتاب والسنة فلم يصمدوا طويلا أمام الإسلام الشعبي ولم يجدوا أمامهم طريقا سوى الميل نحو التصوف، وأصبح الكثيرون منهم يجمعون بين التعاليم الشرعية وطرق القوم في لف الأتباع حولهم كما هو وارد بالطبقات، ويكشف لنا ود ضيف الله إن اكتساب الحظوة والمكانة لدى العامة لا يأتي أبدا كنتاج للحصيلة العلمية للمولى أو الشيخ، فالكثيرون منهم نالوا الحظوة بالفيض الإلهي عبر النبي محمد أو النبي الخضر، فحتى ولي من أكبر أولياء العهد اكتسب مكانه دينية واجتماعية متقدمه كالشيخ حسن ود حسونة لم يرد في سيرته ما يشير إلى أنه تلقى أي تعليم ديني، وسوف نحاول هنا أن نسرد بعض من سيرة هؤلاء العلماء وكيفية نيلهم الحظوة عل ذلك يفيدنا في فهم الثقافة التي انتشرت حقيقة.

فما ورد في سيرة الشيخ حسن ود حسونة -على الحظوة والمكانة التي نالها- يتضح فيها أنه لم يرد في سيرته ما يشير إلى أنه تلقى أي تعليم ديني، وكما تحكي ترجمته في طبقات ود ضيف الله فإنه ذهب إلى قرية المطرفية لتلقي العلم على يد أبو بكر راجل حجر العسل الذي أرشده إلى دخول خلوة في باعوضة حيث جاءه المدد من رسول الله وعلي وأبي بكر^{١٣٤}.

وقد جاء في ترجمة محمد الهميم بن عبد الصادق أن دفع الله بن أبي إنريس قال عنهم كذلك الشيخ أبو القاسم الجنيد "إذ كان أميا لم يخط ولم يقرأ"^{١٣٥} هذا ومع أن أخبار الكثيرين ترد عن تجوידهم للقرآن ودراستهم للفقهاء إلا أن غالبيتهم تلقى طريق القوم فقط - على حسب التعبير - الذي يذكره ود ضيف الله، ويعني به تلقي الشياخة بعد ممارسة

^{١٣٣} المعنى البسيط للفقهاء السنيين هنا هم من يستقون الأحكام والسلوك والقيم من الكتاب والسنة بحرفية تامة.

^{١٣٤} طبقات ود ضيف الله ١٩٧٤ ص ١٣٤.

^{١٣٥} أيضا ص ٧١.

الأنكار الصوفية، ويذكر ود ضيف الله من هؤلاء سلمان الزغرات^{١٣٦} والشيخ يعقوب بن الشيخ مجلي^{١٣٧} والشيخ هجو بن البتول^{١٣٨} والشيخ بدر الدين أبوشملة^{١٣٩} والكثيرون غيرهم، وهي أي تلقى طريق القوم عن طريق الشيخ عملية ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا وتعتمد في الأساس على الحظوة التي يبلغها فرد ما عند الشيخ.

من هنا فإن اعتماد الولاية للصوفية على المدد أي "القوى الغيبية" وتلقى طريق القوم فقط أدى إلى إيجاد طبقة كبيرة من الأولياء والصالحين. هذا وباستمرار التعليم والتعليم الديني على هذه الفئة ذاتها من الأولياء والصالحين، فإن هذا يوضح لنا وبجلاء الحالة الثقافية التي سادت في تلك الفترة. كما أنها من ناحية أخرى تكشف لنا حقيقة أن مكانة الشيوخ عند العامة تعتمد في مجملها على ما يأتونه من كرامات وخوارق للعادات، وقد أدى ذلك إلى إيجاد حالة من التنافس بين الشيوخ. هذا التنافس يبرز بشكل أكثر حدة بين أتباعهم، وكان نتاج ذلك أن محاولة الأتباع لرفع مكانة الشيخ اقتصرت لضالة المعرفة العلمية بعلوم الدين وتأثير المكونات الثقافية المحلية الأفريقية وما ذكرناه سابقا من تلاحق لتقافات عديدة على هذه الكرامات وربما ركنت إلى المبالغة في إطار هذا التنافس، ولهذا جاء كتاب الطبقات زائرا بالكثير من الأساطير حول كرامات الشيوخ.

هذه الظاهرة كما يقول الدكتور يوسف فضل: "فإن ظاهرة التشيع لأصحاب الساجيد، ورفعهم إلى مراتب الكشف عن الغيبات والإتيان بالمعجزات وخوارق العادات" توضح لنا وبجلاء فهم مجموع السكان في ذلك العهد للديانات عموما، والصورة التي فهموا بها الديانة الإسلامية عبر الممثلين الدينيين والمتمثلين في طبقة الأولياء والصالحين باعتبارهم للصلة والواسطة بين العبد والرب، هذه المكانة الروحية للأولياء والصالحين كان نتاجها مكانة اقتصادية واجتماعية بارزة تتضح لنا فيما ذكره صاحب الطبقات عن الخلوي التي أقاموها للعبادة والتدريس ووضعية مساندهم كماوى للوافد ومنتجع للمريض ومطعم للجائع. وكان النتاج الطبيعي لذلك اكتساب هذه المساند واكتساب الشيوخ مكانة قيادية وسياسية بارزة وكانت لهم مكانة خاصة لدى الحكام لهم

١٣٦ أيضا ص (٢١٩)

١٣٧ أيضا ص (٢٧٤)

١٣٨ أيضا ص (٣٦٩)

١٣٩ أيضا ص (٣٦٥)

فيها الكلمة المسموعة والعليا وكان لهم حق الحجز والشفاعة، وامتلاك الإقطاعيات الكبيرة.

هذا وعلى الرغم من التفاف الجماهير حول الأولياء والصالحين واكتسابهم مكانه اجتماعية وروحية أبرز من الحكام إلا أن ذلك لم يؤد إلى أي نوع من الصراع بين الدولة والجماعات الدينية وعلى العكس انحصر الصراع وسط هذه المجموعات الدينية، كل منها تود أن تكتسب نفوذا ووضعاً اجتماعياً أكثر تميزاً من الأخرى.

هذا أيضاً ربما كان ناتجاً لما كان قائماً قبلاً فنظم الحكم قبل الفونج كانت تعتمد على طبقة من الكهنوت تتولى شؤون الحكم إلى جانب الملك. هذه النظم تشابكت بعد ذلك مع عناصر الحكم ومقوماته التي جاء بها المهاجرين لتخلف نظاماً يحمل من سمات الثقافتين الكثير، فزعامة العنصر الوطني للحكم كانت تقوم على علاقة وثيقة الارتباط بالدين وبممارسة أنواع من السحر والشعوذة والتي ترتبط بدورها بحياة المجتمع ومظاهر نشاطه، وبدلاً من أن يمارس الزعيم الديني هذا النشاط، فقد قام بجانبه الفقيه الديني الذي اختص بأمور الدين والسحر والشعوذة^{١٤٠}.

هذه المكانة التي اكتسبها الشيوخ جعلت مساندهم وخلاويهم محورا للتعليم ولكافة أنواع الأنشطة الاجتماعية ومقصداً لكل نو حاجة يتضح لنا الدور الذي لعبه هؤلاء الأولياء ومراكز أنشطتهم في التفاف مجموع الجماهير حول هذه المراكز للزيارة ولاكتساب العلم وغيره، وفي وصف صاحب الطبقات لزار الشيخ إدريس ود الأرباب وبمعرفتنا لمقره في قرية العيلة فونج يتضح لنا جماهيرية هؤلاء المشايخ والمشاق التي ينكبدها الناس للوصول إليهم، يقول صاحب الطبقات: "إن حوار الشيخ.. يقدم في كل عام لزيارة الشيخ من البحر المر، وتحضر معه قبائل الشرق عرب البر وعرب التاكة وغيرهم يجوا وآخرين مثل قبائل جهينة فمنهم من شاي العسل ومنهم من شاي القماش ومنهم من معه الرقيق والإبل"^{١٤١}. وعن طلاب القدال يذكر صاحب الطبقات "وبلغ عدد

١٤٠ الشاطر البصيلي، المصدر السابق، ص (٥٩)
١٤١ طبقات ود ضيف الله، المصدر السابق ص (٥٨)

طلبتَه ألف طالب وقيل ألفان.. وأن غنم الطلبة ترعى دايما في الخضرة من وضوء
الفقر^{١٤٢}.

والواقع أن مراكز الشيوخ هذه أصبحت وحدة اجتماعية واقتصادية متكاملة فالهدف
لجميع منسوبي هذه الوحدة مسيد كان أم خلوة، والوسيلة لابتغاء ذلك واحدة فمركز الشيخ
وحدة اجتماعية تتوافر فيها كل ما تحتاجه المجموعة من استضافة ومأكل ومشرب وتنمو
في داخلها روح المشاركة والمساهمة المادية والبنيّة، وهو نظام متناسق يتوافر فيه
تقسيم للعمل واضح ويعمل الجميع في داخله بهمة وأريحية ومسؤولية مشتركة. هذا
الواقع يوضح لنا في مضمونه وضعية الشيخ الاقتصادية والاجتماعية ويبين بجلاء مدى
الولاء الشخصي لشخص الشيخ والرغبة في خدمته. ويذكر لنا صاحب الطبقات عن
الشيخ إدريس ود الأرباب " ويقال: إن قداحته ستون قدحا الكسرة مديدة يسوطها الفقرا
ناس الطريقة، وبعضهم الخدام في البرام شادين في وسطهم المناطق".^{١٤٣}

ويتضح لنا قوة التنظيم في داخل هذه الوحدة فيما وصفه صاحب الطبقات^{١٤٤} عن
مسيد الشيخ حسن ود حسونة "وسعى"^{١٤٥} العبيد وركبهم الخيل، وقال بحرس بهم سعيتي،
والمتواتر عن الناس خمسمائة عبد كل واحد شاييل سيف، ولهم سيد قوم وجند
وعكاكيز^{١٤٦}، وأن الخيل يجلبوهن إلى ثقلي وإلى دار برقو ودار فور وسنار وأولاد
عجيب، ورقيقه صار حلالا ومن كثرة الزيارات زربوا لها زريبتين كبار، والنهار كله
يمرق منها الذبح والدفع ويمتلئن في مكانهم"^{١٤٧} ويقال أن كل خلوة بتنبّح لها شاتين كل
يوم، والخلوات إحدى عشر أو ثلاثة عشر^{١٤٨}

١٤٢ أيضا، ص ٥٩.

١٤٣ أيضا، ص ٨١.

١٤٤ أيضا، ص ٥٧.

١٤٥ سعى العبيد أي امتلك العبيد.

١٤٦ عكاكيز ويقال عساكر ويقال أن عكاكيز نفسها المقصود بها عساكر.

١٤٧ الطبقات، ص ١٣٨.

١٤٨ أيضا، ص ١٣٩.

هذه المكانة للشيوخ وصلت حد تسليمهم الزكاة فعن الشيخ إدريس ود الأرباب يقول
ود ضيف الله: "ثم حضر حسان الشكري ومعه ثلاثة أنفار كل واحد منهم معه صرة
محلفات فقالوا للشيخ هذه زكاة أبلأ لنا فاستضيف بها على الضيفان"^{١٤٩}

أما سياسيا فقد كان لهم حق الشفاعة والحجز لدى السلاطين وكانوا واسطة رسمية
فكانت شكاوي ومظالم الناس ترفع بواسطتهم إلى الحكام. ويقال إن الشيخ خوجلي ود
عبد الرحمن دخل مجلس السلطان واحد وسبعون مرة في مصالح المسلمين^{١٥٠}. بل أن
مكانتهم وصلت حد أنهم هم الذين يقومون بحفظ الأمن وتسليم المجرمين إلى الحكومة فيها
هو الفقيه بدوي أبودليق يحكي عن أن الشيخ إدريس خاطبه بالقول "أسرع يقال حمد ولدنا
مسافر إلى سنار بالمظالم والمراقب"^{١٥١} وعن بدوي أبو دليق نفسه القول "بان المظلوم
والمرقوب من سنار وقرى ما يجد من يقوي قلبه إلا ود أبودليق"^{١٥٢}. وكانوا كثيرا ما
يلجئون إلى التدخل فيما يقع بين القبائل من نزاعات وحروب فيوقعون بينهم إلى مرحلة
تصل حد التعاقد على المهادنة، وهو تعاقد يكتسب أهمية وقسدية مستمدة من المكانة
الخاصة للشيخ فلا يجرؤ أي من الأطراف على نقضه.

ويبدو أن المنهج الصوفي كما يقول محمد المكي إبراهيم: كان حلا ناجيا لتناقضات
رجل الدين في ذلك العهد، فقد كان الصوفي يجمع في شخصه بين شخصيتي الولي
والسلطان^{١٥٣} وواقع الأمر إن مكانة الشيخ بما يحيطها من هالة روحية كانت أبقى أثرا
في حياة الناس، فالمكانة الاجتماعية التي يتبوؤها الشيخ والحاشية التي تلتف حوله
والقدسية التي تحيط به كلها مظاهر تنبئ عن الصورة الذهنية للشيخ ومكانته في المخيلة
الجماعية وانعكاسات ذلك على الواقع المعاش. ويتجلى ذلك في الكثير من الصور
الحياتية اليومية وفي الأبهة التي ترافق مسيرة الشيوخ، وهو ما يتضح لنا من وصف
صاحب الطبقات لاستقبال الشيخ حسن ود حسونة يقول: "سمعت الهمرجة والزغاريت

١٤٩ أيضا، ص ٦١.

١٥٠ أيضا، ص ١٣٩.

١٥١ أيضا، ص ٦٣.

١٥٢ أيضا، ص ١١٩.

١٥٣ محمد المكي إبراهيم، المصدر السابق، ص ٩.

قالوا جاء الشيخ فإذا هو رجل قصير أصلع له قرون^{١٥٤} لايس فروة دمور، وشايل في يده مشكار شق به الناس دخل الحوش، فلما زالت الشمس ضربوا النفاقير فلما رد النهار ختوا فرشة رومية كبيرة فوق الدكة ثم جاء لايس قميص متعالى كبير فقعد فوق الفرشة فقامت العبيد شايلين العكاكيز للسلام^{١٥٥}.

وتوضح لنا إشارته التالية المكانة التي يحتلها الشيخ وما يحيط به من خدم وحشم وعبيد وكيف أن مجالسهم في رمضان كانت عامرة بالأتباع حيث تبسط الولايم بنظام محدد يتضح فيه أبهة السلطة والسلطان أكثر منه وربع وزهد الولي أو الشيخ "زمان رمضان جاءته مائة وعشرون فرخة فاتية لابسات الفرك والنداقس وثياب المنير شايلات قداحة للكسرة، وكل واحدة لابسة كم خالص قداه سوار فضة ووراءه سوار وكل واحدة تابعها فرخة في أنبيها قراقيت ولابسة ثوبا درديس شائلة صحن، وكل فرخة وراءها فرخة في يدها سوار فضة ولابسة فردة منير شائلة قرعة مغنية^{١٥٦}"

هذه الصور لوصف طريقة وسلوك شيخ كالشيخ حسن ود حسون تبين لنا بجلالة المسافة الكبيرة بين قيم وسلوك الإسلام وأحكامه، وبين ما ساد فعلا من سلوك وقيم ومفاهيم لحاملي مشعل رسالة الإسلام من القيادات الدينية.^{١٥٧}

هذه المكانة المرموقة والبارزة التي اكتسبها الشيوخ تكتمل بالحظوة لدى الحكام حيث اقتطعت لهم الكثير من الأراضي، فأصبحوا يمتلكون إقطاعيات كبيرة هذه الإقطاعيات تكتمل بما امتلكوه من رقيق والذي بلغ عند حسن ود حسونة خمسمائة عبد^{١٥٨}.

١٥٤ له قرون هذه ربما أيضا تشير إلى نوع من الطواقي مرتبط بالطائفة أم قرينات التي كان يلبسها الحكام.

١٥٥ طبقات ود ضيف الله، ص ١٤٠.

١٥٦ أيضا ص ١٤٢.

١٥٧ هذا الوصف للأبهة الدنيوية والمكانة السلطوية للشيخ على الأتباع بما فيهم الجواري والخدم هو حكمي متواتر في الثقافة الإسلامية وقد اشتهر العهد العباسي على وجه الخصوص بمثل هذه المظاهر واشتهر بها على وجه الخصوص الخليفة هارون الرشيد.

١٥٨ أن هذا الوصف يبين لنا أن التنظيمات المرتبطة بالشيوخ كانت أقرب إلى التنظيمات العسكرية أو الجيوش.

ويتجلى لنا ذلك بشكل واضح في وصف صاحب الطبقات لركب الشيخ إذ يقول:
"سافر إلى سنار تجنب في وجهه من الخيل ثلاثة وأربعين سروجها مخترية وثلاثة
كراديس قدامهم والمكادة الشايلين البندق ثلاثة وأربعين وجمال البدين سبعين"^{١٥٩}

كل هذه إشارات متفرقة توضح بجلاء الوضع الذي اكتسبه علماء الصوفية، والفهم
الديني السائد، فما ذكر في كتاب الطبقات والذي يحوي وصفا دقيقا للوضع الاجتماعي
والديني واستقاضة في تواتر الأنباء عن الأولياء والصالحين والذين يمثلون الاتجاه
الصوفي، يبين لنا بجلاء حقيقة امتزاج الإسلام بالصوفية في السودان بحيث أصبحت
تعني مفهوم واحد، ثم امتزاج كل ذلك بإرث الثقافات السابقة والواقع المشبع بالجو
الأسطوري والكهانة (والذي يتضح لنا بصورة جلية في كتاب طبقات ود ضيف الله)
وقابلية هذا الواقع لامتصاص كل الظواهر والبدع البعيدة عن الدين الإسلامي وتضمينها
أطر هذا الدين في شكل جديد تمثل في الأولياء وكراماتهم. بل حقيقة أن ارتباط تلك
الآثار بواقعهم واتساقها مع مخيلتهم هو الذي أكسبها قوة وفعالية أكثر حدة على الرغم
من بعدها عن الإسلام.

إن قوة وفاعلية المفهوم الصوفي بواقعه الذي تحدثنا عنه كانت له انعكاساته حتى
على المحاولات القليلة التي جرت من بعض العلماء لنشر العقيدة الفقهية القائمة على
الشريعة والفهم للظاهري للإسلام، بحيث انتهت كل هذه المحاولات بالفشل وانتصار
الجانب الصوفي بذات الشكل الأسطوري المرتبط بوجود هؤلاء الأولياء وما يملكونه من
قدرات وكرامات.

ومن أمثلة الصراع بين الصوفية والعلماء الصراع بين القاضي دشين قاضي العدالة
والشيخ محمد الهميم^{١٦٠} وتمثل الصراع في النقد الموجه من القاضي دشين لمحمد الهميم
في خروجه المتواصل عن الشريعة والتي انتهت بمرض القاضي دشين فكانت سانحة
موائية لربطها ببركات الشيخ محمد الهميم، كذلك ما حدث من صراع حول البن والتبناك

١٥٩ أيضا ص ١٤٦.

١٦٠ أيضا.

بين الشيخ إدريس ود الأرباب والفقهاء عبد الوهاب وانتصار الرأي الصوفي،^{١٦١} ويتجلى لنا الانتصار الدائم والحتمي للإسلام الصوفي المبني على الحقيقة وليس الشريعة في قول الشيخ حمد النحلان عندما اختلى بخلوته "أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة"^{١٦٢}

هذه المكانة التي بلغها الإسلام الباطني في السودان وهذا الواقع المشحون بالغيبيات كما سبق وذكرنا، أتاح الفرصة لامتصاص كل ما هو خارج عن تعاليم الدين الإسلامي والكثير مما يشذ عن تعاليمه بل مما يمكن تصنيفه في باب المنكرات تحت إطار مظاهر هذا الإسلام الباطني القائمة على المجاهدة والكرامة والانقياد في الشرع على تفاصيل الإمام، فحتى ما يفعله الشيخ محمد الهميم الذي زاد في زواجه عن العدد المسموح به شرعا وجمع في الزواج بين الأختين، وما حكى عن سلمان الزغرات الذي أباح لنفسه اغتصاب جارية.. الخ. جرى تفسيرها في إطار فلسفة المجاهدة بالنفس وهي كما يذكر صاحب الربابة أعلى مراتب الولاية الصوفية.^{١٦٣} وقد اصطلح على هؤلاء ومنهم إسماعيل الدقلاش ومحمد بن النقر والشيخ عبد الرازق أبو قرون بالملامنية.^{١٦٤} وهم كما جاء في ترجمة إسماعيل فرقة من الصوفية يفعلون اللوم في الشرع توبيخا وهضما للنفس ومن أنكر عليهم معطب.^{١٦٥}

هذا الواقع امتد ليشمل سلوك هذه الطبقة فكل ما تأتيه من مخالفة للشريعة هو من قبيل المجاهدة والشطح والجنب الصوفي، وكل ذلك من باب الكرامات. هذا التسامح إزاء الشريعة، وكما يقول محمد المكي إبراهيم: أتاح لرجل الدين فرصة أن يعيش حياة دنيوية متكاملة الأبعاد دون التعرض للوم أو انتقاص، فالكثير منهم لبس الحرير ونام على الريش وأكثر من الزوجات والسراي.^{١٦٦}

١٦١ أيضا،

١٦٢ أيضا ص ١٦٢.

١٦٣ مخطوطة إسماعيل صاحب الربابة، ص ٣.

١٦٤ طبقات، ص ٥٦، وسوف نتحدث لاحقا عن هذه الفرقة.

١٦٥ مخطوطة إسماعيل صاحب الربابة، ص (٣)

١٦٦ محمد المكي إبراهيم المصدر السابق ص ١٠.

وقد حفل كتاب الطبقات بمخالفات بائنة وأولية من قبل رجال الدين لموجهات الشريعة الإسلامية، منها ما ذكره ود ضيف الله بقوله: "وحتى قانون العدة لم يكن معروفاً، وكان الرجل يطلق المرأة ليتزوجها غيره في نهار اليوم نفسه "وهاهو خليل الرومي يسأل ذا حاجة" أن يأتيه ببرمة مريسة فلما أتى بها صفوا المريسة وشربوها هو وضناقلته الذين معه"^{١٦٧}

يقودنا هذا الواقع إلى تحري طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة وهل نجحت تعاليم الإسلام البائنة في مجتمع أصبح يدين بالإسلام في إحداث تغيير جذري في طبيعة هذه العلاقة في مجتمع بدائي اكتفائي قائم على الكسب المشترك ولا زالت تسود فيه بعض المظاهر للمجتمع الأمومي، وحق لنا أن نتساءل إلى أي مدى ساهمت طبيعة الحياة البدوية المتنقلة لبعض المناطق في إزالة الحواجز بين النساء والرجال في ترحالهم الدائم ومواجهتهم لنفس المصير والمخاوف والأمل؟
إذ إن الكثير من الإشارات تبين بجلاء أن العلاقة بين المرأة والرجل لم تكن قد تبلورت بعد وفق مفاهيم الثقافة الإسلامية العربية الواقعة على الرغم من التدين بها.

ففي مملكة الفور الإسلامية يمدنا التونسي بالكثير من الأمثلة على ذلك إذ يقول:
"ومن عوائدهم أيضاً أن النساء لا يحجن عن الرجال، حتى إن الرجل يدخل داره فيجد امرأته مختلية مع آخر فلا يكثرث ولا يغتم إلا إذا وجده عليها."^{١٦٨} ويذكر أيضاً "أن من غرائب عوائدهم أن الرجل لا يتزوج المرأة حتى يصاحبها مدة وتحمل منه مرة أو مرتين وحينئذ يقال إنها ولود فيعقد عليها ويعاشرها"^{١٦٩} ويقول أيضاً إن من عاداتهم أن البنات إذا طعن نديها، يفردون لها محلاً تنبت فيه، ويأتيها من يحبها فيه وتنبت معه، ومن ذلك يقع الحبل بأكثر بناتهم، ولا عار عليهم في ذلك، بل إن الأغرب من ذلك هو أن ولد الزنا ينسب لخاله"^{١٧٠}، ثم يصف احتفالاتهم فيذكر أن الشباب يجتمع في الأفراح والأعياد، ومن ثم تقوم الميرم بمخاطبة رئيس الشبان ويعدّها تأمر النساء أن يتفرقن على الشباب فيأخذ كل فتى فتاة ويذهبان إلى محل ينمان فيه إلى الصباح ولا عار في ذلك على إحدى

١٦٧ طبقات ص ٢٠٣.

١٦٨ " أيضاً ص ١٥٩.

١٦٩ التونسي، المصدر السابق، ص ١٥٩.

١٧٠ أيضاً ص ٢١٩.

منهن.^{١٧١} ويذكر التونسي أن السلطان عبد الرحمن قد اجتهد في القضاء على العادات المنافية لتعاليم الإسلام، وقام بتعيين خصيان لمراقبة السوق ومنع للتقاء النساء بالرجال، غير أنه لم يفلح في القضاء على هذه الأعراف.

وفي عصر مملكة الفونج فإن الرواية التي تروى عن الشيخ فرح ود تكتوك مع الملك تيرة تؤثر أيضا إلى غياب الالتزام أو المعرفة بموجبات الشرع الإسلامي، إذ إن الملك تيرة^{١٧٢} قرر أن يتزوج ابنته، موكلا للشيخ فرح لإتمام الزواج، وقد كان أن قام الشيخ بذلك قائلا:

الملك تيرة.... ود للخادم العويرة
زوجناك بنتك.... بسنة البغال والحمير

باب الكرامات والفعل الخارق للعادة:

هذا وقبل أن نستطرد في مجريات الأحداث في المرحلة التي نتحدث عنها، رأيت توضيح مفهوم هام تأسست بناء عليه ثقافة دينية متكاملة استمد منها هؤلاء الشيوخ والأولياء مكانتهم الاجتماعية وقوتهم إلا وهو الإيمان التام بالقدرات الخارقة لهؤلاء الشيوخ والتي وصلت حد العلم بالغيب وإحياء الموتى، ولأهمية ذلك واتصاله اتصالا كبيرا بمبحثنا في الزبالة وباعتبار أن هذه القدرة ركيزة أساسية من الركائز التي قامت عليها مكانة هؤلاء الشيوخ في المجتمع كما هو الحال بالنسبة لشيوخ الزبالة، فقد رأيت إفراد هذا الجزء من البحث لإيراد الفهم الإسلامي العام للفعل الخارق للعادة بكل أشكاله ومستوياته، ويشمل ذلك المحلول الديني والاجتماعي لهذا الحدث أملين من ذلك الاتفاق حول رؤية تقوم على أسس عقلانية لكل ما يتصل بذلك وما يتصل بمبحثنا عن الزبالة.

١٧١ أيضا ص ١٦٠

١٧٢ وتختلف الروايات حول الملك تيرة فبعضهم ينسبه إلى الغنج بينما بعض الروايات تنسبه إلى جماعة الزبالة، ويجانب أنه ليس هنالك ما يؤكد نسبته للزبالة، فإن الصراع بين الشيخ فرح والزبالة تنفي إمكانية اللجوء إليه لإتمام مراسيم الزواج.

المدلول الديني:

إن التاريخ المكتوب والمنقول شفاة في الإرث الثقافي الإسلامي يحدد ثلاثة أنواع من الأفعال الخارقة للعادة هي النبوة والكرامة والمعجزة، فالنبوة هي الإخبار عن الغيب أو المستقبل بإلهام من الله، والكرامة وهي فعل خارق من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة. أما المعجزة وجمعها معجزات فهي أمر خارق يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله^{١٧٣}.

يقول محمد المبارك عبدالله: "إن الكرامة من التكريم، وتكريم الله لأوليائه هو مناصرتهم وإعزازهم وتأييدهم وتبشيرهم في الدنيا والآخرة رحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم.

ويقول أيضا: إن علماء المسلمين لم يختلفوا في أن الله أولياءه، وأنهم العارفون به، لكنهم اختلفوا في وقوع الخوارق المسماة بالكرامات على أيديهم. فآجاز أكثر أهل السنة وأبو الحسين القصدي ومحمود الخوارزمي من المعتزلة أن يظهر الله على أيديهم من خوارق العادات، ويقذف في قلوبهم من أنواع المكاشفات ما شاء، وأن يجيب دعاءهم ويؤيدهم بنصره تكريما لهم واستلوا بما جاء في القرآن من قصة أم موسى وقصة مريم، وما ورد في الأثر من خرق العادة للصحابية والتابعين. ومنع بعض أهل السنة جواز الكرامات كالأسفراني والحلي وجمهور المعتزلة، واستلوا بأن الخوارق المسماة بالكرامات لو ظهرت في الأولياء لالتبست بالمعجزات، وذلك للفرق بين المعجزة والكرامة باعتبار دعوى النبوة والتحدي في المعجزة دون الكرامة، واستلوا أيضا بأنها لو ظهرت لكثرت بكثرة الأولياء وخرجت عن كونها خارقة للعادة، وأصبحت عادية وقالوا: إن خرق العادات مخالف لسنة الله في الكون التي لا تبدل لها فلا يكون إلا لأمر هام وهو تصديق الرسل الذي يترتب عليه قبول رسالاتهم والأخذ بها^{١٧٤}.

١٧٣ المنجد، بيروت، ص ٨٤٦.

١٧٤ محمد المبارك عبدالله، دراسات في تاريخ الفكر الإسلامي، دار الفكر الإسلامي، مصر ١٩٥٩م.

ص ٢٢.

ويرى محمد المبارك عبدالله أن الجواز العقلي يجوز أن يوحى الله إلى كل أحد ويظهر على غيبه غير أن ذلك ممتنع شرعا لقوله تعالى: **قُلْ إِن أُنْزِلَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ ابْتَلَوْا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَلَاحَظَ يَمَّا لَدَيْهِمْ وَلَاحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عِنْدًا**^{١٧٥} ويقول صاحب الكشف: إن هذا إبطال للكرامات وفيها أيضا إبطال للكهانة والسحر والتنجيم لأن أصحابها أبعد شيء من الارتقاء وأدخله في السخط^{١٧٦}. ويذكر ابن تيمية أن هنالك من رأى أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فإنه معجزة، وهو الخارق للعادة إذا اقترن بدعوى النبوة، وقد علموا أن الدليل مستلزم للملول فيلزم أن يكون كل ما خرقت له العادة نبيا، ويقول المعتزلة وغيرهم كأبي حزم والأسفراني أنه لا تخرق العادة إلا لنبي، وكتبوا مما يذكر من خوارق السحرة والكهان وبكرامات الصالحين. وهؤلاء يقولون إن ما جرى لمريم عند مولد النبي عيسى فهو إرهاب أي توطئة وإعلام بمجيء نبي فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي فيقال لهم وهكذا الأولياء إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسول^{١٧٧}.

وقالت طائفة بل كل هذا حق وخرق للعادة جائز مطلقا فكل ما خرقت لنبي من العادات يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين. بل أن هذا الخرق وارد في السحرة والكهان، ولكن الفرق أنه وفي الحالة الأولى تقترن بها دعوة النبوة وهو التحدي. هذا ولم ينكروا بين المعجزة والسحر فرقا معقولا، بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك لكن بينهما فرق دعوى النبوة وبين الصالح والساحر البر والفجور. وبعض الفلاسفة كابن سينا جعل ذلك كله من قوى النفس لكن الفرق أن النبي والصالح نفسه طاهرة بقصد الخير والساحر نفسه خبيثة^{١٧٨}.

يقول ابن تيمية: إن كرامات الصالحين تدل على حجة الدين الذي جاء به الرسول ولا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله. ويتفق الأشعري والقاضي أبو يعلى على أن المعجزة هي علم الصدق ودليله^{١٧٩}.

١٧٥ سورة الجن آية ٢٥-٢٨.

١٧٦ محمد المبارك عبدالله، المصدر السابق، ص ٢٧.

١٧٧ ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، النبوءات، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ٢.

١٧٨ أيضا ص ٥.

١٧٩ أيضا ص ٣٣.

وبن سينا يزعم أنّ النبوة مكتسبة، فإنّ من راضى نفسه، وخلصها من الأوصاف الذميمة إلى الأوصاف الحميدة، ولازم الخلوة والعبادة، ودوام المراقبة وإخلاء نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة. وإنّ النبوة فيض يفيض على نفس النبي وهو يجعل للنبوة ثلاثة خصائص هي أولاً: أن ينال العلم بلا تعلم وتسميتها القوة القدسية، ثانياً: أن يتخيل في نفسه ما يعلمه فيرى في نفسه صوراً نورانية، ثالثاً: له قوة يتصرف بها في ميوله العالم بإحداث أمور غريبة.

وفي رأي ابن سينا أنّ التجربة والبرهان القياسي يشهدان أنّ النفس الإنسانية تستطيع أثناء النوم الوقوف على المجهول، وإذا كان الأمر كذلك فليس بمستبعد عليها أن تتكشف المجهول حال اليقظة. وإنّ التجربة والقياس يقرران أن أشخاصاً كثيرين تنبؤوا بالمستقبل عن طريق الأحلام. وكذلك العقل حيث نسلم بأن الأحداث الماضية والحاضرة والمستقبلية مثبتة في العالم العلوي، ومقيدة في اللوح المحفوظ. وإذا استطاعت النفوس البشرية الصعود إلى العالم العلوي والوقوف على ما في اللوح المحفوظ عرفت ما فيه، وتنبأت بالغيب. وعند ابن سينا ومن يوافقه من العلماء أنه ليس في العالم حدث إلا عن قوة نفسانية أو فلكية كالنفس الفلكية والإنسانية والأشكال الفلكية، وعندهم أن ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل للفعال. هذا وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن عباس قال: كشف رسول الله صلى الله عليه وسلم السرّ ورأسه معصوب في مرضه الذي مات فيه فقال: "اللهم هل بلغت ثلاث مرات، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرى له".

بينما يضيف ابن تيمية بعداً جديداً، إذ يربط الحدث الخارق للعادة بفعلين الكرامة والاستعانة بالجن، فيقول: "إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغثروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة فإن رأيتموه موافقاً لها كان من أولياء الله وإن لم يكن موافقاً لها فيكفي أن تقرأ عليه آية الكرسي فإن كان على الماء غرق وإن كان في الهواء سقط وانكسر عنقه" ويقول أيضاً "ولهذا يوجد كثير من الناس يطير في الهواء وتكون الشياطين هي التي تحمله لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين ومن هؤلاء من يحمله الشيطان إلى عرفات فيقف مع الناس ثم يحمله فيرده إلى مدينته تلك الليلة ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله".

يقول الدكتور عبد القادر محمود^{١٨٠}: "ولما كانت مسائل وقضايا الكرامات ليست مما يدخل تحت النظرة العلمية ليتمكن الحكم الصحيح في ظواهره ومظاهره فإننا لا نصدقها ولا نكفر بها معاً، لأنها تمس أصحابها وتعبّر فقط عن ذاتيتهم ووجدانهم الخاصة المختلفة. لكن الاهتمام بها هو الخطأ وقد كان كثير من الصوفية القدامى يوصون بعدم الالتفات إليها وعدم الحديث فيها خوفاً من العتبي، وخوفاً من أن يظن الولي الصالح أنه صنع شيئاً، وكل شيء بيد الله في كل مجال وختام وأمر آخر أخطر بالنسبة للتباعد والمريدين وهو أن كثيراً منهم يقصدون هذه الأمور، ولا يشغلوا أوقاتهم إلا بها ولا شك أن هذا كان من أسباب تدعيم الخرافة في السودان، تلك الخرافة التي وثقتها أساطير الوثنيات في مختلف القبائل في الجنوب والغرب أيضاً في ديار دارفور وكردفان وهي تلك الخرافات التي دعمتها أساطير المهديّة التي قالت إن الإمام المهدي نفسه كان منقوشاً على بيض الدجاج وورق الأشجار حتى أجاز المهدي لنفسه أن يقول في عشرات المنشورات من لم يقر بمهديتي فقد كفر وكفر"

ومن الواضح أن الجدل كان قائماً في إمكانية حدوث الحدث الخارق للعادة بين علماء ومفكري الدين الإسلامي. هذا الجدل الفلسفي لم يكن قائماً في السودان نظراً للركود الفكري وما سبق ذكره عن كيفية دخول الإسلام واختلاطه بالكثير من العادات والتقاليد المحلية. بل أن إمكانية حدوث الحدث الخارق للعادة كان أمراً مسلماً به ولم يكن يقبل أي جدل في مجتمع السودان العصور الوسطى وربما حتى الآن، ولا زالت سيرة الأولياء والصالحين والشيوخ تحاط بقسدية وتخوف من التحدث عنها وما يمكن أن يجلبه ذلك من ضرر على الفرد.

إن هذا التسليم بحدوث الخوارق والمعجزات وبالكرامات والنبوءة هو جزء من الإرث الثقافي قبل دخول الإسلام والذي يعتمد أساساً على الكهانة والسحر. لذلك نجد أن كل كتابات ذلك العصر ومن بينها طبقات ود ضيف الله حافلة بأنواع هذه الكرامات، وقد لخص ذلك الدكتور يوسف فضل^{١٨١} في مقدمة الطبقات بقوله: "إنه وفي الصراع بين المتصوفة وأهل السنة، أدرك للصوفية أن للدين قد أصبح في عرف الفقهاء جملة رسوم

١٨٠ انظر عبد القادر محمود، المصدر السابق.

١٨١ يوسف فضل حسن، تحقيق كتاب طبقات ود ضيف الله، الخرطوم ١٩٧١.

وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها. هذه الرسوم وإن أُرصت ظاهر الشرع لم تكن لترضي باطن الشرع ولا تشبع العاطفة الدينية عند المتصوفة، ومن ثم فتح الباب على مصراعيه وأخذ العامة والسذج ممن انخرطوا في الطرق الصوفية يسبغون الكرامات وخوارق العادات على مشايخهم ويتخذونهم عوناً ضد مظاهر الطبيعة وقسوة الحياة وظلم الولاة*.

ويقول أيضاً: "وكانت درجة نجاح المتصوفة تعتمد اعتماداً مطرداً على ما يتمتعون به من علم وخلق ديني وورع وزهد وسلطان روحي وكرامات، وباعتقاد جمهرة المريدين أن مخالفة الولي قد تعود عليهم وعلى أطفالهم باللعنة والضرر، وباعتقاد البعض أن الشيخ لما أوتي من بركة هو خير واسطة بين العبد وربّه، وإن صاحب هذه البركة حياً كان أو ميتاً قادر على أن ينقذ أو يشفع لمن يتوسل به فصار الشيوخ يمثلون قوة روحية ذات سلطان عظيم على النفوس. واستغل المتصوفة وكان أغلبهم من غير العلماء قربهم من نفوس الناس في نشر التعاليم الإسلامية ولكن دون تعمق أو تمحيص، ولما علق بتعاليمهم الصوفية من شعوزة وخرافة فالتفت الأتباع والمريدون حول هؤلاء المشايخ يلهجون بحمدهم ويضفون عليهم الكرامات وخوارق العادات بل بالغ بعض الأتباع حتى ظنوا أن مشايخهم قادرين على إبراء المرضى بالتعاون والرقى وإحياء الموتى والتنبؤ بالغيب، أو أن لهم قدرات فوق طاقات البشر إلى آخر سلسلة الكرامات التي تنخر بها طبقات ود ضيف الله.

وحول ما ذكرناه سلفاً عن وجهة النظر العلمية الخاصة بتطور المعرفة ومراحل تدرجها من وثنية وسحر وخرافة... إلى مرحلة الإيمان بالإله الواحد والوعي بالدين، فإن هذه المعرفة في ظل حياة بدائية تنقصها المعرفة بمفاتيح الحياة ووسائلها وفي ظل الإيهام المحيط بكل ما يتصل بحياة الشخص وقدره من حياة وموت ورزق ومرض وقسوة طبيعة وخوف من المجهول، يجعل حياتهم محفوفة بالإيمان بالغيبات وهي التي تقودهم إلى الاحتماء بذخيرتهم الوراثية والمتمثلة في السحر والوثنية والخرافة اقتناعاً منهم بأن ذلك يحميهم من المجهول مما يكسبهم الزاد والطمأنينة الروحية.

الخلاصة أن الهجرات العربية واستقرار العرب رعاة وتجار كان البداية لسيادة الثقافة العربية الإسلامية. غير أن عهد الفونج مثل علامة فارقة في انتشار التعليم الديني، فبالإضافة إلى الهجرات الذاتية سعى سلاطين الفونج إلى اجتذاب العلماء العرب للحضور وتدريس علوم الدين، كما سعوا إلى ابتعاث البعض ممن يختارونهم من السكان المحليين لتلقي علوم الدين في الجزيرة العربية والرجوع ونشره في أنحاء المملكة.^{١٨٢}

إن سيادة الفكر الصوفي في هذه الفترة ثم اعتماد الصوفية على نظام الدعاة "الصوفي السائح" وارتباط ذلك بواقع السودان الاجتماعي والثقافي كان نتاجه فشل انتشار وتطبيق الشريعة الإسلامية^{١٨٣} على الرغم من أن أوائل القدوم كانوا من العلماء الفقهاء^{١٨٤}. وقد انتشر تبعاً لذلك تدريس مختصر خليل في المذهب المالكي ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وشروحها المختلفة وقد انتشر على حسب رواية صاحب الطبقات علم الفقه والتوحيد والتجويد وراجت كذلك بعض كتب الشافعية التي أدخلها محمد بن قرم كمنهاج الطالبين ومنهج الطلاب وقد وصل الأمر ببعضهم كتابة الشروح والحواشي مثل شرح مختصر خليل لمختار بن جودة الله وضيف الله علي والحاشية لمحمد بن عبدالله بن حمد الأغيش^{١٨٥}. ويبدو مما ذكره ود ضيف الله في طبقاته وما أشار إليه يوسف فضل في تقديمه للكتاب أن التعليم الفقهي كان وفيراً وسط هؤلاء العلماء، إلا أن الإسلام الفقهي فشل في أن يجد طريقه وسط مجموع السكان مما يؤكد صحة ما ذكرناه سابقاً عن التماس الثقافي، فالإسلام الفقهي بما يحمله من تعقيدات متصلة بمجمل العلاقات الإنسانية يحوي مكونات وموجهات تتقاطع مع مكونات الثقافات المحلية وتتناقض مع الأطر الاجتماعية والاقتصادية في سياقها التاريخي والمكاني لسود العصور الوسطى. هذا الواقع عززه انتشار الإسلام الصوفي بما يحويه من يسر على يد تاج الدين البهاري

١٨٢ فمحمود العركي وجدها غارقة في الجهل بقواعد الإسلام فحتى قاتون كالعدة لم يكن معروفاً مع انعدام أي مدرسة علم أو قرآن.

١٨٣ وجدها غلام الله بن عائد غارقة في بحر التيه والضلال.

١٨٤ يقال إن الطريقة الشاذلية دخلت قبل دولة الفونج على يد الشيخ حمد اب دنائة إلا أننا لا نجد ما يدل على شيوعها في تلك الفترة ولم تظهر إلا في وقت لاحق على عهد خوجلي بن عبد الرحمن وحمد المجنوب ومن أوائل القدوم محمود العركي في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي وإبراهيم البولاد في النصف الثاني من نفس القرن وعقبهم التلمساني المغربي وكل هؤلاء علماء المالكية.

١٨٥ طبقات ص ٦.

فظهرت بعده الكثير من الولايات كولاية محمد الهميم والشيخ إدريس ود الأرباب وحسن ود حسونة والشيخ بانقا.. الخ.

لقد قدم هؤلاء العلماء في وقت كان فيه علم الباطن هو العلم الأكثر انتشارا في مواطنهم التي أتوا منها. وقد كان لملائمة الصوفية بشكلها وتنظيمها الجماعي والمكانة الروحية التي يحتلها الشيخ مع البني الاجتماعية والإرث الثقافي للمجتمع الأفريقي المحلي دورا كبيرا في أن تصبح الصوفية أكثر ديناميكية وسط مجموع السكان. ويصف ابن خلدون ذلك بقوله: "جاء بعد ذلك العلماء والفقهاء الذين توافدوا من شمال أفريقيا وغربها قبل وبعد قيام دولة الفونج التي اهتمت بتكريم العلماء وأعلنت من شأنهم لكن الانتقال من التقاليد النوبية وبقايا الوثنيات القديمة التي كانت منتشرة إلى تعاليم الإسلام كان بطيئا وشابه الكثير من الخلط، خاصة مع غرابة اللسان العربي على الفونج أهل الدولة في سنار".

واقع الحال أن تلاحم كافة هذه العوامل أدى إلى تراجع الحركة العلمية وتراجع المحاولات التي بدأها هؤلاء العلماء، وتكشف لنا الطبقات انتصار الإسلام الصوفي وتقهقر الإسلام الفقهي في أن الكثيرين من هؤلاء العلماء الفقهاء انتسب بعد ذلك للصوفية فمنهم من ترك العلم الفقهي كالشيخ حمد النحلان.^{١٨٦} والشيخ عبدالله العركي.^{١٨٧} ومنهم كما يقول صاحب الطبقات من جمع بين العلم والعمل، والأرجح أن روح التصوف كانت هي الغالبة عند هؤلاء. وفي ترجمة الشيخ محمد الهميم تلخيصا رائعا ومؤشرا بليغا لواقع الحال والفهم السائد وسط مجموع الجماهير فما هي ستنا ابنة الشيخ دفع الله أبو إدريس تستذكر ما يلقيه والدها من دروس قائلة له "يا بابا ناس ولد عبد الصادق ملكوا الفنج والعرب وأولاده شالوا الدليب فوق القبيلة من الصعيد إلى الساحل، وجيرانه يوردوا خيله من المنطرة إلى البحر وقت الظهر في ظهرهن مسافة ثلاثة أيام أذنا بها لينات أنت ومحمد أخوي بلا قال المصنف ما سمعنا لكم شيء".^{١٨٨}

١٨٦ كان حمد يدرس الفقه على مختصر خليل ثم اعتكف بخلوة ورفض الخروج منها وعندما نادوا عليه ليخرج قال "يا أبوكسبة أنا وخليل افترقنا إلى يوم القيامة"
١٨٧ طبقات ص ٢٥٣ عبدالله العركي امرؤه بالسلوك عند مجيء البهاري فرفض قائلا "أنا قرئت لي علم ما يشتغل بغيره ثم انه لحق بتاجا لدين فوجده توفي فاخذ الطريق من خليفته جيب الله العج
١٨٨ طبقات ص ٣١٨

هذا ومن كتب الصوفية التي انتشرت الطبقات الكبرى المسماة لواقح الأنوار في طبقات الأخبار ولطائف المتين في الأخلاق في تبيان التحدث بنعمة الله على الإطلاق للشعراني وكتاب دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار لأبي عبدالله محمد الجزولي، ومن أكثر الكتب شيوعا حزب البحر المعروف بالجزر اليماني لمؤلفه الشيخ عبد القادر الجيلاني وكتاب ابن عطاء الله السكندري مناجاة ابن عطاء الله. كما كانت هنالك بعض المؤلفات السودانية ككتاب ترشيد علم المريدين في علم التصوف لعبد الرحمن بن جابر، وصفة الفقير لمحمد ود هدوي وكتب الشيخ إسماعيل مكي الدقلاش كتاب أدب الطريق وكتاب أداب الذكر.

هذا وبمنظرة سريعة إلى هذه الكتب ونوعية الثقافة الصوفية التي سادت والتي تظهر في روايات صاحب الطبقات نجد أن ما انتشر في السودان من تصوف لم يكن فلسفيا ولم يرتكز على الفلسفة الصوفية الفلسفية ومرتكزا الأساسي الإيمان بوحدة الوجود والحب الإلهي. فما انتشر من إسلام باطني في السودان ارتكز على مرتكزين أساسيين هما التصوف بآثاره الشيعية البارزة والمتمثلة في مكانة الإمام والغيبيات الأخرى المرتكزة على التأويل الباطني ومكونات الإرث الثقافي حينها. لذا جاءت الصوفية في السودان ولها نكهتها الأفريقية الخاصة بها وكان الاهتمام أكثر بالنواحي العملية دون النظرية، فالتصوف كان خلقا وسلوكا تظهر فيه وبوضوح التلاحق بين التعاليم الصوفية والدينية مع موروث الديانات الأفريقية. فكل هذه الكتب هي محاولة لترسيخ مكانة الشيخ وما يجب أن يتخلق به المريد تجاه الشيخ، وهي من ناحية أخرى إثبات لبركات الشيخ من خلال كراماته. هذا وحيث أن التعليم في السودان بدأ وانتشر عن طريق الخلوي والتدريس التطوعي في هذه الخلوي وهي البذرة لتعليم القراءة وحفظ القرآن ونشر التعليم، فإننا نجد أن كل الخلوي أو المدارس كانت مؤسسات دينية لعلماء صوفيين ومن أشهرها تلك المدارس التي أسسها محمود العركي بين الحسانية واليس، ومدرسة أولاد جابر بدار الشايقية، ومدرسة محمد عيسى بن صالح سوار الذهب بندقلا، ومدارس الغبش ببربر ومدرسة توتي وعلى رأسها الشيخ الزين صغيرون والفقهاء عائشة بنت القدال، ومدرسة سنار وعلى رأسها أرباب العقائد ومدارس المجانيب بالدامر.

هذه المؤشرات هي دليل واضح على الدور الذي يلعبه الشيخ الصوفي والمكانة التي يكتسبها جراء هذا العطاء المتنوع والممتد، فهو الممثل الديني للإسلام في منطقته وما

يليه من مناطق، وهو المعلم وهو صاحب الشورى. وبالتالي فإن انعكاسات هذا الوضع سلبا أو إيجابا ترتبط بشخصية الشيخ وما يتأتى له من علم أو معرفة.

إن انحصار تلقي العلم والتعليم من قبل هذه الخلوي المرتبطة بشيوخ الطرق الصوفية يعكس حقائق أخرى فالمتمتع في خريطة انتشار هذه الخلوي في السودان يجد أنها تركزت حول مناطق الزراعة والاستقرار وعلى طول وادي النيل، وليس هنالك أي مؤشرات تفيد وجود قنوات للتعليم أو انتشاره في مناطق الرعي أو وسط البدو الرحل.

إن عدم انتشار التعليم وسط الرعاة والبدو الرحل يكون مؤشرا آخر لضعف ما يتلقاه هؤلاء من معرفة في علوم الدين. وهذا يفسر لنا فيما بعد قابلية هذه المجموعات أكثر من غيرهم للارتباط بغيبيات هي نهل لكل ما توافر في محيطهم من إرث ومن قصص ومن أساطير، وهي انعكاس لواقع معاش يتسم بالبساطة والقساوة واقع ملئ بالخوف والوجل وعدم الأمان بالنسبة لهم. إن هذا الوعي هو ذاته الذي تم الاصطلاح عليه لاحقا بعد انتشار العلم بالدجل والشعوذة.

ونخلص أخيرا إلى أن الشيخ كان يمثل أهم وسائل ومظاهر الدين الإسلامي في دولة الفونج، فهو الوسيط والمعدل بين العبد والرب من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المكانة التي يكتسبها الشيخ باعتباره ولي من أولياء الله أدت إلى أن تكون العلاقة بين الشيخ والحاكم محورا آخر ومصدرا مضافا لمكانته لدى الأتباع.

وقد ساهم الشيوخ بما توافر لهم من وعي ومعرفة مستمدة من المعارف التي أتاحت لهم والتي هي خليط من الإرث الثقافي لمراحل ما قبل دخول الإسلام ونوعية الإسلام الذي انتشر - في إيجاد محيط ديني زاهر بما يعتبره البعض بدع وخروج عن الشريعة.. فما يشاع عن علم الأولياء بالغيب والكهانة والنبوءات وممارسة العبادات عبر حلقات الذكر والبخور والتمايم والتعاويذ والطبول والسبحه بأشكالها وطرق تسبيحها المختلفة بقدر ما تتطابق تطابقا تاما مع إرث ومخلفات الديانات الفرعونية والأفريقية والمسيحية فإن الكثير منها يمكن أن يكون منافيا لتعاليم الشريعة الإسلامية وهو عين ما درج الوهابيين على تسميته بالبدع مقرنين له بالكفر.

لقد صاحب انتشار الإسلام في السودان الكثير من العوامل على رأسها البعد المكاني والزمني والذي يبلغ ما يقارب السبعة قرون بين نزول الرسالة الإسلامية وبين انتشاره في السودان، ومن العوامل الهامة الاختلاف الثقافي واللغوي بين بلاد السودان والمواطن التي وفد منها حاملي راية الإسلام ونأشريه، فتجربة التطبيق الإسلامي وبخاصة التي تأثر بها السودان لم تتضح كلها في جزيرة العرب، إذ أن الإسلام السوداني تأثر بالتجارب الإسلامية التي تبلورت في المغرب العربي ومصر والحجاز واليمن والعراق.

وكان السودان حين دخول الإسلام غارقاً في الأمية وجهالة قاطنيه بطبيعة الأشياء حولهم والاستناد إلى الغيبيات في التعاطي مع حيثياتها، وكان مجيئه مترامناً مع فترة الركود الفكري في العالم الإسلامي. ويقدر ما كانت الظروف المحلية موائمة للإتيان بعقيدة محددة وواضحة فإن ذات الظروف لم تكن مواتية لنشر وتطبيق الإسلام بصورته التشريعية والتعليمية. ومما لا شك فيه فإن بعض المؤثرات الأخرى قد ساهمت في ذلك من بينها ضالة الحصيلة العلمية للمجموعة التي ساعدت في انتشاره، واختلاف الثقافة الوافدة عن الثقافة المحلية الأفريقية. ثم ندرة المؤلفات الدينية وغير الدينية وانتشار الأمية وعدم المعرفة باللغة العربية، وحتى تعلم اللغة العربية فقد انحصر في الطبقات العليا لتصبح لغة لهم. بينما استمرت كل من لغتي النوبة والهمج لتكونا لغات لعامة الجماهير.

إن كل هذه العوامل غير المواتية إذا ما ربطناها بالواقع المعيشي وصعوبة المواصلات وصعوبة التواصل، فإنه يحملنا إلى تصور ماهية ونوعية الإسلام الذي انتشر، ومدى ارتباطه بواقع محلي تدخل معه وأفرز شكلاً لخصه الدكتور محمد عبد الحي بمقاربة رائعة بين الثقافة السودانية وشخصية إسماعيل صاحب الرياسة التي في رأيه تجسد هذه الثقافة فقال: "وكل ذلك ملتحمًا التكاملاً وثيقاً بجوهر الثقافة السودانية الذي اتصلت فيه أمشاج التراث الوثني بالتراث الإسلامي، وامتزجت الحسية للصوفية بالتقوى الدينية"^{١٨٩} ولخصها الكرسي في بداية مقاله عن دور التجارة في دولة الفونج

بقوله: "إن تزاوج الإسلام والمسيحية بالموروث المحلي وما نتج عنه من إسلام حقيقة لا بد من دراستها"^{١١٠}

إن مقاربتنا لهذا الواقع تؤكد حتمية وجود حركات ربما تبدو للدارس المعاصر شاذة وغير ملائمة للواقع الإسلامي، إلا أن الدراسة المتعمقة لكيفية ونوعية وماهية الثقافة الإسلامية التي انتشرت وما تطرقنا له من مظاهر لهذه الثقافة وأراء بعض الباحثين عنها، يجعل التسلسل طبيعيا وسلسا للتحدث عن مظاهر وثنية أو أفريقية أو محلية من خلال الوجود الإسلامي، وهو واقع يفرز العديد من الظواهر الطبيعية التي تتلاءم مع هذا الواقع...الخ. الزبالة هم جزء من هذا الواقع خرجت من رحمه، وتشكلت في عقلية حظها من العلم قليل وهو ذات الواقع الذي لامس حقائق أخرى كطريق القوم والإسلام الباطني وهذا الزخم الهائل حول الأولياء والصالحين والملازمة.. الخ

١٩٠ أنظر مقال د. الكرمني "دور التجارة في دولة الفونج".

الحركات الباطنية في الإسلام

هذا الفصل محاولة لدراسة الملامح الأساسية للحركات الباطنية في الإسلام، وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما توصلنا له فيما سبق ذكره عن سيادة الإسلام الصوفي في بلاد النوبة فإن البحث عن كنه حركة الزبالة وتحديد موقعها فيما إذا انبثقت من أو تمت بأي صلة إلى أي من الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي عموماً يستوجب التطرق إلى الملامح العامة للحركات الباطنية في الإسلام، ومن ثم تبين موقع حركة الزبالة في الإسلام، لهذا ولأسباب عديدة أتى ذكرها قبلاً نتصل بصعوبة البحث في حركة الزبالة وتوفر المعلومات عنها، فإننا نعول كثيراً على أهمية وضرورة تصنيف حركة الزبالة وتضمينها أطر سابقة وواقعة لحركات مشابهة في التاريخ الإسلامي. يبدأ ذلك في الإطار العام بتقسيم الإسلام إلى قسمين رئيسيين القسم الأول وهو الإسلام الظاهري ويمكن تعريفه بأنه ما اتفق عليه جميع الفقهاء السنيين، والقسم الثاني وهو الإسلام الباطني وقد وجدناه متعدد ومتشعباً في الحركات الشيعية المعتزلة وعند المتصوفة وما اصطلاح عليه المؤرخون باسم الحركات الباطنية^{١٩١} (وسوف نتعرف لاحقاً على مكنونهما عند الإشارة إلى مدلول الظاهر والباطن في الإسلام)، لهذا وفي إطار هذا التقسيم الأولي للإسلام فإن الحديث عن الإسلام الباطني يتضمن الحديث عن الصوفية، ومن ثم سوف نتطرق لاحقاً وبشكل معرف وواضح إلى تبين مكانة الصوفية في الإسلام الباطني.

إن الحديث عن الحركات الباطنية في الإسلام تحفه الكثير من المخاطر، فما ذكر في كتب التاريخ عن الباطنية حركة كانت أم عقيدة أم رؤية فلسفية لا تعطي صورة جلية عنها. مما يستوجب إعادة قراءة كينونتها ضمن السياق التاريخي والمكاني الذي نشأت فيه، إذ أن واقع هذه الحركات كحركات تشكلت وهي تحمل وجه العداء والمقاومة للسلطات القائمة أدى إلى اختفاء وجهات النظر المؤيدة لها، وسارت جميع الوقائع في

١٩١ ما اصطلاح عليه المؤرخون بحركات باطنية داخل إطار الإسلام الباطني وسيجيء ذكرها لاحقاً مثل القرامطة والبابكية والإسماعيلية... الخ.

غير صالحها، فاختلفت الرؤى الناقدة لها بالرؤى المعادية. وقد فاقم من هذا الوضع طبيعة هذه الحركات كحركات معادية للسلطة يركز تنظيمها على العمل السري الخفي.

ويمثل معظم الكتاب الذين كتبوا عنها وأرخوا لها، طبقة صنعتها الدولة للدفاع عنها ضد كل الحركات المعادية سياسيا لدولة الخلافة الإسلامية، وعلى رأسها الحركات الباطنية. هؤلاء الكتاب اصطلاح على تسميتهم بطبقة الكتاب أو أهل القلم، وقد كان التشويه والتشكيك في عقائد أتباعها هي وسائلهم لمحاربة هذه الحركات.

ومن جانب آخر فإن معظم ما كتب من أدب مؤيد لهذه الحركات قد أبيد بواسطة السلطة الحاكمة أما ما بقي منه فمستور ومن الصعب الحصول عليه، أما ما هو متداول من كتابات لمؤيدي هذه الحركات فهو زاهر بالأساطير وخوارق العادات مما يقلل من أهميته العلمية

كما أن هنالك عامل آخر ساهم في ضبابية هذا الواقع وهو أن طبيعة هذه الحركات كحركات اجتماعية نائرة على السلطات الحاكمة، ينتظم بين صفوفها الفئات الأقل حظا ومرتبطة بين فئات المجتمع يجعل آلية العمل فيها تعتمد على التنظيم الفاعل أكثر منه على الرؤى والتطويع الفلسفي، ويحصر الاهتمام بالنواحي الفكرية والفلسفية في القيادات الروحية لهذه الحركات.

من هنا تتضح لنا المخاطرة أو خطورة التوثيق لحركة من خلال رؤى معادية لها اتفقت كلها على إدانتها ومحاربتها بما يتسق من أدوات تناسب ذلك العصر، فوصمتها بالكفر والزندقة والإلحاد.. وسوف يتضح لنا هذا عند التحدث عن الحركات الباطنية كحركات اجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحدث الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي لتلك الفترة، ومن هنا تبرز مسؤولية المؤرخ في تمحيص وفحص وتحليل روايات هؤلاء المؤرخين في إطار محاولة فهم الواقع الاجتماعي الذي أفرز هذه الحركات ومثيلاتها.

كما ذكرنا سابقا فإن هذا الفصل يهدف في الأساس إلى تفسير حركة الزبالة في إطار الواقع الثقافي والاجتماعي للحركات المشابهة في التاريخ الإسلامي، وليس بمعزل

عن الواقع التاريخي لمنطقة النوبة في العهد الوسيط. لذا فإننا لن نتعمق كثيرا في الحديث عن الباطنية إذ أن هذه محاولة مبسطة لإلقاء الضوء على مدلول كلمة الباطنية والجماعات التي أطلقت عليها، بداية الحركة والأسباب المختلفة لنشأتها، ويتضمن ذلك الحديث عن الواقع الاجتماعي الثقافي الذي أفرز هذه الحركات وآراء المؤرخين المختلفة والمتباينة لأسباب نشأتها، وسوف نتناول فلسفتهم والممارسات والمعتقدات الناجمة عنها مقارنة بالثقافات الأخرى المعاشة والصلة بينها وبين الحركات التي تعتمد الإسلام الباطني كالشيعة والمتصوفة، ثم يأتي بعد ذلك الحديث عن ما يمكن أن نطلق عليه الفكر الباطني في السودان وموقعه من الفكر الباطني في العالم الإسلامي ثم موقع الصوفية في تيار الإسلام الباطني عسى ولعل أن يتضح لنا موقع جماعة أبو جريد من كل ذلك. واضعين في الاعتبار أن هذا الفصل فصل تقديمي وليس بحث أساسي يهدف إلى محاولة فهم حركة الزبالة في إطارها كحركة قائمة ضمن الحركات الإسلامية أو على وجه التحديد الإسلام الباطني مع مراعاة الظروف الثقافية والتاريخية للمنطقة، لذلك فإننا سوف نعتمد على بعض المباحث القديمة والحديثة وعلى رأسها كتابات الغزالي "فضائح الباطنية" وفضائل المستطهرية" وبحث د. حسن الفاتح قريب الله، والبغدادي محمد الحسن الديلمي، ومحمد المبارك عبدالله، وكامل الشيبني، ومصطفى غالب، وحسين مروة، وعبد القادر محمود وبعض المصادر الأخرى الموضحة بالهامش.

الحديث عن الباطنية^{١٩٢} يتناول جانبين، الجانب الأول هو الباطنية كفلسفة وفكر ذي رؤى دينية، والجانب الثاني هو الباطنية كحركات اجتماعية سياسية سرية معادية للدولة القائمة، وربما يتبادر إلى ذهن السؤال عن مدى صحة القول بأن للباطنية رؤى دينية مع أن كافة مؤرخي تلك الحقبة وصموها بالكفر والزندقة والإلحاد، وربما من الأهمية بمكان الانتباه إلى هذه النقطة والتي تمثل المحور الأساسي لمدى أهمية الظرف التاريخي لقيام تلك الحركة أو الحركات التي كانت تستمد معينها من الدين لأنه هو الوعي الأيديولوجي السائد والمتقدم، فالحركات الباطنية الثورية اعتمدت التفسير الباطني للقرآن والسنة لمعاداة الدولة القائمة والتي يمثلها التفسير الظاهري للإسلام. لذا نجد أن القوى

١٩٢ وقد حدد الإمام محمد بن الحسن الديلمي نشأت الباطنية بقوله: "إن ابتداء وضع مذهب الباطنية سلط الله عليهم كان في سنة خمسين ومائتين من الهجرة، من الفلاسفة، والمجوس، وضعه قوم تطبقوا وكان في قلوبهم بغض للإسلام وبعض النبي واليهود، وكان آخر دعائهم ميمون القدر.

المناهضة لهذه الحركات الثورية كانت تجاريتها بذات السلاح ولذات السبب، فالعرب كما ذهب ابن خلدون (لا يحصل لهم الملك إلا بصفة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة)^{١٢} ويرجع القدال^{١٣} ذلك "إلى أن هنالك تلاحماً حميماً بين الأيديولوجية والرؤى الدينية برزت أكثر جلاءً في العصور الوسطى التي ألحقت بعلم اللاهوت جميع الأشكال الأخرى للأيديولوجية، الفلسفة والسياسة وعلم الحقوق وجعلت منها - أي هذه الأشكال أقساماً تابعة لهذا العلم - اللاهوت". ولهذا اضطرت كل حركة اجتماعية كانت أم سياسية أن تتخذ شكلاً دينياً وكانت كل حركة لكي تحدث أثرها في الجماهير المحشوة بالغذاء الديني وحده، مضطرة أن تقدم لهذه الجماهير مصالحتها الخاصة في إطار ديني، وينتهي إلى القول بأن المعارضة الثورية للإقطاعية عبر القرون الوسطى أخذت أما شكل تصوف أو شكل هرطقات ساخرة أو شكل انتفاضات مسلحة.

إن الفصل بين هذين الجانبين فصل شكلي تأتي أساساً من أن الشكل النهائي لما يمكن أن يسمى بالفكر أو الفلسفة الباطنية كان نتاجاً لأعمال كثيرة ومتفرقة لفرق ودعاة متفرقين تحت إطار الدعوة الباطنية نفسها، وهذه في حد ذاتها ظاهرة صحية تنفي في مضمونها وجود قالب فلسفي وفكر جاهز وقائد لهذه الجماعات المنتظمة ضمن الحركات الباطنية، ويؤكد صلة هذه الحركات بواقع ظرفي اجتماعي "يتضح لنا ذلك خارج نطاق ما اتفق المؤرخون على تسميته بالحركات الباطنية باستخدام الشيعة للتأويل الباطني" وهو أساس المدرسة الباطنية^{١٤} ومن ثم تبني المتصوفة له.

وكما أسلفنا فإن هذا الفصل يعتبر شكلياً لأن ما أسميناه برؤية معادية أو ثورية تتحدد فقط بمدى ارتباطها بالواقع الاقتصادي والاجتماعي النامي في المرحلة التاريخية المعينة، فليس هنالك فكر ينشأ من فراغ، الفكر يعبر عن واقع في أول الأمر، ومن أبعاد ذلك الواقع تتحدد معالم إسهامه في مجرى الصيرورة التاريخية، على أن علاقة الفكر بالواقع ليست علاقة ميكانيكية بحيث يصبح التفكير مجرد نسخة مكررة لما يتم التفكير فيه، ويمكن أن يكون فقط منتسباً لما يفكر فيه، وليس مجرد انعكاس للأصل^{١٥}.

١٩٣ انظر مقدمة ابن خلدون

١٩٤ محمد سعيد القدال، المهدية والحبة، ١٩٧٣، ص (٥)

١٩٥ أيضاً ص (٥)

لذا فإن هذه الفرق المرتبطة بالدين ذات المدلول الاجتماعي المتشعبة والمتعددة تختلف باختلاف نهجها وواقعها وباختلاف قياداتها والمناطق التي حدثت بها، وتختلف من حيث المبدأ والاجتهاد، غير أنهم باختلاف مشاريعهم وتشعب ميولهم تطرفا واعتدالا ينطلقون حقيقة من واقع الاضطهاد الاجتماعي والسياسي الذي يقع عليهم، يتضح لنا هذا بتحليل المنطلق النظري الذي تنطلق منه جميع هذه الفرق، والذي يتمثل نظريا في القول بالتأويل وبحق السلطة الإلهي والإمام الروحي.

من هنا يتضح لنا أن تحديد رؤية محددة ونظرية موحدة للإسلام الباطني بصورة مطلقة وشاملة يبدو أمرا عسيرا. وسوف تكون هذه محاولة لتحديد الأسس العامة للنظرية أو القاعدة التي انطلقت منها وقامت عليها الأبنية المتعددة لمختلف النظريات الباطنية.

مدلول كلمة الباطنية:

حسب ما جاء من تعريف في دائرة المعارف الإسلامية فإن الباطن هو الحق وهو بخلاف الظاهر، وقد اتفق أكثرية الكتاب على أنهم لقبوا بالباطنية لأنهم يعتقدون بأن لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل، وأن الباطن هو الحق. وقالوا إن القران ظاهر وباطن والمراد منه باطنه لا ظاهره، ونسبة باطنه إلى ظاهره كنسبة اللب إلى القشر، وهي بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صورا جليلة وهي عند العقلاء والأنبياء رموزا وإشارات إلى حقائق خفية، وأن من تقاعس عقله عن الغوص في الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار وقنع بظواهرها مسارعا إلى الاغترار كان تحت الأواصر والأغلال معني بالأوزار والأثقال^{١١}

ويقول عادل العدا: "إن الباطنية تشمل كل اتجاه في الفكر يجاوز التفسير إلى التأويل، ويرى أن اللفظ أو الظاهر رمز الإشارة، ويقول: إن الفارق بين الرمز والإشارة تتمثل في أن للإشارة دلالة عامة ذائعة مقررّة أو هي بوجه الإجمال دلالة مقبولة ترتبط رباطا وثيقا بما تدل عليه، فلا تخرج عن حدود المعنى المتعارف عليه. أما الفكر

١٩٦ الغزالي، أبو حامد، فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، حققه عبد الرحمن بدوي، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١١.

الباطني الرمزي فهو كل اتجاه يعمل على تجسيد لفكرة في هيئة شكل أو صورة تعتمد على المماثلة أو المحاكاة التمثيلية^{١٧٠}

وتعتبر دراسة المستشرق الروسي فلاديمير إيفانوف^{١٧٨} عن الإسماعيلية هي المرجع الأساسي لكل الدراسات عنهم، إذ يوضح رؤيتهم بقوله: "إنه ليس في الإسماعيلية ما يسمى تفسير وذلك لسبب نفسي جلي ظاهر، وهو أن آيات القرآن البينة لا تحتاج إلى تفسير أما الآيات المتشابهات فيمكن أن تشرح عن طريق التأويل، والتأويل يؤخذ عن الإمام"^{١٧٩}

وقيل إنهم سموا باطنية لقولهم بالإمام الباطن المستور وعندهم صاحب المواقف من غلاة الشيعة.^{١٨٠} ويقول ابن خلدون: إنهم لقبوا بالباطنية لكتمان أمر دعوتهم وربما أطلق عليهم أعداؤهم لقب الباطنية أي أنهم يظهرون الإسلام ويبطنون خلافه من نحل الرواسب والفارسية وجمع الشعوبيين وأصحاب الديانات الأخرى وذلك لأن جميع الحركات الباطنية كانت حركات سرية سياسية.

وأهل الباطن على خلاف أهل الظاهر، فهم لم يجوزوا القياس والاجتهاد في الأحكام وقالوا إن الأصول هي الكتاب والسنة والإجماع، وأنكروا أن يكون القياس أصلاً من الأصول، فلا يجوز الحكم عندهم إلا بنص من كلام الله والرسول أو بإجماع من الأمة ومنهم داؤود بن علي الملقب بالظاهري^{١٨١}. هذا وباستقراءنا لكل هذه الآراء يتضح لنا أن الأرجح هو الرأي القائل بالتأويل، يتضح لنا هذا باستدلال الباطنية بالكثير من الآيات والأحاديث لبرهان مشروعيتها عملهم. ثم استدلال هذه الحركات بالآيات وتأويلها

١٧٧ عادل العدا منتديات إسماعيلية دمشق ١٩٥٨ هـ ص (١).

١٧٨ مقال إيفانوف الشامل عن "الإسماعيلية" الذي كتبه في ملحق الطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية :

Ismailia Traditions Concerning the Rise of the Fatimid's, London 1942; ١٩٩
id., Brief Survey of the Evolution of Ismailism, Leiden 1952.

EI1 art. Ismailiya, Suppl. Pp. 105-109 و

٢٠٠ محمد المبارك عبدالله، في التصوف، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الخرطوم، ١٩٧٧م، ص ٧٠ والغزالي ص ١١.

٢٠١ دائرة المعارف الإسلامية ص ٢٩٠.

لمشروعية أي عمل يقومون به، يقول حسن الفاتح قريب الله: "إن أخطر ما في الدعوات والحركات الباطنية بوجه عام هو فكرة التأويل المذهبي وتحميل النصوص القرآنية ما يستحيل معه النص القرآني إلى نص شيعي لا صلة له بالقرآن ولا بالعقل على الإطلاق"^{٢٠٢}

الظاهر والباطن والصلة بين الفكر الباطني والتشيع والتصوف:

هذا وإذا رجعنا إلى التعريف الأول بأن الباطن هو خلاف الظاهر، وتعريف أهل الظاهر بأنهم الذين لم يجوزوا القياس والاجتهاد في الأحكام، وقالوا إن الأصول هي الكتاب والسنة والإجماع، وأنكروا أن يكون القياس أصلاً من الأصول، فلا يجوز الحكم عندهم إلا بنص من كلام الله والرسول أو بإجماع من الأمة"^{٢٠٣} وباعتماد ما توصلنا إليه هنا من استناد الباطن أساساً على التأويل الباطني لنصوص القرآن والسنة، ثم ارتباط كل ذلك بمعطيات ذلك العصر والخلاف الأساسي حول الإمامة، يتضح لنا بجلاء الصلة بين الفكر الباطني والتشيع والتصوف، لدرجة يمكننا معها إدراج التشيع والتصوف في إطار تقسيمنا الأولي للإسلام تحت ظل الإسلام الباطني.

إن مجريات نمو وتطور الصراع الاجتماعي قد أفرزت معطيات جديدة استوجبت إزاحة الشريعة السائدة على وجهها الظاهري والتي تمثلها سلطة دولة الخلافة، وهو فعل يعني في وقته المروق عن الإسلام والخروج عن الجماعة، وفي واقع الحال فإن تحقيق ذلك يستوجب بروز نهج مختلف تحت ذات الإطار للفكر الإسلامي لإيجاد رؤية فكرية جديدة، تتمثل في نظرة أبعد وبحث أعمق لما وراء ظواهر هذه الشريعة لإيجاد السند الديني للدعوة الثورية المناهضة وبما يتماشى مع مصالحهم ومعارضتهم للسلطة القائمة. ولا يفوت علينا أن نذكر حقيقة أن الحركات الباطنية المتأخرة التي اصطلاح المؤرخون على تسميتها بالباطنية هي مرحلة متقدمة في ذات المنهاج الذي بدأ بالتشيع لمناهضة السلطة القائمة.

٢٠٢ حسن الفاتح قريب الله ص ١١٠.

٢٠٣ أنظر محمد المبارك عبدالله المصدر السابق.

هذا الربط ليس مستحدثا إذ أن محمود إسماعيل^{٢٠٤} يرجع بعقيدة التأويل الباطني إلى الشيعة بقوله: "إن عقيدة التأويل الباطني أي القول بالمعنى الظاهر والمعنى الباطن للأشياء تسربت إلى الفكر الشيعي من المجوسية والمناوية"^{٢٠٥} فالشيعة هم أول المؤولين ثم جاء بعدهم الصوفية ليعتبروا أنفسهم خاصة أهل الله الذين منحهم أسرار العلم الباطني المودع في القرآن والسنة^{٢٠٦} ثم قول المتصوفة: "إن التصوف ليس في الحقيقة إلا العلم الباطن الذي ورثه علي بن أبي طالب عن النبي" ويربط الدكتور عون الشريف قاسم بينهم بقوله "وإن كان اللفظ يطلق على مجموعات متعددة من الفرق المتطرفة التي تجعل للنص معنيين ظاهر وباطن... ولهم كتب خاصة بهم غارقة في الخلط بين الفلسفة اليونانية والأفلاطونية منها بالذات وبين التصوف"^{٢٠٧}

هذا ومن الآيات والأحاديث التي يستند إليها الباطنية في تبرير رؤيتهم قوله تعالى: "فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُبُورَ لَهْ بَابَ بَاطِنَةٍ فِيهِ الرُّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ" وقوله تعالى "وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ"^{٢٠٨} والآية "ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ غَنَ النَّعِيمِ" والآية "وَذَرَوْا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ"^{٢٠٩} وقوله تعالى "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"^{٢١٠} والآية "وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحْقَابِ وَيُؤَيِّمُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ"^{٢١١} وقيل أيضا إنهم هم المرادون بقوله تعالى "ونضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم" وقال تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ

٢٠٤ محمود إسماعيل، المصدر السابق، ص ٦٩

٢٠٥ المناوية ديانة قديمة تنسب إلى ماتي قوامها القول بثنائية الأشياء ونصت على وجود الهين إله الخير وإله الشر رمز للأول بالنور وللثاني بالظلمة والأول خلق الملائكة وعالم الأرواح أما الثاني فقد صدر عنه العالم المادي وقد لعبت المناوية دورا واضحا في الفلسفة الإسلامية والمسيحية.

٢٠٦ حسين مروة المصدر السابق ص ٢١١.

٢٠٧ أنظر عون الشريف قاسم، المصدر السابق .

٢٠٨ سورة لقمان الآية ٢٠

٢٠٩ سورة الأنعام الآية ١٢٠

٢١٠ سورة آل عمران الآية ٧ .. ونجد في سورة يوسف الآيات - من سورة يوسف الآيات المحكمات هي ذات الدلالات الظاهرة والآيات المتشابهات هي التي تحمل دلالات غير ظاهرة في النص "أي الباطنة التي لا تنكشف إلا بالتأويل
٢١١ سورة يوسف.

فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا^{٢١٢} .

ومن الأحاديث حديث "حفظتُ من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعامين، فأما لأحدهما فبينتُه، وأما الآخر فلو بينتُه قُطِعَ هذا اللَّبْعُومُ"، ويقول للقاضي النعمان بن محمد: "إنه لا بد لكل محسوس من ظاهر وباطن فظاهره ما تقع الحواس عليه وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به بأنه منه وظاهره مشتمل عليه وهو زوجه وقرينه". قال تعالى "وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"^{٢١٣} وقال رسول الله ص "وما أنزلت علي في القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن"^{٢١٤}

هذا ويذكر الشيبيني:^{٢١٥} إن بداية السؤال عن طبيعة العلم، وهل هو علم واحد أم علمان ظاهر وباطن بدأت بأن حذيفة بن اليمان لقب بصاحب السراء صاحب سر رسول الله، ويقال إن علي بن أبي طالب قال: "علمني رسول الله ص سبعين باباً في العلم لم يعلم ذلك أحد غيري" وقال عن علم حذيفة "قد خص بعلم المناققين" وألفرد بمعرفة علم الثقات وأسرار العلم ووثائق الفهم وخبايا اليقين من بين الصحابة، وقد قسم السراج ذلك العلم إلى ثلاثة "علم بين للخاصة والعامة وهو علم الحدود والأمر والنهي، وعلم خص به قوم من الصحابة دون غيرهم هو العلم للذي كان يعلم حذيفة بن اليمان وعلم خص به رسول الله لم يشاركه به أحد، روي عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ص "إن من العلم كهينة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله، فإن نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله". ويروي حذيفة "عن عبد الواحد بن زيد قال: سألت الحسن للبصري عن علم الباطن فقال: سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن فقال: سألت رسول الله عن علم الباطن فقال: هو سر من سري أصله في قلب عبدي لا يقف عليه أحد من خلقي"^{٢١٦}.

٢١٢ سورة النساء آية ٥٩.

٢١٣ سورة الذاريات آية ٤٩.

٢١٤ مصطفى غالب، المصدر السابق، ص ٨٣.

٢١٥ كامل مصطفى الشيبيني، الصلة بين التشيع والتصوف، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢م ص ٤٥.

٢١٦ أيضاً ص ٤٣.

ويذكر الشيبلي أيضا: إن علي كان يعلم سر حذيفة فكان يقول له: يا حذيفة لا تحدث الناس بما لا يعرفون فيطغوا ويكفروا وكان على إطلاع بسائر العلوم وعالم بالظاهر والباطن^{٢١٧}. هذا ويسند إلى سيدنا علي قوله: "ما من آية إلا ولها أربعة معاني ظاهر وباطن وحد ومطلع فالظاهر التلاوة والباطن الفهم والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع مراد الله.

إن هذه الإشارات من القرآن والسنة والتي يستند إليها كل من الشيعة والمتصوفة في التأويل ربما تكون مبررا باننا للصلة بين التشيع والتصوف والحركات الباطنية. وقد استفاد الشيعة تاريخيا من حقيقة أن سيدنا علي هو أول من تحدث عن علمي الظاهر والباطن، وقد ارتبطت حركتهم في كلياتها بتبجيله وتبجيل آل بيته، وعلى الرغم من أن هذا التبجيل المتعصب لسيدنا علي لا نجده عند المتصوفة إلا أن هنالك قاسم مشترك يتمثل في استناد جميع الحركات الصوفية في مرجعيتها إلى سيدنا علي بن أبي طالب في مسألة أخذ العلم عنه بالتسلسل والمدد الذي يأتي الشيخ عن طريقه.

وفي هذه القصيدة من مخزون العركيين الشعري يتضح لنا إسنادهم في المدد لأشباع سيدنا علي:

أجب لدعائي وحجتنا بعظيم الاسم أنل مدد
بحق طريقك المنزل فـيا أزلي ويا أبدى
الوحي جبريل إليه نقل إلي الهادي وبه يهدي
من المختار لأسد الله فشى في القرب والبعد
إلي الحسين أبي عبد الله فارسا شبلًا من أسد
لزين العابدين الله ولباقر العلم علي السجد
إلي جعفر ولي الله لكاظم الغيظ والحقـد

٢١٧ أيضا ص ٧٥.

إلي المرضي إمامهم إلي الكرخي القطب الفرد
إلي الطائي حميمهم بسري السقطي تم عدد
لشيخ القوم أبي القاسم جنيداً فاق كل جندي
لشبل دره عاتم لعبد الواحد الصمد
طرطوس وهكاري الزاجر لنفسه دائماً أبدا
مخزوم اليصاح الفاجر وجالب الناس من نحد
المرجي القام علي ساق مساعدهم لهم سند
كمال الدين به ارشد قوما لا لهم عدد
جلال الدين به اشهد بعلاء الدين شد عضدي
لأصغر عالي القدر واكبر وافر العدد
وأكمل سالم الصدر واحمد فعله الحممد
تاج الدين به أعلن مدير الصهباء والشهد
حبيب الله به اتوطن لقهر الأعداء والضمد
إلي العركي ذو الخمسة أفعاله دائماً ابدي
لأبي إدريس للدنيا زهد من خوف الله وقف الحد
لدفع الله المسخ التمساح وأحيا جلوك حالي الند
لطريفي القوم الدق الساس مرفوع الذكر إلي الأبد

إلى القنديل دُخِلَ الغار به نار ظلاما مسود

ليوسف أب شرايا حار لمحمد طائل السيد

كما أن كل من الشيعة والمتصوفة وكل الحركات الباطنية اللاحقة تستند في مرجعيتها على التأويل الباطني، ومن ثم استنادهم في ذلك على الآية "وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ"^{٢١٨}. والتي نقودنا إلى ركيزة أساسية في تاريخ الفكر الشيعي والصوفي والباطني وهي مكانة الإمام أو من يحق لهم التأويل،^{٢١٩}. وسوف يأتي ذكر ذلك لاحقاً عند التحدث عن الفلسفة الباطنية باعتبار ذلك من الركائز الأساسية في لب الفكر والحركات الباطنية. يقول مصطفى غالب:^{٢٢٠} "إن المذاهب الباطنية اعتمدت في أصولها المذهبية الشيعية، والتقت مع الشيعة في أكثر من نقطة وأبعد من غاية، وبرز لوجه التلاقي بين الباطنية والشيعة قضية الإمامة المنحدرة من صلب علي. هذا مع ملاحظة أن مصطفى غالب في حديثه عن الباطنية يعني أساساً الإسماعيلية، لذا نجده يقول بأن المؤسس الفكري للباطنية هو الإمام جعفر الصادق بن محمد بن علي الحسين بن علي ابن أبي طالب. وفي حديث الديلمي عن القرامطة ما يشير إلى الصلة بينهم وبين الشيعة إذ يقول: "إن أبو سعيد الجناب أسس في سنة ٢٢٥ دولة القرامطة بالبحرين... وبهذا تم لمذهب الغلاة في الشيعة أن تنتشر في الشمال الشرقي من جزيرة العرب"^{٢٢١}

الفرق الباطنية:

هذا وقد اتفق أكثرية الكتاب على أنهم خمس عشر فرقة، بينما تتفوق الأسماء المذكورة على هذا العدد، وأشهرها القرامطة أو القرمطية، الإسماعيلية، المباركية،

٢١٨ سورة آل عمران الآية.

٢١٩ من أقوال الإمام الخميني "إن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأنمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل".

٢٢٠ مصطفى غالب، الحركات الباطنية في الإسلام، دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٨٠، ص ٤٨.

٢٢١ أنظر محمد الحسن الديلمي: بيان مذهب الباطنية وبطلانه الديلمي، مكتبة المعارف، ١٩٨٢ م

السبعية، التعليمية، الرافضة، الإباحية، الملاحدة، الزنادقة، المزدكية، البابكية "وقيل الشروينية"، الخرمية، المحمرة، الخرمينية، البابية، البهائية، والميمونية.

هذا التحديد وكما هو واضح بالهامش جاء أصلا من مؤرخي ذلك العصر، وهم في مجملهم من معارضي هذه الفرق. هذا التقسيم والتحديد لا يحتل أهمية تذكر في سياق الفهم العام للحركات الباطنية لأنه وكما أسلفنا فإن الأسماء اختلفت باختلاف القادة والأمكنة، لذا فإنها تعددت وفاقت هذا العدد المذكور بأكثر من ثلاثة أضعاف، ثم هناك عوامل أخرى أكثر أهمية هي أولا: عدم الوضوح التام لرؤية وفلسفة كل هذه الحركات المسماة بالحركات الباطنية وذلك لقلة المصادر من ناحية وعدم الوضوح التام لفلسفة مطلقة موحدة للحركات الباطنية من ناحية أخرى. ثانيا: وجود لبس وغموض في معظم هذه المسميات، وقد اختلف كثيرون حولها ومن بينهم مصطفى غالب الذي يقول: (إن الغزالي خلط بين الدعوات الباطنية الدينية الفلسفية وبين أصحاب الحركات الثورية السياسية الاجتماعية الذين انتقضوا على ظلم العباسيين، ويقول: إن الإسماعيلية لقبت في أول ظهورها بالسبعية والتعليمية والباطنية والقرمطية والقرامطة أما الخرمينية والبابكية والمحمرة فهي ألقاب نسبت إلى فرقة واحدة هي المزدكية، لأن بابك وأشياعه أخذوا مذهبهم عن إخوانهم في الجنس والثقافة أصحاب مزدك، ويقول: إن الحركات الثورية التي يمكن تسميتها بأنها حركات باطنية قامت على أسس دينية مذهبية فهي أولا: النادوسية. ثانيا: الموسوية، ثالثا: الإسماعيلية، وألقابها التعليمية، القرمطية، السبعية، الميمونية، الخطابية، الفاطمية، النزارية، المستعلية، البصرة الأغاخانية. رابعا: المفصلية إلى جانب المعمرية، البيزنعية، العميرية، الأبطحية، العيسوية المحمدية والرواندية ويخلص مصطفى غالب إلى أن المتبقي من هذه الفرق فقط الإسماعيلية، النصيرية، والدروزية.^{٢٢٢}

وباستقراء كل ذلك نؤكد مجددا على عدم الاهتمام بالمسميات، لأن اللبس يبدو واضحا ومن عدة نواحي فعلى سبيل المثال، فإن اللبس يبرز في الصلة بين بعض هذه الحركات وفلسفة الباطنية كالإباحية والملاحدة والزنادقة مثلا لأن موقعهم ربما يكون خارج نطاق الفكر الإسلامي. كما أن المزدكية وربما الخرمية ديانات مانوية قديمة ترجع

٢٢٢ مصطفى غالب المصدر السابق ص ٤٨.

إلى العهد الساساني، وبقراءة الكثير من المراجع يتضح أن الخرمينية هي ذاتها الخرمية، كما أن البابية هي نفسها البهائية، ويحددها الغزالي في عشر فرق لا يذكر فيها المباركية والرافضة والإباحية والملاحدة والزنادقة والبابية والبهائية والميمونية، كما أنه يسمي فرقة قائمة بذاتها باسم الباطنية.

وينتضي ما ذكره مصطفى غالب نجد أنه يناقض نفسه فهو في البداية يذكر أن الحركات الباطنية حركات اجتماعية اتخذت الأيديولوجية الدينية وفق مبادئ فلسفية معينة طابعا لها. ثم يجيء ليفصل هذه الحركات الثورية الاجتماعية عن الحركات الباطنية الدينية الفلسفية وهو يجيء لاحقا ليؤكد هذا التناقض بقوله إن أهم المدارس الباطنية هي الإسماعيلية والقرامطة والبابكية.

هذا وبالرجوع إلى ما ذكرناه سلفا في بداية هذا الفصل من البحث، فإن هذا التفريق في رؤى للحركات الباطنية الذي ذكره مصطفى غالب والذي ناقض فيه نفسه هو لازمة لازمت هذه الحركات الباطنية، وقد فصلنا كثيرا في أسباب الغموض الذي أحاطها وتبقى الحقيقة كما نراها وهو أن ما حدث لا يمكن أن يكون قد قام على أساس فكري وديني مذهبي بحت، إنما هو انعكاس لأوضاع اجتماعية أسهمت في إبراز حركته ثورية حتمت عليها ظروف ذلك العصر أن تستعين بالفلسفة والوعي اللاهوتي في إبراز دورها.

هذا ومن الأهمية بمكان أن نذكر إن معظم المراجع عند حديثها عن الفلسفة الباطنية فهي تعني بالدعوة الباطنية الدعوة الإسماعيلية وأحيانا دعوة القرامطة، وعند مقارنة ذلك بما ذكر في دائرة المعارف الإسلامية من أن أسم الباطنية قد أطلق أيضاً على الصوفية، يتضح لنا أنه من الصعوبة بمكان أن ندعي بأن هنالك مذهب محدد بشكل مطلق ذو أهداف ومرامي محددة يقابل هذه الكلمة له. ومع هذا فقد شرح الشهرستاني عند كلامه عن الباطنية مذهبهم على نحو يجعله قريباً جداً من مذهب الإسماعيلية^{٢٢٣}.

٢٢٣ دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثالث ص ٢٩.

ولكل هذا يصبح من المنطقي التركيز في هذا البحث على الخطوط العريضة للدعوات الباطنية. إن سعينا إلى تحديد الأساس أو القاعدة التي انطلقت منها وقامت عليها البنى المتعددة للحركات الباطنية والتأطير لها يستوجب التطرق إلى الواقع الاجتماعي الذي أفرز هذه الحركات وذلك لن يتم إلا بتحديد معالم البنية الاقتصادية والاجتماعية.

البنية الاقتصادية والاجتماعية:

ما تطرقنا له أعلاه عن الحركات الباطنية واللبس الذي صاحب نشأتها والتوثيق لها يستوجب تحديد المعالم الأساسية للبنية الاقتصادية والاجتماعية، أي الواقع الاجتماعي الذي أفرز هذا الفكر، ما نعنيه بالواقع الاجتماعي هو الامتداد الكمي لمخلفات النظام الاجتماعي الذي قامت على أساسه دولة الخلافة الإسلامية (هذا وسوف أعتمد في ذلك على ما استخلصه حسين مروة في كتابه النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية لأنه في اعتقادي يكتسب أهمية علمية كبيرة).

هذه التراكمات ظهرت جلياً بوفاة سيدنا محمد "ص"، وما أثير من خلاف بعد ذلك حول مسألة الإمامة، وهو خلاف فقهي ديني في الظاهر يعكس في حقيقته صراع قوى اجتماعية متباينة ومواقف طبقات متصارعة^{٢٢٤}. هذا الصراع يصبح أكثر حدة بتغلب الأمويين على أشياع علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه وقيام الدولة الأموية الملكية الوراثية باقتصادها الزراعي والتجاري المتداخل، وبالسمة الأساسية لعلاقات الإنتاج فيها وهي علاقة تقوم على الملكية الإقطاعية والاستثمار الإقطاعي متمثلاً كل ذلك ومرتبطة بشكل مباشر برووس الفئة الحاكمة حكماً مطلقاً باسم الإسلام، والتي دخلت طرفاً مباشراً في عملية الإنتاج الزراعي لا بصفة كونها سلطة سياسية ممثلة لفئة الإقطاعيين وحسب، بل كذلك بصفقتها المالك الأكبر للأرض والمستثمر الإقطاعي الأكبر^{٢٢٥}.

يقول حسين مروة: إن هذا الواقع أخذ يحدث تدريجياً تأثيرات سلبية في تطور العلاقات الإقطاعية، وتطور القوى المنتجة العاملة في الأرض، إذ أخذت السلطة

٢٢٤ محمود إسماعيل، المصدر السابق، ص ١٦
٢٢٥ حسين مروة النزعات المادية في الفلسفة الإسلامية ببيروت ص ١٣

بصفتيها معاً الاقتصادية والسياسية ترهق هذه القوى (الفلاحين والشغيلة الزراعيين) بالعمل وبالمزيد من الضرائب، وسوء جبايتها فيعرقل نموها بل يضعف حيويتها ويدفعها أخيراً إلى التخلي عن العمل في الأرض والهجرة عنها إلى العمل في المدن أو إلى البطالة. وعند ازدهار التجارة في العصر العباسي الأول دخل عملية الإنتاج الزراعي عنصر إضافي، وهو توظيف حاصل المرباح التجارية باستثمار الأرض، هذا العنصر الجديد دخل العملية بطريقة استملاك كبار التجار أراضي صغار الفلاحين، وترك هؤلاء فقراء معدمين، وهناك عنصر ثالث كان بالغ التأثير على القوى المنتجة للزراعية وهو اضطراب الكثير من مالكي الأرض إلى تسجيل أراضيهم في ديوان الخراج باسماء بعض رجال السلطة النافذين هرباً من وطأة الضرائب، وقسوة الجباة لقاء جزء من نتاج الأرض يدفعه المالك الأصلي لرجل السلطة الذي رضي أن تسجل باسمه، ويكشف الواقع أن هذه الأراضي كانت تنتهي أخيراً إلى ملكية الفئة الحاكمة وصيرورة الفلاحين المالكين الأصليين ملحقين بالأرض كزراعيين كالحسين أو مهجرين عنها إلى أعمال أخرى، هكذا أصبحت عوامل تركيز العلاقات الإقطاعية. وهذا الوضع بقدر ما يؤدي إلى إفقار جماهير واسعة من كادحي الأرض وتعطيل قوى هذه الجماهير عن استغلال خيرات الأرض^{٢٢٦} كما يقول حسين مروة فإنه في رأيه يضيف بعداً جديداً إلى عوامل تفكك النسيج الاجتماعي للمجتمع وتوسيع الهوة بين الفئات الحاكمة والفئات المحكومة.

من ناحية أخرى، وبمساعدة عوامل التوسع الإسلامي نتيجة للفتوحات الإسلامية، ومخلفات الثقافة العربية، ونظرة العرب إلى ما سواهم من أجناس، نمت في داخل هذه العلاقات الإقطاعية قوى جماهيرية واسعة تكونت مما اصطلاح عليه باسم الموالى من نازحي وأسرى الدول التي فتحها العرب كالفرس والروم والأتراك والأحباش وجمع السود في المنطقة. هذه القوى بحكم وضعها الاجتماعي كعناصر وافدة تحتل مرتبة أدنى في سلم العلاقات الاجتماعية من ناحية، والعلاقات الإنتاجية من ناحية أخرى، مما أدى إلى نمو للنعرات العنصرية جنباً إلى جنب مع الوعي الطبقي^{٢٢٧} فيظهر الصراع والتناقض بصورة أكثر حدة لدى هذه الفئات.

٢٢٦ حسين مروة المصدر السابق ص ١٣ - ١٤

٢٢٧ ما نعبه هنا بالوعي الطبقي هو الوعي بالمرتبة الأدنى التي تحتلها المجموعة في سلم العلاقات الاجتماعية.

هذا الواقع الاقتصادي والاجتماعي بما يحمله من تناقضات وصراعات شكل في مجمله الإطار العام لدولة الخلافة الإسلامية بامتدادها الشاسع، وأقاليمها المختلفة، وشعوبها المتعددة، إن توحيد كل هذا التعدد والاختلاف في محيط واحد لم يكن ليبلغ الإرث الثقافي لهذه الشعوب، فظل كل إقليم محتفظا بخصوصيته وكيانه المتميز عن الأقاليم الأخرى. لذا حفلت هذه المرحلة بالكثير من المفارقات التاريخية التي أدت إلى انتفاضات جماهيرية وحركات ثورية اتسمت بالسرية في العراق ومصر وبعض مناطق شبه الجزيرة العربية، وفي الأقاليم الآسيوية البعيدة التابعة يومئذ لدولة الخلافة، وكانت الحركات الباطنية على رأس هذه الانتفاضات، وكانت أكثرها فاعلية ثورة البابكية والدعوة الإسلامية وحركة القرامطة التي بدأت في سواد الكوفة وانتشرت في العراق وسوريا والبحرين.

هذه الحركات السرية والحركات الباطنية الأخرى، قامت أساسا على أكتاف الطبقات الدنيا من العرب ومن الأقليات العنصرية والتي تمثلت في طبقات الموالي من فرس وأتراك وغيرهم لكونها أكثر الطبقات الاجتماعية التي تعرضت للاضطهاد السياسي والاضطهاد الاجتماعي والتمييز، ولأنها عانت من جراء السياسات الطبقية للدولتين الأموية والعباسية. هذا على الرغم من أن مؤرخي ذلك العصر لا يجادلون في كونها جماعات تكونت تنفيذا لمخططات أهل المال والنحل لهدم الإسلام فأكثرية الكتاب قسموا أتباع الحركات الباطنية على نحو يجعلها حركات معادية للإسلام. فالديلمي مثلا قسمهم إلى: أولا: الشيعة. ثانيا: جهال النساك والعباد. وثالثا: جماعات انهمكوا في الظلم وقتل المحرمات واغتصاب الأموال فيخرج عن الدين ليخرج من القصاص. رابعا: قوم من العامة تشق عليهم الديانة، خامسا: المجوس والكفار، سادسا: المغمورين بالجهالة من النساء والعبيد وأهل العقول الناقصة والفقراء والمساكين^{٢٢٨}. وما كان الديلمي يستطيع أن يتجاهل هؤلاء وهم أساس الحركة وسوسها وما كان يستطيع أن يبرر ذلك إلا باتهامهم بالجهالة ونقصان العقل.

ويلخص مصطفى غالب الفئات التي قامت بهذه الحركات بقوله: "ولما كانت المدارس الباطنية وبخاصة الإسماعيلية والقرمطية فيها تدعو إلى مبادئ متطرفة ترمي

إلى إحداهن ثورات شعبية وعملية وزراعية وصناعية ضد الحكام والملوك الإقطاعيين والأثرياء فقد أصبحت ملجأ لكل ناظم وحاقه على الأوضاع، ومكانا آمينا يأوي إليه العلماء وطلاب المعرفة.^{٢٢٩}

بينما يقول الغزالي: "تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية الملحدين وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين".^{٢٣٠} ويصفهم الغزالي بأنها طائفة ضعفت عقولهم وقلت بصائرهم، لما جبلوا عليه في البله والبلادة مثل السواد وفجاج العرب والأكراد وحفاة الأعاجم وسفهاء الأحداث، ولعل هذا الصنف هم أكبر الناس عدواً.^{٢٣١} بينما يصفهم البغدادي بقوله: "والذي يروج عليهم مذهب الباطنية أصناف أحدها العامة الذين جبلت بصائرهم بأصول العلم والنظر كالنبط والأكراد وأولاد المجوس، والصنف الثاني الشعوبية والذين يرون تفضيل العجم على العرب، ويتمنون عود الملك إلى العجم، والصنف الثالث أغنام بني ربيعة من أجل غبطتهم على مضر لخروج النبي منه".^{٢٣٢}

من هنا فإن نفينا لكون هذه الحركات ليست تنفيذا لمخططات أهل الملل والنحل الأخرى وأنها حركات اجتماعية سياسية لها فكرها الخاص بها والمعادي لدولة الخلافة الإسلامية لا ينفي أن هذه الطبقات استفادت من الإرث العربي الزاخر، فالعرب قبل الإسلام كانوا أهل ملل ونحل من يهودية ونصارى ومجوس ووثنية وبوذية ومانوية وصابئة، وقد ظل تأثير هذه الثقافات التي اتصلت بالثقافة العربية مستمرا وقويا بتوسع للدولة الإسلامية والاتصال بالأمم الأخرى والاحتكاك بثقافات هذه المجموعات. ما ساعد على ذلك اختلاط هذه الثقافات في ظل دولة الخلافة وازدياد حركة الترجمة وموقف الإسلام المتسامح إزاء هذه الأديان وممارساتها، فالباطنية كما يقول مصطفى غالب: "عنوا بالمباحث العقلية وتفاعلو بالمد الفكري اليوناني واعتمدوا على فلسفات الأمم

٢٢٩ مصطفى غالب المصدر السابق ص ٥٤.

٢٣٠ الغزالي، المصدر السابق، ص ١٨.

٢٣١ أيضا ص "٤٠"

٢٣٢ البغدادي، أبي منصور عبداً لقاها بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق، مكتبة نيويورك. ص ٢٨٥

الأخرى في القرن الثاني الهجري كالفارسية واليونانية والهندية.^{٢٣٣} وقد ساهمت مشاركة الموالى بفعالية في المعارضة في نشر مثل هذه الأفكار ليس بغرض القضاء على الإسلام - كما يؤكد مؤرخو تلك الحقبة - إنما بغرض القضاء على دولة الخلافة.

لذا لم يكن من السهل عزل هذا الميراث الحضاري الضخم للحضارات الهيلينية والمشرقية والوثنية من الفكر الإسلامي، كما إن مقتضيات مواجهة الفئات المشار إليها للحكومات القائمة كان يتطلب أن تنتهج كل الأساليب والوسائل المتاحة لبرهنة مشروعيتها عملها، ولإرساء قواعد دعوتها وتنظيماتها السياسية بالتنظير لمذاهبها واعتقاداتها وفق المعارف المتاحة لها وبما يتسق مع رؤيتها تحت الإطار العام للفكر الإسلامي السائد. فهذه الحركات كما قلنا سابقا استفادت من التراث الديني اللاهوتي المحلي والذي بدأت تجلياته بموت النبي "ص" وبروز قضية الخلاف حول السلطة والخلافة، حيث يتضح وبصورة جلية استفادة الحركات المعارضة للقوى الحاكمة من التأويل الباطني والاستعانة بالاقتراس من القرآن وأحاديث النبي وصحبه لتحقيق مواقف سياسية نابذة أساسا من مصالح مادية. ومن هنا برزت نظرياتهم في التأويل والإمامة. يقول حسين مروة في ذلك: "إننا لا ننفي أن الفلسفة اليونانية بالتحديد من أهم الأصول الثقافية التي اعتنت بها الفلسفة العربية، لكن هذا الذي ننفيه أن تكون الفلسفة العربية وليدة هذه الأصول وحدها دون الأصل الأم، أي مجتمع العرب الإسلامي الذي ولد فلاسفة العرب فيه، وفيه ولدت فلسفتهم، وفيه عاشت من جديد تلك الأصول الثقافية اليونانية مع مشكلات إنسانية جديدة وقضايا فكرية جديدة في إطار علاقات اجتماعية جديدة".^{٢٣٤}

الخلاصة إن أسلوب الدعوة بلا شك هو نتاج ومحصلة لظروف العصر بمعطياته الفكرية والدينية والاقتصادية والاجتماعية، وهو في النهاية وليد معاناة صعبة وظروف قاسية أفضت إلى أن تتذرع الطبقات المضطهدة بشتى الوسائل في إطار هذه المعطيات لمواجهة خصمها القوي والمتمثل في دولة الخلافة بمؤسساتها الاجتماعية والدينية القوية. وباعتبار أن التفسير الظاهر للدين الإسلامي أو الإسلام السني كان دين الدولة الرسمي اتجه تفكير المعارضين إلى التفسير الباطني للدين الإسلامي للتدليل على مشروعية

٢٣٣ مصطفى غالب، المصدر السابق، ص ٥٤

٢٣٤ حسين مروة الجزء الثاني ص ٤٦

نضالهم، وكما يقول الدكتور محمود إسماعيل: "إن الفلسفة بفروعها المختلفة قد امتزجت بالسياسة واشتبكت على وجه الخصوص بمسألة الخلافة والملك والإمامة فأصبح الإمام الحق شيئاً، والسلطان الغاصب شيئاً آخر"^{٢٣٥}.

وفي مرد ذلك ذكر حسين مروة "وقد كانت الأحداث السياسية والأوضاع الاجتماعية مثارا للحركات الفكرية التي تدخل فيها النشاط الفكري والصراع السياسي والاجتماعي تداخلا عميقا إلى حد أننا نكاد لا نرى حركة فكرية نشأت منذ قيام العهد الأموي إلا ولها أصول وجذور في مجاري تلك الأحداث والأوضاع، بل نكاد نرى بعضا من جوانب هذه الحركة الفكرية أو تلك تتصل اتصالا مباشرا بهذا الجانب أو ذلك في الصراع السياسي أو الاجتماعي."^{٢٣٦}

لقد لجأت معظم الحركات الباطنية إلى العمل السري ومرد ذلك في رأيي أن التشابك الواضح بين الرؤى الفكرية والصراع السياسي والاجتماعي لدى الحركات الباطنية لم يكن ليبرز بشكل علني أمام مؤسسات دولة الخلافة الإسلامية، فكان أن اعتمدت هذه الحركات على التنظيم السري، هذا لا ينفي أن فكرة العمل السري ترتبط لدى بعض الحركات الباطنية كالحركة الإسماعيلية برؤية فلسفية داخل إطار الفكر الإسماعيلي وهي فكرة السر والتقية والتخفي، علما بأن الإسماعيلية لم تبدأ في الظهور للعلن إلا بعد قرن، أي بعد ظهور الأئمة المستورين في المغرب والقرامطة في البحرين.

لقد أعطت هذه الحركات بلجونها للعمل السري ذريعة قوية لدولة الخلافة لإثبات أن هذه الحركات حركات خارجية ومتمردة على الإسلام وعلى الثقافة العربية، فاتهمتها بالزندقة وبالإلحاد، وبأنها تعمل على هدم الإسلام ونشر دين المجوس.

هذا وقد أشرنا قبلا إلى تأثير معطيات ذلك العصر والتي حتمت الربط بين القيم الدينية وقيم العدالة الاجتماعية لإبراز معارضة واعية ومؤثرة ضد دولة الخلافة، وكانت

٢٣٥ محمود إسماعيل، المصدر السابق، ص ١١.

٢٣٦ "حسين مروة الجزء الأول ص ٨٩"

الحركات الباطنية مولودا انبثق من هذه الحاجة، لذا وجب التساؤل عن أيهم أسبق هل كان التنظير الفلسفي سابق للحاجة للسرية أم أن الفكر الفلسفي انبثق من هذه الحاجة.

وقد برهنت كل الوثائق على أن الإتيان بدعوة مذهبية لا ترتبط بالأيولوجية الدينية يؤدي إلى فشلها كما ثورة المبرقع اليماني في عهد المعتصم في العام ٢٢٧هـ.

الفلسفة الباطنية:

كما قلنا سابقا فإن الجمع بين الحركات الباطنية كحركات اجتماعية سياسية والباطنية كفلسفة يبقى حادا في الظاهر، ولكن بتفهمنا للتباين الظاهر بين الحركات الباطنية المصطلح عليها وما يجمعها من وحدة في الرؤية والهدف، مع توافق في الوسيلة المتمثلة في اللجوء إلى باطن الشريعة للموازنة بينها وبين الواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي أفرزه الوضع التاريخي حينذاك ولمعارضة القوى الحاكمة بمؤسساتها.

وفي رأبي فإن الصعوبة تكثف تحديد الفلسفة الباطنية بصورة قاطعة لأسباب عديدة منها: قلة المصادر المكتوبة في هذا الاتجاه والذي نتج أساسا عن كونها حركات سياسية سرية ضد سلطة دولة الخلافة من ناحية، واختلاف الفلسفة نفسها من فئة إلى أخرى من ناحية أخرى، غير أنه ومن المؤكد فإن تلك القوى التي تكتلت في تلك الظروف المتشابهة وبحكم تكوينها الذي يجمع بين صفوفه الحائقين على السلطات القائمة بمختلف أجناسهم ونحلهم، واختلاف ما يحملونه من ثقافات متعددة قد أدى إلى أن تكون الفلسفة الباطنية خليط من موروثة الديانات التي سبقت الإسلام والثقافات المختلطة بها، لذا فإن التشكيلة النهائية للدعوة الباطنية كانت الخلاصة لكل تجارب الأمم السابقة التي عاشت في حدود الدولة العربية سياسيا وعقائديا ومذهبيا كل ذلك داخل الإطار الإسلامي، يؤكد مصطفى غالب ذلك بقوله: "إن فلاسفة الباطنية تركوا آثارا غنية بالفكر والمعرفة في جميع المواضيع التي عالجوها كإثبات الصانع ووحدانيته، والعدل والنبوة والإمامة والمبدأ والمعاد وعصمة الأنبياء... كذلك عنوا بما يتصل بهذه من مباحث عقلية كثيرة

فطوروها ونسقوها ولقحوها بالأفكار الأجنبية الفارسية واليونانية والهندية، واعتمدوا على فلسفات الأمم الأخرى في القرن الثاني الهجري^{٢٣٧}.

ويقال إن الفلسفة الباطنية تقوم على نفس الأساس الذي تقوم عليه فلسفة التنوية، وهي فلسفة تقوم على وجود إلهين قديمين لا أول لوجودهما من حيث الزمان، وربما استدلوا بأيات من القرآن كقوله تعالى "إنا نحن نزلنا" و"نحن قسمنا" وقالوا إن هذه إشارة إلى جمع لا يصدر عن واحد، واستدلوا أيضا بقوله تعالى "سبح باسم ربك الأعلى" إشارة إلى السابق من الإلهين^{٢٣٨} وجعلوا أحد الإلهين علة لوجود الثاني، وسُمي الأول السابق أو القلم أو العقل وسُمي الثاني التالي أو النوح أو القدر أو النفس فالمدع الأول أبدع النفس ثم إن الأول والثاني مدير العالم بتبدير الكواكب السبعة والطبائع الأربعة، وقالوا: إن العقل هو أول الموجودات وقد أشار إليه الله بالقلم^{٢٣٩} وسموهما العقل الكلي والنفس الكلية والتي يقابلها في العالم الدنيوي الناطق والأساس أي النبي والإمام والذي يحيى بعده، وهما مكلفان بتحريك النفس والعقل بالشرائع لتبلغ النفس إلى حال كمالها، وكمالها بلوغها إلى درجة العقل واتحادهما به، وفي اليوم الآخر يحاسب الخلق فتفصل جزئيات الحق بالنفس الكلية وجزئية الباطل بالشيطان أي القدم، وهذا هو الذي يسميه الباطنية البعث ويظهر لنا مما ذكرناه مثل من أمثلة التأويل أو البحث عن المعنى الباطني لعقيدة من العقائد.^{٢٤٠}

وقد أكدوا أن الإمام عليا وصي سيدنا محمد "ص" أساسه وسوسه وأنه صاحب التأويل باعتبار أن النبي صاحب التنزيل فقط، ومثل ذلك ما جاء أن شبت سوس آدم وأن له شريعة باطنة و آدم شريعة ظاهرة، وسام بن نوح أساس لأبيه، وهارون أساس لموسى، وشمعون الصفا أساس لعيسى، المهم عندهم أن الأسس هم أصحاب التأويل بمعنى أنهم أصحاب الشريعة الباطنة الحقة، أما الأنبياء فهم مجرد نطقاء فقط^{٢٤١} لذا زعم بعض منهم بأن الولاية أعظم من النبوة. يقول ابن حزم: إن طائفة من الصوفية ادعت أن من أولياء الله من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل وقالوا: من بلغ الغاية القصوى

٢٣٧ مصطفى غائب، المصدر السابق، ص ٩.

٢٣٨ أيضا ص ٩.

٢٣٩ حسن الفاتح قريب الله ص ١٠٦.

٢٤٠ دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثالث ص ٢٩٠.

٢٤١ محمد المبارك عبدالله، المصدر السابق، ص ٢٢.

من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك وحلت له المحرمات كالزنا والخمر وقالوا إننا نرى الله ونكلمه^{٢٢٢} *

من هنا فإن الإمام وفي كل العصور كان هو المحور والأساس الذي تدور حوله العقيدة الباطنية، وفي سياق ربط ذلك بالواقع التاريخي والاجتماعي ومسألة الخلاف حول السلطة وأهمية الشخصية القائدة والرائدة لهذه المجموعات المناهضة للسلطات القائمة باعتبارها الأمل أو المخلص، فإن مكانة الإمام تحتل هذه المرتبة من الأهمية والقداسة، ولم أجد ما يشير إلى مقصد بإنكار للنبوة، إنما ما يستوجب على الإمام من عصمة وطاعة عمياء فسروها لأتباعهم بالانقياد للشرع في تكاليفه على التفضيل الذي يفضله الإمام حتى ولو كان في حقيقته خارجا عن هذا الشرع ويستدلون على ذلك بالآية " وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ " والآية " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا " ^{٢٢٣} والمتمعن في آية الإسناد المشار إليها يستشعر تماثل المكانة التي منحت لأولي الأمر مع الأنبياء وموجب إطاعتهم بدرجة إطاعة الله والرسول. وفي ذات السياق يستند الإسماعيلية إلى بيت شعر مشهور متداول عن سيدنا علي بن طالب

انظروا أهل بيت نبيكم.....

فالزموا سمتهم..... واتبعوا أثرهم

فلن يخرجوكم من هدى.... ولن يعيدوكم في ردى

فإن لبدوا فالبدوا..... وإن نهضوا فأنهضوا

لا تسبقوهم فتضلوا..... ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا...

مكانة الإمام هذه تقودنا إلى حجر الزاوية في الفلسفة الباطنية وهو التأويل الباطني، والذي يختص به الله والراسخون في العلم، ومن هنا كانت المعرفة بالانتقال الإلهي الممتد عبر الأئمة المعصومين عند الباطنية، والأقطاب وأهل الولاية عند الصوفية،

٢٤٢ محمد المبارك عبدالله، المصدر السابق ص ٢٧.

٢٤٣ سورة النساء الآية ٥٩.

والأئمة من أهل البيت عند الشيعة، وهذه أيضا امتداد لنظرية خارجة على نطاق الدعوة الإسلامية وهي نظرة المعرفة الغنوصية وقالوا: إن كل نبي لشريعته مدة فإذا انصرمت مدته بعث آخر، ومدة شريعة كل نبي سبعة أعمار وأولهم الناطق ثم الصامت ثم الأئمة الستة^{٢٤٤}

ويشير د. الفاتح قريب الله إلى أن الباطنية قد أنكروا ضمنا وجود جبريل وأحاليه إلى عقل يفيض المعارف أو القرآن من السابق بواسطة التالي على الدعوة، وأنكروا أن يكون جبريل شخصا مجسما متركبا على جسم لطيف أو كثيف يناسب المكان حتى يتنقل من علو إلى أسفل. والنبى عندهم هو شخص فاضت عليه قوة قدسية من السابق بواسطة التالي، على أن هذا النبى عندهم أقل مكانة من الإمام.^{٢٤٥} إذ أن القوة القدسية الفائضة على النبى لا تستكمل في أول حلولها ومن ثم كان كمال هذه القوة أكثر تجليا في السابع منه في الأول بل إن النبى عندهم هو أقل أولئك السبعة مكانة إذ يأتي دوره في أسفل السلسلة بعد الأئمة السبعة^{٢٤٦}.

على أن ذلك ليس ثابتا حقا، إذ أن هنالك تعارضا واضحا كما ذكرنا سابقا وتباينا بين الفرق، لذا فإن الكثير من المتناقضات تبرز على السطح حيث نجدهم أحيانا ينكرون الوحي وأحيانا يقرونه، ويجعلون النبى مفضولا مرة ثم يفضلون عليه، على أن الثابت أنهم جميعا لا ينكرون أن مصدر تعليمهم هو الإمام وليس النبى، وقالوا: إن الإمام يستظهر بالحجج والمأثورين والراجحة ودعوا إلى إبطال الرأي والتعلم من الإمام المعصوم.

وقالوا أيضا: إن كلام الله بسيط غير مركب، إذ التركيب من صفات الحوادث ولا تعلق للحوادث بذات الله، وادعوا بأن الله باطني لا ظهور فيه ولعلمهم بذلك يمهّدون لفلسفتهم المذهبية التي تقصر فهم بطون القرآن على الإمام.^{٢٤٧}

٢٤٤ حسن الفاتح قريب الله، المصدر السابق، ص ١٠٦.

٢٤٥ حسن الفاتح قريب الله، ص ١٠٧.

٢٤٦ حسن الفاتح قريب الله، ص ١٠٨.

٢٤٧ حسن الفاتح قريب الله، ص ١٠٩.

وقالوا: إن السابق لا يوصف بوجود ولا عدم، فإن العدم نفي والوجود سببه، فلا هو موجود ولا هو معدوم ولا هو معلوم ولا هو مجهول، وبذا نفوا عنه جميع الأسامي "أي نفي كل ما يوصف أو يشبه به الإنسان" واخذ منهم أعداؤهم ذلك على أنهم يقصدون إلى نفي الصانع بنفي عدمه ووجوده.^{٢٤٨}

ويذكر الغزالي بأنهم اتفقوا على إنكار القيامة وأولوها بأنها رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمن.^{٢٤٩} والوجود عند الباطنية صفة تدل على الحياة والتأثير، وعلى هذه الفلسفة العقائدية يستنون كل مظاهر العمل والعبادة إلى أمور ظاهرية تعبر عن أمر باطني، فالنبي أو الإمام مظهر من مظاهر الله في الأرض وارتقائه إلى هذه المنزلة إنما هو باستكمال صفات أخلاقية جعلته يعبر عن الأمر الواقع ويصل إلى الحقيقة دون غيره.^{٢٥٠}

وقيل عن اعتقادهم في التكاليف الشرعية إن ذلك مما جرت إليه مكانة الإمام المعصوم والطاعة العمياء للأئمة هو تحليل بعض المحرمات خضوعا في ذات الوقت لطاعة الإمام، وقيل إنهم يحللونها على تأويل الآية "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا" وتصل هذه المرحلة عند بعضهم مرحلة طرح الصلاة، والتي تسقط بمعرفة الصلاة ومعانيها وطاعة الإمام يقول الغزالي: "إن المعروف عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحظورات واستحلالها وإنكار الشرائع، إلا أنهم جميعا ينكرون ذلك إذا ما نسب إليهم، وإنما الذي يصح من معتقدهم فيه أنهم يقولون لأبد من الانقياد في الشرع على التفصيل الذي يفصله الإمام من غير متابعة آراء الأئمة الشافعي أو أبي حنيفة وغيرهم وإن ذلك واجب على الخلق والمسلمين إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوم، فإذا أحيطوا من جهة الإمام بحقائق الأمور واطلعوا على نواهي هذه الظواهر انحلت عنهم هذه القيود وانحطت عنهم التكاليف العملية. ويقول محمد المبارك عبد الله في ذلك: "كان لمذاهب الباطنية أسوأ الأثر في المسلمين، فهان على كثير منهم أمر الشريعة التي دلت عليها ألفاظ الكتاب والسنة وتهاونوا في العمل بها

٢٤٨ مصطفى غالب، المصدر السابق، ص ٣٩.

٢٤٩ الغزالي، المصدر السابق، ص ٤٦.

٢٥٠ الشهرستاني، الملل والنحل، ص ٥١.

واعتمدوا في نصره الدين والتحرر من الذل على ظهور صاحب الوقت^{٢٥١}. ويقول ابن حزم: "إن طائفة من الصوفية ادعت أن من أولياء الله من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل، وقالوا من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الزنا والخمر وغير ذلك واستباحوا بهذا نساء غيرهم وقالوا إننا نرى الله ونكلمه^{٢٥٢}".

ويؤكد الدكتور عبد القادر محمود ذلك بقوله: "إن طرح العبادات لها طقوس معينة تبدأ أولاً بطرح الصلاة ومعانيها ثم تنتهي بتحليل المحرمات خضوعاً في نفس الوقت لطاعة الإمام. أمر آخر أشد من ذلك هو قولهم: إن الجنة الممثلة بالحدود العينية قائمة في الدنيا قبل الآخرة وهي للمريدين واقعة ليالي الإفاضة أو المشهد الأعظم "إذا جن الليل دارت الكؤوس وحميت الرؤوس وأحضر جميع أهل الدعوة الملعونة حريمهم ونساءهم وتطفأ السروج والشموع ويأخذ كل منهم ما يقع في يده^{٢٥٣}".

هذا وعلى الرغم مما قيل عن الحركات الباطنية والمحاولات التي جرت لتسويةها وفصلها عن الواقع الاجتماعي لذلك العهد، ثم محاولة إثبات مروقها عن الإسلام وعمايتها للديانات السابقة التي تأثرت بانتشاره، فإن هذا البحث يحاول إثبات أن الحركات الباطنية خرجت من رحم الواقع في المنطقة العربية آنذاك بإرثها التاريخي، ومكونها العربي الإسلامي كمكون رئيسي، وأن عقائد الباطنية لم تخرج عن المبادئ الأساسية للإسلام وهي توحيد الله وتنزيهه ونفي الإشراك به، ثم الاعتراف بالأنبياء والرسل وأنهم معصومون من كل خطأ وأن محمداً خاتم الأنبياء والمرسلين.

كما أن الكثير من المؤرخين يثيرون الشك حول ما قيل عن الإباحية وليالي الإفاضة باعتبار أن ليس هنالك دليل على وقوعها، ويقول مصطفى غالب: "إن هذه من أساليب الخصوم في الطعن بمبادئ الحركة فهم أقرب إلى النزهاء والنسك منهم إلى الإباحية

٢٥١ محمد المبارك عبداً، في التصوف، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الخرطوم، ١٩٧٧م، ص ٦٧.

٢٥٢ ابن حزم، المصدر السابق، ص ٩٧.

٢٥٣ عبد القادر محمود، المصدر السابق، ص ٢٤.

والخلاعة والمجون وإباحة نكاح الفتيات والأخوات، وليس ما نادوا به عبارة إباحة الجماع بل قصد به أن للمرأة ما للرجل من الحقوق والواجبات العائلية^{٢٥٤}.

وقد نفى تهمة الإباحية التي وصمت بها هذه الحركات من الكتاب المعاصرين كل من محمود إسماعيل ومصطفى غالب وحسين مروة. والواقع أنه وبمنظرة محايدة ومنصفة إلى ذلك العصر والكتاب الذين أرخوا لتلك الفترة والذين وصفناهم سابقا بمؤرخي الدولة، ومحاولاتهم لتسوية هذه الحركات الثورية ووصفها بالخروج عن الدين وعن الجماعة، فإننا نخلص إلى أن سلاح التصدي لمثل هذه المزاعم عبر التشكيك في الدين والأخلاق يبقى أمرا واردا^{٢٥٥}.

إلى جانب ذلك فإن الدعوة الباطنية بتجربتها الرائدة وتنظيمها الفاعل استفادت من معطيات ذلك العصر، فأفرزت رؤية ثورية شاملة مستفيدة بذلك مما تراكم لديها من إرث شامل لثقافات وافدة وأديان سابقة وتراكمات محلية، فكان أن برزت لديها بعض المفاهيم المتقدمة كدعوتها واتجاهها نحو المساواة ومفارقة العصبية وإبطال الملكية الخاصة والمساواة بين الجنسين.

خلاصة الأمر فإن هذه الحركات كحركات اجتماعية وثورية ضد سلطة الخلافة الإسلامية وليس ضد الإسلام، كان لابد لها من فكر يقود مسيرتها، فكر نابع من الإسلام نفسه، فكانت الدعوة الباطنية وفلسفتها هذه والتي تركزت عمليا في القول بالظاهر والباطن والتأويل وإبطال الرأي والقياس في كل أمور الدين، ووجوب الأخذ والتعلم والاسترشاد بالأئمة، وجعلوا ولاية الإمام ركن أساسي من أركان الدين، مما يؤكد الاتجاه السياسي لهذه الحركات وارتباط حركتها بالسلطة السياسية والدينية.

هذا وقد لاقت الدعوة الباطنية قبولا كبيرا ونجاحا هائلا بحسبانها حركات ثورية اعتمدت الفكر القائم على الأيديولوجية الدينية، والمعارضة المسلحة لدولة الخلافة، والتي كان لها أبرز الأثر في زعزعة سلطة دولة الخلافة، وقيام الكثير من الدويلات على أثر معارك ضارية مع الدولة في بلاد المغرب والبحرين واليمن وبلاد فارس ومصر.

٢٥٤ أنظر مصطفى غالب، المصدر السابق.

٢٥٥ وفي واقع الأمر فإن الصراع لا زال مستمرا وتمحور بأشكال عديدة وطرق مختلفة بل إن الصراع بين أهل الظاهر المتمثل في الوهابيين " وهم في المودان أنصار السنة المحمدية " وأهل الباطن من الشيعة والمتصوفة أصبح بارزا بحيث لا زالت ذات الاتهامات تحيق بهم حتى اليوم.

الإسلام الباطني في السودان

لقد تتبعنا في الفصل الأول من هذا البحث مسيرة الهجرات العربية ودورها في نشر الديانة والثقافة العربية في السودان، وتطرقنا إلى حقيقة أن سيادة العرب اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا أوجدت فاعلية للاتصال اكتملت بتبني السكان المحليين للثقافة العربية الوافدة. إن نجاح الثقافة العربية الإسلامية في التغلغل لا يعني سيادة تعاليم الشريعة الإسلامية بمنظورها الظاهري أي ما درج على تسميته بالإسلام السني، وقد ميزنا ذلك بإطلاق مفهوم الإسلام الشعبي. ونستطيع القول بأن هنالك عاملين رئيسيين كان لهما أكبر الأثر في تشكيل هذه الثقافة الدينية التي سادت، أولهما هو طبيعة المهاجرين الذين نقلوا الإسلام إلى السودان، والثاني هو أن الإسلام على وجه الشريعة لم يكن ليتمشى والواقع المعيشي لمجموع السكان المحليين. فكانت السيادة للإسلام الباطني أو الحقيقة بحسب المعرفة الباطنية. تبني الإسلام الباطني تم في شكل طرق وطوائف أساسها تصوف شعبي محلي يجمع بين التعاليم الإسلامية الأولية مع إرث الثقافات المحلية والإرث العربي الوافد بمكوناته المتعددة.

والواقع أن ظروف الأمية والجهل والتخلف والركود الفكري في السودان حال دون أن يكون انتشار الإسلام الباطني قائم على رؤية فلسفية، كما هو الأمر لدى المتصوفة العرب الأوائل كأبي الحسن البصري والحلاج وابن عربي، والتجارب الفكرية الرائدة والتي انعكست نجاحا وانتشارا تدريجيا للإسلام تم على مراحل مختلفة، ابتدأت بسيادته أولا على وجه الشريعة في عهد النبي "ص" ثم تعرض بعد ذلك لاجتهادات العلماء، ومحاولات الأئمة للقياس بهدف سد بعض النواقص في الشريعة، ثم تطور ذلك بالفتح الإسلامي وتكوين الإمبراطورية العربية الممتدة إلى آسيا وأوروبا، ومن ثم تلاقح واستفادة الثقافة الإسلامية العربية من رواسب الأفلاطونية الحديثة والفلسفات اليونانية والهندية ومخلفات اليهودية والمسيحية. كل هذه عوامل ساعدت على أن تكتسب الثقافة الإسلامية في دولة الخلافة الإسلامية عمقا فكريا وفلسفيا أدى إلى ظهور المدارس المختلفة والحركات المتعددة ومن ضمنها فلسفة الصوفية. هذه الظروف لم تتوفر في السودان،

فالإسلام دخل منذ البداية على وجهه الباطني محملا بما توافر له من تلاحق معارف مختلفة ومتعددة وأحيانا كثيرة متباينة.

كذلك فإن الإسلام الباطني في السودان لم يكتسب مظهرا ثوريا كما كان الحال في الإمبراطورية الإسلامية في فترتي العصر الأموي والعباسي، حيث كان لتفاقم مشاكل الأقليات العنصرية، وازدياد حدة الشعور لدى البعض بالدونية الاقتصادية والاجتماعية تأثيرا محوريا انعكس بوضوح في حركات مناهضة للسلطة كالقرامطة والإسماعيلية والبابكية.

لقد جاء انتشار الإسلام الباطني في السودان متسقا مع واقعه الاقتصادي والاجتماعي، إذ أن اعتماد معيشة السكان على نمط الإنتاج الاكتفائي الخالي من الصراعات الطبقيّة البائنة، والذي يستند في علاقاته على الوحدة الاقتصادية للقرية، كان ملائما للتشكيلة الوافدة من الإسلام الباطني، وقد كان أن تشكلت جموع المنضمين للديانة الجديدة كفرق وطرق تدين بالولاء والانتساب لشييوخها، والتي تمثلت في الطرق الصوفية المعتدلة، أي غير المغالية إلا فيما يختص بإضفاء القداسة على الشيوخ ومنحهم القدرة على فعل المعجزات والكرامات، وهو فعل يتسق مع واقع ذلك العصر وروحه. لقد حفل التاريخ الإسلامي بدلالات انتشار هذا الشكل "أي الولاية الشعبية المعتمدة على المعجزات والكرامات". بين أمم عربية أخرى كالمغرب ومصر وغيرها، فطبقات الشران المدون المصري وما تحكيه من تراجم للأولياء والصالحين هي صورة طبقة الأصل لما سرده علينا ود ضيف الله في طبقاته.

إن صبغة الاعتدال التي اتسم بها الإسلام الذي انتشر في السودان كان نتاجا طبيعيا لتزاوج الثقافة الإسلامية بالإرث المحلي، واستجابته في ذات الوقت للتعليم الفقهي خاصة فيما يتصل بالمبادئ والتعاليم الأولية، لذا فإن الإسلام الذي ساد كان سهلا تكيف مع واقع حياة الناس كما تكيف هذا الواقع معه. وكانت بعض المفاهيم التي ارتبطت بالإسلام الباطني كمفهوم الحقيقة المعبرة عن شفافية الصلة بين العبد والرب، وعدم الاهتمام أو الارتكان إلى المظهر الخارجي تتسق مع نمط وثقافة حياة السكان وتعبّر عن تطلعاتهم.

ونخلص إلى أن الإسلام الشعبي في مسوغاته المستمدة في عمومياتها من الرؤى الباطنية والذي ساد بين جموع السكان قد اعتمد اعتماداً تاماً على المعرفة الفردية المكتسبة للشيوخ من واقع التعليم السائد وواقع البيئة. هذا وقد تمثل الإسلام الباطني في السودان في الطرق الصوفية المعتدلة، والطرق الصوفية المغالية كالملامتية ومن لف لفهم، إلى جانب أمثلة فردية كانت لها فلسفتها الخاصة بها.

الطرق الصوفية في السودان:

أول طريقة دخلت السودان هي الشاذلية، ويقال إنها دخلت قبل قيام مملكة الفونج على يد الشيخ حمد بن أبي دنانة، غير أنها لم تنتشر إلا على زمن الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن والشيخ حمد بن المجنوب، ثم وفدت بعدها الطريقة القادرية والتي دخلت على يد الشيخ تاج الدين البهاري في العام ١٥٧٧م. وقد تفرعت منها بيوتات دينية كثيرة سميت بأسماء شيوخها كالصادق على الشيخ محمد بن عبد الصادق واليعقوباب على الشيخ بان للنقا الضرير والعركيين على مسمى الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي... الخ.

وكما قلنا سابقاً، فإنه لم يكن هنالك قالب فكري أو فلسفي للتصوف في السودان، وقد رأينا فيما سبق ذكره عن نوعية الإسلام الذي انتشر في السودان اعتماداً للتصوف على شخصية الشيخ أو الولي، والتي تكتسب مكانة تصل بها إلى حد التحول إلى شخصية هلامية تتكون وتتضخم في الخيال الشعبي لها المقدرة على صنع المعجزات وخوارق العادات. وقد أورد يوسف فضل^{٢٥٦} الأسس العامة للتصوف في السودان والتي تركز على أربعة مركات أساسية تتمثل في:

أولاً : اعتبار النوافل في مرتبة أعلى من الفرائض.

رابعاً: إن النية أفضل من العمل.

ثالثاً : إن التأمل خير من العبادة البدنية.

رابعاً: إن الشريعة مجرد رمز للعبادة الصحيحة.

٢٥٦ يوسف فضل، تحقيق طبقات ود ضيف الله، ص ٧

هذا الفهم الصوفي للإسلام ارتكز على الولي أو الشيخ، فأصبح التعليم والتعلم منه والانتقاد في الشرع على تفصيله، والولاء والطاعة العمياء له موجب من موجبات الانتماء للطريقة، ويمكن القول بأنها وفي عمومياتها صدق أو نتاج للمفاهيم التي سادت الفكر الباطني في نهجه المستند إلى المعرفة بالانتقال الإلهي الممتد عبر الأولياء والصالحين. وقد جسد إسماعيل صاحب الربابة هذه المعرفة الباطنية فيما ذكره في مخطوطته بأنها "ملازمة ذكر الله باللسان تمييز للمعرفة بمعناها الحقيقي، فإذا وصل السالك إلى المعنى الحقيقي صار وجود الخلق عنده كالعدم المحض، فلم يشاهد منهم دفع مضرة، ولا جلب مسرة، فيدبر عنهم ويقبل على الله^{٢٥٧}". ويذكر أيضا: إن الأولياء مواجهون بالخطأ الوافر من الحقيقة، والحقيقة في محلها شريعة بل أعظم من الشريعة لأن الشريعة فرع والحقيقة أصل. لذا صرح سبحانه وتعالى بعدم العقاب للأولياء. ويستطرد في شرحه لهذه المفاهيم بقوله: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولو قتلوا النفس بغير حق فمغفور لهم، لأن الولاية لا ينافيها إلا عدم الإيمان فمخالفة الشريعة لا تضر بأهل الحقيقة لأنها سقطت عنهم".

هذا ويقسم صاحب الربابة للتصوف إلى ثلاثة أنواع: الأول باطنه صوفي وظاهره شرعي وهو أدنى مراتب التصوف، لأنه يعرفه العام والخاص فلا ينكر عليه أحد، والثاني باطنه صوفي وظاهره صوفي وهو أعلى من الأول لأنه لا يعرفه إلا الخواص وأما العوام فينكرون عليه لأجل جهلهم بحاله، والثالث باطنه صوفي وظاهره بدعي وهذا أعلى درجات الصوفية لأنه لا يطلع على معرفته أحد من الخواص والعوام إلا خواص الخواص^{٢٥٨}.

الملامتية:

وهؤلاء كما يقول ود ضيف الله طائفة من الصوفية تفعل اللوم وتخالف الشرع، فتتكر الخلق عليهم، بعضهم يعطب المنكر عليهم وبعضهم يقصد إنكار الخلق عليهم هضما للنفس وازدراء لها خوف الشهرة، كالشيخ إبراهيم الخواص فإنه يسرق لباس

٢٥٧ مخطوطة إسماعيل صاحب الربابة، ص ٥

٢٥٨ أيضا، ص ٣

الناس وهم في الحمام فيلبسها تحت جبتة حتى يطلع عليه الناس ويضربونه ويأخذوها منه^{٢٥٩}.

هذا ومن الملامية في السودان الشيخ إسماعيل مكي الدقلاش صاحب الربابة، والشيخ سليمان الطوال الزغرات والشيخ بان النقا بن عبد الرازق النقر والشيخ محمد الهميم.

وتحكي لنا الطبقات الكثير من القصص الدالة على إسقاطهم للكثير من أحكام الشريعة فالشيخ محمد الهميم بلغ عدد نسائه تسعين امرأة، وجمع بين بنات الشيخ بان النقا كلثوم وخادم الله، كما جمع بنات أبونودودة في رفاة وغصب خادما هول ناس أربجي زريقة حسبها سرية^{٢٦٠}. وها هو سليمان الزغرات يغصب جارية من أهلها تضرب له الدلوكة اسمها منانة.

ويطرح الشيخ إسماعيل هذه الممارسات باعتبارها رؤية فلسفية محضة تتماثل وأعلى مراتب الصوفية، لأنهم يتعاملون مع الدنيا كالعدم المحض إرضاء للخالق. وربما ترى من بعضهم أفعالا كأفعال الكفر وذلك ظاهرا لا باطنا ويقول: " قيل للجنيذ: هل تعلم أن الولي يزني؟ فقال: نعم، قيل: كيف تتصور أن الولي يزني؟ فقال وكان أمر الله قدرا مقدورا^{٢٦١}."

ويخلص الشيخ إسماعيل صاحب الربابة إلى تصوير ذلك شعرا بقوله:

إذا شاهدت منهم من منكر

ففي الأقدار أخيارا صحاحا

فلا تنتقص مراتبهم بذلك

ولكن ربما حصل الإماما

٢٥٩ طبقات ود ضيف الله، ص ٣١٧. وهي رؤية فلسفية قام عليها الإسلام الباطني فالحلاج كان يذهب إلى الأسواق والمساجد ليستعدي عليه الناس ليقتلوه وقد بلغ ذلك حد إشهار الكفر كما جاء في أبيات له:

ركبت البحر وانكسر السفينة
ولا البطحا أريد ولا المدينة

إلا أبلغ أحبائي بآني
ففي دين الصليب يكون موتي

٢٦٠ أيضا ص ٣١١.

٢٦١ مخطوطة صاحب الربابة ص ٣.

ولا تدري من يأتي البهائم

وقد قالوا أرائته النكاحا

فهذا كله حجا وحفظا

على الأسرار من فرط الإباحا

فسلم أمرهم لله خوفا

من العطبات أو سوء النجاما

وأرضى بالذي تأخذ منهم

وجد منهم بتكثير المداحا

الا تدري من ينكر عليهم

فخربت داره رهبا وراحا

إن هذه الصورة الشعرية البليغة تجسد تصويرا بليغا للمفاهيم والممارسات السائدة المستندة إلى الدين، والتي كانت تمارس من قبل الشيوخ والأولياء وهي أيضا توضح لجوئهم لإسناد كل فعل ظاهر إلى رؤية فلسفية وتجرد انتصارا للحقيقة. ونستبين من هذه الأبيات ما ساد من مفاهيم متصلة بالضرر الذي يلحق من يخالف هؤلاء الأولياء.

إن مجمل ما ذكرناه من اتجاهات وتوجهات تعطينا مؤشرات هامة لتواصل وثيق الصلة بين المظاهر السلوكية المتعددة للحركات والفرق ضمن الإسلام الشعبي، وما سوف نوضحه من سلوكيات نسبت للزبالعة.

اتجاهات فردية:

بدراسة متفحصة للطبقات نجد أن هنالك بعض الاتجاهات المنفرقة التي تتميز بنهج منفرد، والشيخ حمد النحلان أحد هؤلاء لانتهاجه منهجا واضحا أساسه الزهد في الدنيا. وقد بدأ ذلك بدخوله الخلوة وامتناعه عن الطعام والشراب والامتناع عن النوم والاختلاط مع الناس لمدة اثنين وثلاثين شهرا، خرج بعدها أكثر زهدا في الدنيا، وكان نتاج ذلك خروجه عن النمط التقليدي السائد الذي تقوم عليه المؤسسات الصوفية والتي تطرقنا لها بالوصف في الكثير من المواضيع في هذا البحث، فالشيخ حمد النحلان لم تكن له زراعة

ولا تجارة، على الرغم من أن امتلاك الشيوخ أو الأولياء لأراض واسعة وتجارة كانت من أهم مميزات المؤسسات الصوفية في ذلك الوقت حيث كان للشيوخ أراض زراعية يقوم على فلاحتها والعمل فيها المريدون والأتباع. كما أن الشيخ حمد النحلان لم يكن يقبل الهدية ولا الجاه ولا الشفاعة لدى السلاطين، وقد تعددت مواقفه الراضة للمفاهيم والسلوك السائد وصلت حد إشهار مواقف نقدية لمظاهر الثقافة الدينية الصوفية في ذلك العهد، فهو عند بداية خروجه من الخلوة نهى عن الزبلعة^{٢٦٢} وأمر بسلوك الطريق القويم، وقد انتقد الأوضاع التي كانت سائدة والتي تمثلت في مؤسسات الشيوخ نقدا صريحا ولاذعا في قوله للفتية إدريس بن الأزرق شأيل أربجي أخوانك الفقرا الشيخ ينبج لهم، ويكرعوا في الحلقة عاع عاع أهانوا الدين الله يهينهم^{٢٦٣}

والشيخ حمد النحلان سلك مسلكا يبرهن تأثره بالفلسفة الشيعية برزت في إدعائه بأنه المهدي المنتظر عند ذهابه إلى مكة. ويبدو أن إيمانه القوي وتوجهاته للفلسفة البائنة، والتي برزت في زهده وتقشفه أعطاه إحساسا بالتحالي والتفوق فقد سبق إدعائه المهدية تصريحه برؤية رآها إذ يحكي بأنه رأى نفسه يعرج إلى السماوات السبع، وقد اعترف بنفسه أنه كان يعتقد بأن تلك رسالة النبوة لولا أن محمدا هو آخر الأنبياء.

وبمقارنة اتجاهات الشيخ حمد النحلان مع فلسفة الملامية نجد أن فلسفة الملامية يبدو فيها زهد في الدنيا ظاهري غير حقيقي بحسبان ما يشاع عنهم، إذ أن كافة تصرفاتهم تنحى منحى تحقيق رغبات دنيوية إمتاعا للجسد، كالطرب والرقص وتعدد الزوجات وامتلاك السراري واعتصابهم، بينما يبدو زهد دنيوي حقيقي وإيجابي لدى حمد النحلان تمثل في زهده في متاع الدنيا مع تمسكه بموقف نقدي ثابت تجاه ما يراه مخالفا للدين.

خلاصة القول إن ما ذكرناه في هذا الفصل والفصل الأول هو محاولة لفهم حركة كحركة الزبلعة ضمن سياقاتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية وليس بمعزل

٢٦٢ وهو هنا يصف كل ما ساد من فهم للإسلام الصوفي بالزبلعة، سيتضح لنا تفاصيل ما أشار إليه لاحقا عند الحديث عن الزبلعة.
٢٦٣ أنظر طبقات ود ضيف الله.

عن المؤثرات الثقافية التي تأثر بها الفهم الديني في تلك المرحلة من تاريخه والتي تتمثل في الثقافة والدين الإسلامي بفرقه المختلفة، والتي ارتكزت في الأساس وعلى وجه الخصوص في السودان على الفهم الباطني للشرعية الإسلامية. لذلك كان لابد من التأسيس لذلك عبر عرض موجز لما ساد من ثقافة دينية وتبيان جوهرها ومظاهرها وماهية جذور هذه المظاهر، وماهية المؤثرات التي شكلتها سواء على المستوى المحلي أو ما وفد منه ليتلاقح محليا.

أهمية استعراض معطيات هذا الواقع تنأتى أساسا من أن الإسلام الذي انتشر في السودان برزت فيه بشكل واضح العديد من المؤثرات، على وجه الخصوص مؤثرات الإسلام الباطني وليس الإسلام على وجه الأحكام الشرعية كما يراها أهل السنة أو للظاهر. وقد رأينا ونحن نحاول تشكيل صورة ذهنية لهذا الإسلام الذي ساد كيف أن محاكاته للاتجاهات والسلوكيات المرتبطة بالفكر الباطني كانت مؤثرات هامة، دون أن تحمل رؤى فلسفية أو مؤثرات سياسية كما هو الحال بالنسبة للحركات الباطنية التي نمت في حدود الدولة العربية الإسلامية والتي ألمحنا إلى بعض منها في مقدمة هذا الفصل..

عوامل كثيرة من بينها الجهل والتخلف وسيادة جو مشحون بالغيبيات والامتنال لظواهر الأشياء أكثر من جوهرها كانت وراء التأثير الهامشي للإسلام الباطني في السودان بالفلسفة والرؤى الباطنية والتي تطرقنا إلى أهم مداخلها عند حديثنا عن الفلسفة والفرق الباطنية في مطلع هذا الفصل. فكان أن ساد إسلام صوفي محلي له نكهته وكيونته الخاصة يركز في ظاهره على السلوكيات - مسلك طريق القوم - والتصرفات أكثر منه موجهات العقيدة وتعاليمها التفصيلية.

لقد أوضحنا في هذا الفصل كيف أن أي حركة دينية أو اجتماعية كان لابد من أن ترتبط بالواقع المعيشي الاجتماعي والاقتصادي في السياق التاريخي والمكاني المحدد. وأن ما تحمله من رؤى هي نتاج بلا شك لمؤثرات ثقافية تشكلت في رحم هذا الواقع، هذا الفهم بقدر ما يفسر ويوضح عدم قابلية تطبيق الإسلام على وجهه الشرعي، فإنه أيضا يؤشر إلى حقيقة فشل أي رؤى فلسفية وفكرية صارمة في التطبيق كما هو الحال مع الفكر الباطني. هذه المعطيات تتماثل بلا شك فيما نحن بصدد البحث عنه، إذ يقودنا

بلا شك إلى تأكيد أن حركة الزبالعة لم تكن شيئاً مستورداً بل هي حركة قامت وتأثرت بما حولها من محيط، واستقت المظاهر الخاصة بها من واقع معاش. واستفادت من الإرث الذي تشكل عبر التاريخ والمرتبط بالديانات المتعاقبة والمعتقدات المحلية والديانة الجديدة الوافدة عبر الهجرات المختلفة، ونوعية هذه الهجرات وما تحمله من رؤى وأفكار وتصرفات تتلاقح لتنمائل مع الواقع المعيشي والثقافي.

إن استقاء حركة الزبالعة لمظاهر ديانتها من واقع متعدد ومختلف، وفي ظل ظروف افتقرت إلى العلم والتعليم يجعل إسنادها لرؤى فكرية أو رؤى فلسفية أو دينية يفتقر إلى الحكمة والواقعية، إلا أن هذا لا ينفي أن للحركة طابعها الخاص بها والذي جاء متطابقاً ومعبراً عما تجمع لديهم من خبرات وتجارب. يسند قولنا هذا الطبيعة القاسية للمكان والزمان الذي برزت فيه الحركة، ومحدودية العلم والمعرفة، ومحدودية الانفتاح على مدارك العلم والتعلم المختلفة.

حركة الزبالعة

الزبالعة:

سوف نفرّد هذا الفصل للتحديث باستفاضة عن كل ما تجمع لدينا من معلومات حول جماعة الزبالعة لب مبحثنا الأساسي، وسنتحدث عنها كظاهرة من الظواهر المتصلة بالإسلام الشعبي الذي انتشر في السودان. هذا ويمكن للقارئ أن يلاحظ أنني كنت أسعي من خلال هذا البحث إلى تحري الواقع الاجتماعي والثقافي السائد وربط وتفسير حركة الزبالعة ضمن هذا الواقع. لم استند فقط على ما شاع ويشاع عنهم، إنما سعيت إلى تفسير ذلك وتحليله ضمن الواقع المعاش. وقد حاولت أن يكون التسلسل منطقياً لذا كان حديثي عن كيفية انتشار الإسلام في السودان ونوعية الإسلام الذي انتشر في السودان في وصف تحليلي الهدف منه هو تكوين صورة ذهنية منطقية لشكل ونوعية هذا الإسلام، ثم تطرقنا إلى الإسلام الباطني. وفي هذا الفصل يجيء الحديث عن حركة الزبالعة متسائلاً وربطاً للحركة بالواقع ومن ثم تحديد إلى أي مدى يمكن أن تكون حركة كالزبالعة حركة مارقة، أو حركة طبيعية ومتوقعة ضمن الإطار العام للإسلام الباطني الذي انتشر في العالم الإسلامي، والإسلام الباطني أو على وجه الدقة الإسلام الشعبي الذي انتشر في السودان، وهل حركة الزبالعة خارجة من رحم ثقافة المجموعة أم أنها حركة غريبة عنها ودخيلة عليها؟

كما سننتطرق في هذا الفصل إلى كل ما توفر لدينا من معلومات متصلة بحركة الزبالعة، ويشمل ذلك بداية نشأتها، تاريخها ومرجعيتها، والأسماء التي أطلقت عليها، ثم معتقداتهم وممارساتهم، والرأي الشعبي حول الجماعة وكل ما قيل ويقال عنهم، وتتبع كل ذلك حتى الوقت الحاضر^{٢٦٤}.

٢٦٤ الوقت الحاضر المذكور محدد بتاريخ إجراء هذا البحث في النصف الأول من الثمانينات.

الكلمة زبالعة:

يقول د. عون الشريف قاسم: إن كلمة زبلعة وردت أكثر من مرة في طبقات ود ضيف الله "أمر الناس بالتوبة والاستغفار وترك الزبلعة وسلوكهم الطريق" والزبلعة هي اعتقاد الزبالعة أو أهالي أبي جريد. ويشير ود ضيف الله إليهم كهننة وسحرة، ويقايا هذه المجموعة ما تزال في منطقة سنجة وكركوج^{٢٦٥} وفي تحقيق إبراهيم صديق لكتاب طبقات ود ضيف الله ذكر: "إن الزبلعة هي عدم الاستقامة والشعوذة، واستعمال التكنهن، وسلوك الطريق التي لا ترضي الله سبحانه وتعالى بترك أوامره واجتتاب نواهيه، ولفظة الزبالعة الشائعة على السنة الناس من هذا الوادي "ومن الشائع" قوم أبو جريد، وهم فساق يعملون المناكير ويبيحون الفحشاء مع النساء، وكذلك من الشائع العكلية^{٢٦٦} وهم قوم بغاة غصاب خارجون عن طاعة الحكام في السودان شأنهم النهب والله أعلم^{٢٦٧}.

أما د. يوسف فضل فقد عرفها في تحقيقه للطبقات بقوله: "الزبلعة هي الشعوذة أو الهرطقة، والزبالعة هم جماعة أبي جريد الخارجون على الدين"^{٢٦٨}. وقد ورد في المخابرات^{٢٦٩} "أن الزبالعة وتعني المخادعين كما ينادونهم" وقد أوردتها هيلسون أيضا بهذا المعنى إذ قال "جماعة أبو جريد يعرفون بالزبالعة من زبلع أي مخادع أو غبي"^{٢٧٠}.

ومن ناحية أخرى فقد استعملها نعوم شقير كاسم لقبيلة أو مجموعة قوم^{٢٧١}. كما استخدمها في السياق ذاته عبد المجيد عابدين الذي قال "الزبالعة طائفة أو قبيلة، ووصفها البعض بأنها شعبة خاصة عرفت بالملة الخامسة"^{٢٧٢} لادعائهم نبوة أبي جريد، ووصفها

٢٦٥ د. عون الشريف قاسم، قاموس اللهجة العامية في السودان، ص ٣١٥،

٢٦٦ عكلية تشير إلى الشخص الذي يعتقد فيه نفسه الدهاء والسطارة والذي يصعب التخلص منه.

٢٦٧ إبراهيم صديق، تحقيق طبقات ود ضيف الله، ص (٦).

٢٦٨ يوسف فضل حسن تحقيق طبقات ود ضيف الله ص (١٦٢)

٢٦٩ مخابرات ٢٧٠/٣٢/٢ دار الوثائق المركزية

٢٧٠ Hilleson, J. r., the people of abu jarid, SNR, KAHARTOUM, 1918, PP 175.

٢٧١ نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، بيروت، ص ١٩ .

٢٧٢ الملة الخامسة أو الخمسية تعني مخالفة المذاهب الأربعة التي يتفق عليها المسلمون.

آخرون بأنها كغيرها من الفرق لا تؤمن برسالة أو نبوة لغير سيدنا محمد، وكل ما يميزهم عن غيرهم أنهم طائفة غير مالوفة لدى عامة الطرق في السودان^{٢٧٣}.

ومن أقوالهم السماعية الآن أنهم سموا زبالعة لأن حلقات الذكر كانت مقترنة بالإباحة والمجون، إذ كانوا في ليالي الذكر يواقعون النساء دون فرض أو حدود، يواقعون الأم والأخت وبنت الولد، وقيل أن كلمة زبلعي تعني سفيه.

وقد ورد في طبقات ود ضيف الله في ترجمة حمد النحلان "عن أن امرأة في حلقته اسمها عبادة، قالت الرجل هذا يحدثونه الزبالعة بالواقع ويقول أنا بكاشف". فمن الشائع الآن في استعمال كلمة الزبالعة القول إن فلانا أو علانا من الأولياء له زبالعة، أي أنه يمتلك جن أو قوى خفية تساعد، وتلبي له طلباته وتخبره عن المكنون، ومن الشائع السفلي. هذا الاستعمال الشائع الآن يطابق قول المرأة عبادة بأن حمد له زبالعة يحدثونه بالواقع. وفي تفسير ذلك فإن ما قيل عن زبالعة حمد يحتمل عدة احتمالات هي أولاً: الزبالعة من الأنس وهم جماعة أبي جريد، ثانياً: الزبالعة يعنى بها جن أو قوى خفية تكاشفه. ويبدو أن الرأي الثاني هو الأرجح لأنه إذا كان للشيوخ حمد النحلان اتصالات بأشخاص من الزبالعة المنتظمين في سلك أبي جريد فأن هذا لم يكن بأي حال من الأحوال ليخفي عن أعين الناس، خاصة وبمقارنة ذلك مع ما ذكر في ترجمة حمد النحلان عن أنه وبعد خروجه من خلوته "تهى عن الزبلعة وأمر بسلوك الطريق القويم".

وهذا الاستعمال يؤكد الرأي الشائع الآن من أن المقصود بالزبالعة الجن أو السفلي^{٢٧٤}. والرأي الشعبي السائد حالياً عن جماعة أبي جريد أو الزبالعة كما هو شائع في المنطقة حول سنجة ومنطقة الجزيرة يعني التعامل مع مجموعة تتعاطى السحر بواسطة قوى خفية هي الجن أو السفلي "ويسمونهم في اللغة الدارجة بالخدام".

٢٧٣ عبد المجيد عابدين، تاريخ الثقافة العربية في السودان: منذ نشأتها إلى العصر الحديث، دار الثقافة الخرطوم ١٩٧٦، ص ٦٥
٢٧٤ السفلي يعني بها قوة خفية غيبية وهي الجن والجن نقيض للملائكة من حيث التكوين فهم من مارج من نار "الآية" وصفتهم أنهم حيوانات هوائية تتشكل بأشكال مختلفة وتقول أساطير العرب أن الجن هم سكان الأرض قبل النوع البشري.

وهذا يطابق ما ذكره د. عون الشريف عن أن ود ضيف الله يشير إليهم بأنهم كهنة وسحرة^{٢٧٥}، وسوف يتضح لنا ذلك بصورة أكثر جلاء فيما سيأتي من حديث حول معتقداتهم والرأي الشعبي حولهم.

وقد أورد المقريري ما يشير إلى وجود الزبالعة في مصر في فترة سابقة على الرغم من أنني لم أجد ما يشير إلى مقصد المقريري من الكلمة وهل تعني ذات المعنى في السودان أم أن المقصود بها أسم قبيلة إذ قال: "كان فيه أديرة كثيرة خربت وبقي منها بقية فكان بالمقس خارج القاهرة من بحريها عدة كنائس هدمها الخليفة الحاكم بأمر الله أبو علي منصور الفاطمي في ١٩ ذو الحجة سنة ٣٩٩ هـ.... ثم يقول: وكان في ناحية أبي النمرس من الجزيرة كنيسة قام بهدمها رجل من الزبالعة لأنه سمع أصوات النواقيس يجهر بها ليلة الجمعة بهذه الكنيسة^{٢٧٦}"

من هنا فإن كل ما ورد عن كلمة الزبالعة يمثل جزءاً من المعنى الكامل لهذه الكلمة، وهي في جزئياتها تمثل مؤشراً إلى ما تكون عن هذه الجماعة في الرأي الجمعي، وتعتبر مدلولات المسمى عن الصورة الذهنية التي تكونت عنهم في العقل الجمعي الشعبي، لهذا فإن كل ما ذكر عنهم عدا ما ذكره نعوم شقير وعبد المجيد عابدين وإدعائهم بأنه اسم لقبيلة يمثل جزءاً من الحقيقة، وفي رأيي فإن هذه المؤشرات تقارب في مجملها مدلولات التسمية.

الزبالعة أو جماعة أبي جريد: النشأة والتطور:

جاءت سيادة الدولة والثقافة الإسلامية في السودان تدريجياً بتدرج دخول العرب وثقافتهم للسودان واستكملت بتأسيس دولة الفونج كما ذكرنا سابقاً، وقد تطرقنا إلى العوامل المساعدة الأخرى كقانون الوراثة وغيره، وقد اتضح لنا مما سبق ذكره بأن تجربة التطبيق الإسلامي في السودان كانت لها خصوصيتها وطابعها المتفرد بها. لأنها جاءت محملة بعدة ثقافات تلاقح فيها الإرث الاجتماعي والثقافي الأفريقي للسكان

٢٧٥ د. عون الشريف قاسم، المصدر السابق، ص ٣١٥.

٢٧٦ المقريري خطط ج ٢ ص ٤١٨

المحليين بمكوناته المختلفة والتي شملت الأساطير الأفريقية المحلية والعربية الوافدة وأساطير وعادات وديانات وثنية ومسيحية. كل هذا تم تحت ظروف تاريخية واجتماعية أفرزت نمط ثقافة إسلامية خاصة هي خليط من الموروث المحلي والتجربة الوافدة، أسميناها هنا بالإسلام الشعبي، وقد سبق وأوردنا الكثير من ملامحها وما تحمله من مظاهر تتعارض مع أصل الشريعة الإسلامية.

ويبدو أن جماعة أبي جريد^{٢٧٧} نشأت في فترة سيادة الدولة والثقافة الإسلامية والتي ذكرناها آنفاً، يقول هيللسون^{٢٧٨} إنها نشأت وسط أتباع عبدالله بن دفع الله العركي، إذ يقال إن الشيخ عبدالله العركي في إحدى زياراته إلى مكة رجع ومعه سبعة من العلماء المكيين الأشراف الذين استقروا بالسودان، وكان لكل منهم شهرته الدينية. ولم يذكر لنا هيللسون أسماء هؤلاء العلماء، ووجدنا صعوبة في تحديد أسمائهم بشكل قاطع من خلال الأقوال السماعية للاختلاف حولها. فالرواشدة^{٢٧٩} يذكرون منهم محمود الغريب، ودفع الله ود أبو إدريس، وجمعة البطران، والشريف سلمان، والشريف جمعة الماقي، أما العركيين فإنهم لم يذكروا محمود الغريب، وقالوا إنهم ثمانية وهم عبدالله بن داوود،^{٢٨٠} والسيد ملاس ومسكين وبدر وأبيض وحسب الله راجل العقدة وجمعة الماقي وعبدالله أبو ريش. بينما يذكر أهالي الجزائر^{٢٨١} بأنهم سبعة أشراف كون كل واحد منهم فيما بعد قبيلة، ومنهم محمود الغريب في كنانة، وحسب الله الحولثة، وسليمان الدسيس بقسم الحوش، وحسب الله راجل العقدة في عطبرة.

٢٧٧ يعتبر ما كتبه هيللسون عن الزبالة في مقاله بمجلة السودان في رسائل ومدونات
Hillelson, J. r., the people of abu jarid, SNR, KAHARTOUM, 1918, PP ٢٧٨
170.

استنادا إلى مذكرات أمين باشا غير المنشورة وإلى الروايات الشفهية مصدر رئيسي .. المصدر السابق ص ١٧٨.

٢٧٩ الرواشدة : هنا هم سكان المنطقة بين الرهد والنيل الأزرق وعلى وجه التحديد أولئك المتمركزون في حلة خضر والذين اشتهروا بأنهم من أتباع الزبالة .

٢٨٠ هيللسون :المصدر السابق ص ١٧٨

٢٨١ الجزائر قرية تقع في الضفة الشرقية للنيل الأزرق بالقرب من سنجة، ويقطنها فرع البليلاب من كنانة وهم أحفاد آدم أبو جريد وكلهم زبالة .

هذا وما يهمننا من كل هؤلاء العلماء والأقوال المتضاربة حول أسمائهم هو الشريف محمود الغريب، فقد ذكر هيلسون: ^{٢٨٢} بأنه شريف يرجع بأصله إلى الحسين بن علي، وقد ارتبط بعبد الله العركي وأخذ منه العلم والطريقة، يقول هيلسون عن بداية أمر هذه الطريقة بأن محمود الغريب هذا تزوج بامرأة من أبو حراز يدعي البعض بأنها ابنة الشريف دفع الله العركي، وقد أنجبت له ابناً سمي أبكر. هذا وتتفق المصادر التي تطرقنا لها على أن أبكر هذا هو مؤسس طريقة الزبالعة. وعلى الرغم من أنها سميت باسم أبو جريد إلا أن أبو جريد لم يكن المؤسس بل كان تابع ضمن أتباع أبكر ثم خلفه في الطريقة بعد ذلك.

هذا وتختلف الروايات حول الخلفية العلمية للشيخ أبكر إذ تشير بعض الروايات إلى أنه تلقى بعض العلم في البداية ثم دخل خلوة وأخذ في تعلم الأسماء دون وساطة شيخ. وهناك رأي آخر بأنه لم يتلق أي علم بل أنه اتصل ببعض السحرة من النوبة فتعلم منهم الكشف والنفث في العقد وما إلى ذلك.

هنا لابد من وقفة قصيرة لعرض ما قيل عن الجهة التي أتى منها هؤلاء العلماء وبعض ما كتب عن ذلك، علّه يساعدنا في تقصي وفهم هذه المجموعة وفك الطلاسم حولها. إن أهمية ذلك تكمن في أن مجيء هؤلاء العلماء ارتبط بالكثير من الأساطير والكرامات التي تبدو من الأمور اللامعقولة والتي يستحيل حدوثها. وكما ذكرنا سابقاً فهي تمثل في الواقع الرأي الشعبي حولهم سواء كان ما قيل وأشيع حولهم حقيقي أو صورة خيالية تكونت في الذهنية الشعبية لأنها تمثل في واقع الأمر مدخلاً لتفسير بعض ما أشيع عنهم.

لقد تشكلت لدينا فيما سبق من سرد صورة عن الثقافة السائدة في ذلك الوقت والتي تشكل فيها الحاجة الروحية لتفسير ظواهر الطبيعة والاندحاش حيالها والإيمان بالغيبات رافداً ثقافياً هاما لم يتأثر بانتشار الإسلام، لذا كان لابد من أن يرتبط مجيء هؤلاء السبعة ببعض من اللامعقول من أحداث لتتشكل مسيرتهم وفقاً للهالة الأسطورية التي

٢٨٢ هيلسون : المصدر السابق ص ١٧٨

ينشدها المجتمع والتي ترفعهم إلى مصاف طموح المجموعة، على الرغم من بعدها عن موجهات الشريعة الظاهرة وارتباطها بمعتقدات لمخلفات ثقافات متعاقبة كما ذكرنا.

لقد كانت مسيرة هؤلاء العلماء السبعة في رحلتهم الطويلة من مكة إلى السودان مجال خصب تفتت عنه الكثير من القصص والأساطير في الخيال الجمعي. وتتفق كل المصادر المكتوبة والسماعية على أن هؤلاء العلماء أتوا من مكة إلى السودان، وكيف أنهم وفي رحلتهم الطويلة هذه قد واجهتهم الكثير من المصاعب وكيف أنهم وفي مواجهتهم لهذه المصاعب تفتت قدراتهم عن حلول سهلة يمكن تصنيفها ضمن المعجزات وهي تنبئ عن قدرات كامنة فكان ما قيل عنهم بأنهم استطاعوا عبور البحر بالفروة والمقولة السائدة عنهم "السبعة الطافوا البحر بالفروة وانقسموا بالمدائن"^{٢٨٣}.

فالشائع بين أسلاف الزبالعة الآن أن هؤلاء السبعة تحالفوا على عهد وميثاق الأخوة في الدين والبحث عن العلم لاعتقادهم بأن بلاد العلم واسعة وكثيرة. وقد اتفقوا على أن يتمسكوا بسر النار، إذ تحكي الأسطورة عنهم بأنهم في أثناء مسيرتهم هذه تعرضوا لعداء من بعض القرى والتي رفضت استضافتهم، فكان أن حلت اللعنة على هذه القرى في ذلك اليوم فعجزوا عن إيقاد النار ولم ينضج لهم أي طعام. ويقال إن بعض هذه القرى أرسلت من يقتص أثرهم، غير أنهم لم يقلحوا في ذلك وتحكي الأسطورة أن أحد هؤلاء السبعة تحول إلى عبد أسود وتحول البقية إلى حطب حمله هذا العبد، فلم يتعرف عليهم الأعداء ولم يتعرضوا لهم.

هذا وعلى الرغم مما يبدو من استحالة لحدث كهذا، إلا أن هنالك أهمية خاصة تكمن من وراء ذلك^{٢٨٤} فالأسطورة المرتبطة بمجيء العلماء السبعة بقدر ما تعكس لنا الواقع الثقافي والاجتماعي في ذلك الوقت، فهي أيضا تشير إلى ما يتكون عنهم من

٢٨٣ هذه الحكاية عن مسيرة السبعة اتفق على روايتها كل من أسلاف الزبالعة من البليلاب سكان الجزائر والرواشدة سكان خدر.

٢٨٤ يقول الدكتور خليل أحمد خليل في كتابه مضمون الأسطورة في الفكر العربي بأن الأسطورة بوجه عام ترمي إلى إظهار قوة غيبية غير موضوعية أو فعلية خارقه لمجموع قوى البشر وتتجسد في إرادة أو إرادات متجاوزة للشرط البشري وإمكاناته. وإرادة القوى هذه تتجسد في المعجزات والكرامات وتكمن خطورة الأسطورة في كونها موضوع اعتقاد.

صورة ذهنية لدى العقل الجمعي وهي لازمة ضرورية للاعتقاد فيهم والإيمان بولايتهم... ولأهمية انعكاسات ذلك على المجموعة.

هناك دالتان في هذه الأسطورة أجد أنه من الضروري الوقوف عندهما، فالمتمتع لهذه الأسطورة يجد أن هنالك احتمال لربط بينها وبين بقايا عبادة قديمة هي عبادة النار وعبادة الشمس، إذ أن كافة الأساطير حول مجيء الزبالة وحتى ما يرويه أحفادهم تشير إلى أنهم أتوا من المشارق من مكة، وقد أشار جيوفاني إلى ذلك الجو الأسطوري المرتبط بمجيئهم من حيث تشرق الشمس^{٢٨٥}، ببقايا عبادة قديمة للشمس، وهو أمر ليس بالمستبعد في ذلك العصر خصوصا إذا ما قورن بالكيفية التي انتشر بها الإسلام ومن ثم سيادة إسلام ذي طابع خاص يحمل في جوهره ومظهره ملامح ومظاهر جميع الديانات والمعتقدات التي شهدتها المنطقة وحتى بعد سيادة الإسلام فإن النار والكواكب كانت وما زالت رمز القوة لحياتهم البدائية المتخلفة.

إن الصلة بين عبادة الشمس وبعض الممارسات المرتبطة بها نجد فيها بعض المنطق بمقارنة ذلك مع ما ذكره جيوفاني عن أنهم وفي دفن الميت كانوا يوجهون رأس الميت نحو المشرق، حيث يعتقدون أنه أتى من هنالك، وقد ذكر أيضا إن من الطقوس المتصلة بدفن الميت الرقص حول النار في مقبرة الميت^{٢٨٦}.

خلاصة ذلك أن هنالك اتفاقا تاما حول أن بداية مجيء الزبالة كانت من مكة وربما أتوا منها عبر مصر، ويتضح لنا مما ذكرناه سابقا أن محمود الغريب هذا نزل في المنطقة شرق النيل الأزرق حيث منطقة أبو حراز الآن وما حولها أي المنطقة حول النهر.

٢٨٥ أنظر جيوفاني المصدر السابق.

٢٨٦ أنظر جيوفاني المصدر السابق. وتشتهر مناطق النيل الأزرق بالاحتفاء بالنار، فقبيلة الهمج وهي إحدى كبري القبائل بولاية النيل الأزرق لا زالوا حتى اليوم يحتفلون بعيد جدع النار وهو عيد نهاية الحصاد وهو عادة عند كل قبائل النيل الأزرق، إلا إن عيد جدع النار عند الهمج هو نهاية الأعياد بالنسبة لكل القبائل في النيل الأزرق ويقام سنويا في جبل القرى غرب الروصيرص.

ويقال إن أول أتباع أبكر كان اسمه آدم عبدالله والذي عرف بعد ذلك بآدم أبو جريد، هذا وقد انتشرت الطريقة وازدهرت على يده إذ أن معظم المصادر تشير إليه في حديثها عن الزبالعة بينما لا نجد إشارات كثيرة لأبكر مؤسس الجماعة. وعلى الرغم من أنه ليس مؤسس الطريقة إلا أنها أصبحت تعرف بعد ذلك باسمه "جماعة أبو جريد". وآدم هذا من السكان المحليين، ويبدو أنه من قبيلة كنانة الكواثيل بينما أبكر عربي من أب شريفي يرجع أصله إلى الحسين بن علي وأم من السكان المحليين كما ذكرنا سابقاً.

يقول هيلسون: إن هنالك ما يقال عن أن أبي جريد هو الأخ الأصغر لأبكر، وقد خلفه بعد موته كنقيب له، كما تشير المصادر إلى أخ ثالث يدعى كرين وقد كان له دور بارز في الطريقة، ويعتبر أبناؤه ونسله إلى اليوم خلفاء للطريقة ويطلق عليهم اسم الخليفة^{٢٨٧}.

أما المؤرخ محمد عبد الرحيم فإنه لا يربط نشأة الطريقة بالشيخ أبكر أو بمجيء محمود الغريب إذ يقول عن بدايتها: "إن آدم ولد في طبخة غرب الحاج عبدالله وجنوب الخرطوم ويرجع في أصله إلى كنانة، وكان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، لكنه يتمتع بالدهاء والذكاء الحاد، تظاهر بميله الديني وحبّه للمتصوفة فأخذ الطريقة على يد الشيخ أبي يعقوب، ثم انفصل عن شيخه واشتغل بالعبادة والنسك، فصار يقيم الذكر في جنح الليل.. الخ".

أما ريد فيقول: "إن من السبعة الشرفاء الذين أتى بهم محمد فريد من المدينة شريف اسمه محمود الغريب وإن أبناء محمود هذا هم أبكر وآدم أبو جريد وهما مؤسسا الطريقة"^{٢٨٨}.

وبالرجوع إلى سلسلة النسب لدى أحفاد أبو جريد، وأحفاد أبكر فإننا لا نجد أي جامع بينهم فإذا افترضنا أن أبكر هو ابن لمحمود الغريب فإن آدم أبوه عبدالله وهو

٢٨٧ الأقوال السماعية لأتباع الزبالعة في قريتي خدر والجزائر
Reid, SNR, 1930, PP 13. ٢٨٨

كناني، وبذلك تنتفي أخوة الدم بينهما. هذا ولم نستطع تتبع نسل كرين غير أن الطيب محمد الطيب^{٢٨٩} ذكر أن كرين والده يسمى عبدالله، ويقال له كرين ود عبدالله فربما كان كرين هذا أخ لآدم أبو جريد، كما أن الطيب محمد الطيب يذكر بأن كرين كان هو الخليفة الثالث، وكان له دور بارز في تاريخ جماعة الزبالعة وتعرف نريته حتى اليوم بأنهم خلفاء الطريق^{٢٩٠}

هنا تبدو لنا ملاحظة هامة، وهي انعدام أسس واضحة ومحددة لاختيار الخليفة عند الزبالعة، ويبدو أن ذلك لم يكن ليؤثر في بداية تكوين الجماعة، غير أن ثقافة العرب بمقوماتها القبلية القائمة على التوريث وتوريث المشيخة أدى إلى اختلاط الأمر فيما بعد، وكان نتاج ذلك أن الخلافة تقسمت في ثلاثة بيوت هي أولاً: خلافة أبكر ونسله من بعده ثانياً: خلافة آدم ونسله من بعده ثم خلافة كرين ونسله من بعده.

إن انقسام الخلافة في هذه البيوت الثلاثة تشوبه بعض الغرابة، ويثير الكثير من علامات الاستفهام حول حقيقة الصلة وعلاقة القرى بينهم، وبالرجوع إلى ما سبق ذكره حول نسب كل من أبكر باعتباره من أصل عربي وآدم أبو جريد باعتباره من أصل محلي. نجد أن الأمر برمته مرتبط باللبس والغموض المصاحب لأنسابهم، إذ يصعب تحديد أنسابهم بصورة قاطعة عند الرجوع إلى المصادر المكتوبة عنهم وحتى في تتبع أخبارهم الشفاهية فإلى اليوم يصعب تحديد الصلة بين أسلاف الزبالعة وفي محاولة لتقصي حقائق هذا الالتباس نجد العديد من الأسباب كما يلي:

أولاً: محاولات الانتساب للعرب الأشراف والانتساب إلى آل البيت في تلك الفترة.
ثانياً: ما يقال عن العهد والميثاق الذي جمع أفراد الطريقة للدرجة التي اختلطت فيها روابط القرى والنسب، وتعتمد عدم الاهتمام بأواصر قرابة الدم وإحلال أخوة الطريقة مكانها.

٢٨٩ الطيب محمد الطيب، الشيخ فرح ود تكتوك حلال المشبوك، دار الطابع العربي، الخرطوم ١٩٧٧.
٢٩٠ ايضاً.

ثالثاً: انضمام الزبالعة للمهدي واشترائهم في كافة المعارك التي شنتها المهديّة في كل أنحاء السودان وتعرضهم لاستشهاد جماعي في هذه المعارك، مما أدى إلى فقدان حلقة هامة في انسياب المعلومات تمثّلت في الجيل المعاصر للمهديّة.

رابعاً: هنالك احتمال يشوبه الكثير من الشك، وهو أن هذا الاختلاط في أواصر القريبى كان نتاجاً لما أشيع حولهم عن شكل العلاقات بين أفراد الطريقة والممارسات في داخل الطريقة خاصة تلك المتعلقة بالليالي الإباحية في ليالي الذكر وما ينتج عن تلك الممارسات الإباحية من اختلاط متعمد للأنساب.

هذا الاحتمال في وجهة نظري بقدر ما لم نجد ما يثبت فحواه بشكل قاطع فإنه يبدو مشكوك فيه لأنني ومنذ البداية سرت في اتجاه توضيح أن حركة الزبالعة لم تكن خارجة عن المألوف أو لم تكن نشازاً وأنها جاءت من صلب الثقافة السائدة حينذاك إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بعدم صحة ما يشاع عن إباحية ليالي الذكر، خصوصاً وأن ذلك يقع في سياق سبق وتطرّقنا له مما هو مرتبط بمقومات الزمان والمكان، وهذا يمكن أن يثير التساؤلات حول العلاقات والروابط الزوجية في تلك المرحلة من الأزمان، وهل كانت روابط العقد في الزواج وشروطه هي بذات الشكل والانضباط الذي ورد لاحقاً بورود الأديان. وهنالك عامل آخر وهام وهو أن ما سعت له الطرق الصوفية الأخرى لاتهم طريقة الزبالعة بالإباحية أمر وارد في الفكر والممارسات في الإسلام الباطني وهو ما يطلق عليه ليالي الإفاضة. وفي كل الأحوال فالشاهد أنه حتى وفي حال وجود هذه الممارسات، فالثابت أنها انتهت بمجيء المهديّة وانضمام الزبالعة لرؤية المهدي وانضمامهم لأنصاره تحت رؤية دغيم وكنانة^{٢١١}، على الرغم من أن انضمامهم لرؤية المهدي في حد ذاته يحمل تبرئة لهم مما يقال عن أنهم ملّة خامسة وعن خروجهم عن الإسلام وفي روايات انضمامهم للمهديّة^{٢١٢} ما يفيد ذلك، إذ يقال إنهم أتوه قائلين "نحن أولاد أبو جريد جينا تهدينا" فقال لهم: أهديكم من شن ما انتو أصلكم مهديين، وهذا القول إذا صح فإنه يحمل الكثير من الدلالات، فإذا اعتبرناه بمثابة وثيقة براءة لهم من خروجهم

٢٩١ يقول رواة الزبالعة أن صلتهم بالأنصار لم تنقطع، وأنهم استفادوا منهم كقوة بشرية تصوت لمرشحي حزب الأمة في المنطقة وتدعمه، على الرغم من أن الأنصار لم يحدث أن اختاروا مرشح من بين الزبالعة.

٢٩٢ رواية للعجبة محمد احمد والذي يعمل بوزارة الخدمة العامة والإصلاح الإداري حين مقابلته.

عن الإسلام فإنه من ناحية أخرى يؤثر للإيمان بفكرة المهدية وارتباط هذه الفكرة بالفلسفة الشيعية.

يقول هيللسون:^{٢٩٣} بأنه قد استطعنا تحديد تاريخ أبكر وأبو جريد لدرجة يمكن أن يكون فيها التحديد قاطعاً، فكتاب الطبقات يحوي وصفاً كاملاً لعبدا لله العركي شيخ محمود الغريب، فهو من تلاميذ عبد الرحمن بن جابر، والذي عاش في زمان عمارة أبوسكيكين (١٥٥٥-١٥٦٣) وهو كاتب العقيدة الكبرى ومقدمة السنوسي وقد انتهى منها في العام ١٥٩٩. فأبكر وأبو جريد أبناء معاصره الصغير ينتمون إلى أول القرن السابع عشر وتؤكد ذلك مع ما قاله الخليفة الحالي الشريف الإمام والذي تتبع سلفه منذ أبكر عبر الروابط التالية:

الإمام بن البساطي بن محمد بن البساطي بن رحمة بن الإمام بن رحمة بن أبكر، وإذا اعتبرنا أن متوسط حياة الجيل تقدر بأربعين عاماً، نصل إلى أن تاريخ ميلاد أبكر كان في النصف الأول من القرن السابع عشر. يؤكد ذلك ما ذكر في وثائق المخابرات الإنجليزية عن أن الشيخ أبكر وتابعه أبو جريد قد عاشوا في أول القرن السابع عشر في عهد أوج السلطة السنارية.^{٢٩٤}

هذا ويتتبع نسل أبو جريد نصل إلى نفس النتيجة، فأدم أبو جريد هو الجد التاسع للخليفة الحالي الشيخ النور^{٢٩٥} المقيم في منطقة الجزائر وسلسلة نسبه على التوالي كما ذكر لي الشيخ النور بن أحمد بن البدر بن الزاكي بن فارس بن الزين بن سرور بن عامر بن آدم.

هذا وإذا اعتبرنا أن كرين كان الخليفة الثالث، فإنه ويتتبعنا للأقوال السماعية وبما ذكره الطيب محمد الطيب^{٢٩٦} فإن كرين يكون معاصراً للشيخ فرح ود تكتوك والذي

٢٩٣ هيللسون المصدر السابق ص ١٧٩.

٢٩٤ Intel 2/32/270

٢٩٥ الشيخ النور بن الشيخ أحمد هو الخليفة الحالي وقد قمنا بزيارتهم بقريتهم في منطقة الجزائر بمعية الطيب محمد الطيب.

٢٩٦ انظر الطيب محمد الطيب، المصدر السابق.

عاش في الفترة من ١٠٤٧-١١٤٧ هجرية، وعن تاريخ الشيخ فرح ود تكتوك الذي عاصر الشيخ كرين ود عبدالله يقول نعوم شقير: إنه كان في العام ١١٠٠هـ ويقول الطيب محمد الطيب: بأن الشيخ فرح لم يعاصر بداية تأسيس دولة سنار أو السلطنة الزرقاء بل كانت حياته بعد ما يقارب القرن من نشأتها أي في الثلث الثاني من عمر السلطنة في عهد الملك بادي أبودقن. وكل ذلك يؤكد صحة التاريخ الذي حددناه.

من كل ذلك نخلص إلى أن طريقة جماعة أبو جريد قد ظهرت في أوائل القرن السابع عشر الميلادي على يد مؤسسها أبكر بن محمود الغريب^{٢٩٧} الشريف المكي، وخلفه تابعه آدم بن عبدالله أبو جريد، ويبدو أن الطريقة ازدهرت على عهده لأنها أصبحت تعرف بعد ذلك باسمه "جماعة أبو جريد" وربما كان ذلك راجعا أيضا إلى أن الطريقة نفسها انتشرت في بداية أمرها وسط أهله من قبيلة كنانة وعلى وجه الخصوص البلياب من كنانة الكوانيل.

المناطق والقبائل التي انتشرت بينها الطريقة

لقد سبق وذكرنا أن مؤسس طريقة أبو جريد هو أبكر بن محمود الغريب، وهو مولود لأب عربي من أشراف مكة وأم من العنصر المحلي وكان أول أتباعه هو آدم بن عبدالله أبو جريد من كنانة، لذا جاء معظم أتباعهم بعد ذلك من كنانة، وبالتحديد من فرع كنانة الكوانيل وقد سموا بالبلياب. ويقول هيلسون: إن الطريقة انتشرت في البداية وسط أتباع عبدالله بن دفع الله العركي وهذا يعني انتشارها في المنطقة شرق النيل الأزرق وفي المنطقة حول أبي حراز وما حولها.

وفي تتبعنا لوجود الزبالعة في هذه المنطقة من خلال الزيارة الميدانية وجمع المعلومات الشفهية لم نجد ما يشير إلى وجود لسيرتهم في تاريخ العركيين، وحتى هيلسون لم يشر إلى وجودهم وسط العركيين، غير أننا وجدنا أن الرواشدة في هذه

٢٩٧ يؤكد لنا ذلك السيد العجبة محمد احمد حفيد الشيخ أبكر مؤسس الطريقة، وقد تخرج من جامعة الخرطوم وعمل موظفا بوزارة الخدمة العامة والإصلاح الإداري وهو يقول أن نسبهم أحيانا ينسب إلى محمود الغريب.

المنطقة وخاصة سكان حلة خدر يتبعون كلهم للزبالعة. ويسند هيلسون^{٢٩٨} ذلك إلى أن جدهم محمد الراشدي كان أحد أتباع أبو جريد، بينما هم يذكرون في رواياتهم الشفهية إن البداية كانت زواج أحد الزبالعة من عمة لهم.

هذا يؤكد أن طريقة الزبالعة انتشرت في بداية أمرها في المنطقة حول مندي، وفي المنطقة شرق النيل الأزرق بين الرهد والنيل الأزرق وامتدت في المنطقة غرب النيل الأزرق وجنوب مندي حيث ولد آدم أبو جريد في منطقة طباخة بالقرب من الحاج عبدالله.

وعلى الرغم من أن الطريقة انتشرت في بداية أمرها وسط الرواشدة وفرع البليلاب من كنانة الكوانيل إلا أنها نجحت في كسب أتباع لها من متفرق القبائل خاصة الشكرية والعوامرة والتفافاب والمنصوراب ويقال الضبانية والبطاحين.

من كل ذلك نستنتج أن ربط جماعة أبو جريد بقبيلة محددة أو تصنيفها كقبيلة كما أورد كل من نعم شقير وعبد المجيد عابدين أمر بعيد الاحتمال للأسباب التالية:

(١) ما ورد في كتاب طبقات ود ضيف الله، وكل الكتب التي تحدثت عنهم تشير إلى انتشارهم في مناطق واسعة ليست مرتبطة بتكتلات قبلية وإلى حد ما حدود جغرافية، يؤكد ذلك محاربة دولة الفونج لهم ومحاربتهم بواسطة رجالات الطرق الصوفية والتي وصلت حد انعقاد مجلس من العلماء لدحض أرائهم ومحاربة انتشارهم. هذا الخوف بقدر ما يوضح لنا بجلاء استئراء وفعالية طرق الزبالعة في الانتشار، فإنه يؤشر إلى محورية الولاء والانتماء المستمد من الإيمان بالغيبيات والقدرات الخارقة للأولياء.

(٢) ما ورد إلينا وما سنتطرق له لاحقا عن ارتباط هذه الطريقة برابطة بها الكثير من التقديس تتمثل في القسم والميثاق على الترابط والأخوة المستمدة من الولاء للطريقة وشيوخها، ونهجم المتعمد على انتفاء أي رابطة أخرى عائلية كانت أم قبلية أو غيرها، فكل أتباع الطريقة من مختلف القبائل والمناطق يطلق عليهم

٢٩٨ هيلسون، المصدر السابق، ص ١٧٨.

أولاد أبو جريد حال انتسابهم للطريقة لذا سموا بجماعة أبو جريد. هذه الأخوة غرست في نفوس الأبناء للدرجة التي جعلتهم يجهلون ويتجاهلون صلة النسب والقرابة بينهم.

(٣) ما ألم بالزبالة من استشهاده جماعي في معارك المهديّة مما جعل جيل ما بعد المهديّة يفقد حلقة معرفيّة هامة من جيل الآباء والأجداد.

(٤) السرية التي أحاطت بالطريقة بالإضافة إلى انفقارهم للتاريخ المكتوب لجهلهم بالقراءة ولطبيعتهم البدوية المترحلة.

هذا ويمكن القول بأن طريقة أبي جريد قد انتشرت وسط الرحل في المنطقة الممتدة حول النيل الأزرق شرقا وغربا، وفي المنطقة حول أبو حراز والمنطقة الواقعة بين الدندر والرهده. ومن الواضح أن غلبة نشاط للرعي والتجّال على تابعي الطريقة قد ساهمت في انتشار الطريقة وامتدادها حتى جنوب الروصيرص. كما تبدو آثارهم في الضفة الغربية للنيل الأزرق في المنطقة من مدني وحتى سنار، إلى جانب حالات متفرقة في الوسط في سوبا والجديد وجزيرة توتي.

وقد كان لنمط حياة قبائل كنانة كقبائل رعوية مترحلة دور كبير في الانتشار الأقي للطريقة في مناطق واسعة امتدت حتى النيل الأبيض، وتركت أثارا لها هنا وهناك يقول هيللسون: " إن قبيلة كنانة يعيشون في فصل الصيف في جنوب البلاد بين النيلين، بالقرب من تلال جبل الدبة وجبل المذموم وجبل إيلي وجبل جريده وفي فصل الخريف يهاجرون إلى البطانة. هؤلاء البدو الرحل في رحلتهم الممتدة من جنوب الروصيرص وحتى البطانة كانت لديهم بعض مراكز الاستقرار التي يستقرون بها في فصل الصيف، حيث يمارسون الزراعة الاكتفائية.

هذا ومن أهم النقاط التي تركز فيها الزبالة، حلة خدر شرق مدني وحلة الجزائر شرق سنجة والقويزات وحفيرة ومشو وشنقور إلى جانب موفا وود دفودي وأب رماد وفي منطقة النقلة في طبخة وفي المنطقة الممتدة من سنجة وحتى الروصيرص، كما كانت لهم عموديتين في النيل الأبيض في منطقة رشاد.

٢٩٩ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٧٨.

وهناك مراكز أخرى في المنطقة حول الحاج عبدالله جنوب مدني وحتى سنار، وفي زيارتنا لهذه المناطق تدور أقاويل حول أن بعض القرى سميت على شيوخهم كالحاج عبدالله نفسها، كما توجد قرية أخرى تسمى كرين بين الحاج عبدالله وسنار، يقال إنها سميت على خليفتهم الثالث كرين. ومن مراكزهم طبخة وأم حداد وحلة أولاد طاهر وحلة أولاد يحي وهذه أيضا سميت على شيخهم يحي ود بليلة، وتقع قبالة طبخة والحاج عبدالله. كما انتشروا في عمارة قعدة وأبو عشر ويضيف إليهم هيللسون^{٣٠٠} منطقة سوبا. ومما ورد على لسان الشيخ فرح ود تكتوك أنه مر بقرية كرين بعد وفاة الشيخ كرين، وكانت ارض مثمرة فقال:

هلا هلا يا دار كرين

البلد الزين

اللوبا للركبين

وعيش الريف انتين انتين

واحدة ام ريل واحدة ام خيرين.

استنادا إلى ما اشرنا إليه وما تجمع لدينا من معلومات، نستطيع القول بأن كل الدلائل تشير إلى أن هذه الطريقة لم تقتصر فقط على منطقة النيل الأزرق والمنطقة بين الدندر والرهد، بل إنها امتدت حتى منطقة الوسط حيث يذكر الطيب محمد الطيب: "إن الشيخ حمد ود أم مريوم تقدم بشكوى لسلطان العبدلاب بقري الشيخ عبدالله ود عجيب فحواها أن السلاطين كانوا يكرمون الشيخ خوجلي ويحترمونه وينادونه بعظيم توتي وكبير توتي وأحسن الشيخ حمد بدخول مذهب الزبالعة لجزيرة توتي، فأغضبه هذا لأن الشيخ خوجلي لم يتحرك لمحاربتهم، فكتب خطابا للسلطان عبدالله ود عجيب الذي كتب للشيخ خوجلي يسأله عن صحة الشكوى وما رأيه فيما قاله الشيخ حمد، فرد الشيخ خوجلي ردا ذكيا قائلا: من بعد التحية والتعظيم والاحترام تسألني عن الزبالعة ودخولهم توتي فأقول "عيني ما شافت أضائي ما سديتا أحمد ولدي أكان إزبلع ما خصائي وحمد أخويا ما بكضب"^{٣٠١}.

٣٠٠ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٩٣

٣٠١ الطيب محمد الطيب، المصدر السابق، ص ٩٣-٩٤.

أما في فترة المهديّة فقد أدى انضمامهم للثورة المهديّة إلى امتداد انتشارهم في شرق السودان، إذ أن ما حدث في تلك الفترة من هجرات واسعة لأنصار المهديّة تتبعا لمناطق الدعوة وغزوات المهديّة واشترك الزبالة فيها خاصة في جردات الخليفة في شرق السودان، كان له دور كبير في انتشارهم أفرادا وجماعات في منطقة الشرق في القصارف وكسلا والقلابات. والجدير بالذكر أن ولاءهم للمهدي لم يبلغ ولاءهم كمجموعات لخلفائهم من الزبالة.

وتشير المصادر إلى تعرض الزبالة إلى استشهاد جماعي في المعارك التي خاضتها المهديّة في الشرق، ولا تزال قبور الكثيرين منهم باقية في تلك المناطق، لذا ساد الاعتقاد وسط أحفاد الزبالة بأن طريقة أبو جريد قد انتشرت حتى الحدود مع الحبشة ولا زالوا يرددون ذلك ويؤكدونه. ويذكر محمد عبد الرحيم^{٣٠٢} أيضا ما يفيد وصولهم إلى هذه المنطقة بعد هزيمتهم في الحروب التي خاضتها المهديّة مع الجموعية، حيث تمت مطاردتهم حتى وصلوا نهر سنيت وبإسلام في جنوب كسلا. وتفيد المصادر بأنهم ظلوا في تلك المناطق طيلة فترة الحكم المهدي ثم عادوا في وقت لاحق إلى أوطانهم الأولى، ومما لا شك فيه. فإن استيطان بعض أتباع القبيلة بمنطقة الحبشة لعشرات من السنوات مؤشر كافٍ على صحة ما ذكر عن امتداد الطريقة حتى حدود الحبشة كما أنه يمكن أن يكون مؤشرا على أنهم تركوا بعض الآثار هنالك.

هذا وتشير الروايات الشفهية لأحفاد الزبالة على أن نقاط تواجدهم الحالية في الجزائر والقويزات وأم طاهر وقويدر من النقاط التي أمرهم المهدي بالاستقرار فيها، وقد ذكر لنا الرواة أن لهم مشايخ باقية بكل من الفرقاب وسراجية وأبو حمير وأم طاهر وقريشاب وكل لها شيخها.

من هنا نخلص إلى أن طريقة الزبالة قد انتشرت انتشارا واسعا في المنطقة الممتدة من جنوب الروصيرص حتى ملتقى النيلين، وأنها لم تستد إلى تكوين قبلي، وكان أعضاؤها من مختلف القبائل إلا أنها ارتكزت أساسا على البليلاب وهو فرع من

٣٠٢ أنظر محمد عبد الرحيم، المصدر السابق.

كنانة الكوانيل^{٢٠٣} والرواشدة في شرق مدني، والطريقة معروفة إلي اليوم في منطقة الرواشدة باسم الزبالعة، بينما هم معروفون في منطقة كنانة بالبليلاب أو جماعة أبو جريد، والبليلاب هؤلاء يشملون أسلاف بيوتات الخلافة الثلاثة والمتمثلة في أحفاد آدم أبو جريد وأحفاد أبكر بن محمود الغريب وأحفاد كرين بن عبدالله، وهم يعملون مع العرب الرحل وحرفتهم الرئيسية هي رعي الماشية.

وفي رأيي أن هذا الانتشار الواسع للطريقة يرتبط ارتباطا وثيقا بنمط نشاطهم الاقتصادي المعتمد على الرعي والترحال مما يتيح لهم المرور بمناطق كثيرة ومختلفة، لذا أجد من المهم توضيح ما يتصل بهذا النشاط ومحاولة تتبع طرق ترحالهم لتتعرف على المناطق التي يمشون بها، والتي ربما تكون قد تأثرت بهم أو أثرت فيهم.

فقبيلة كنانة تشكل مع رفاة الهوي السكان الأساسيين لمنطقة جنوب الجزيرة، وهم يرحلون في مساحة تبلغ المائتين كيلومتر بين مراعهم الصيفي ومراعهم الشتوي^{٢٠٤}. هذه الهجرات المكثفة والمتواصلة صيفا وشتاء صارت ضرورية لموازنة حياتهم، إذ يتجهون جنوبا في فصل الشتاء لإيجاد المرعى المناسب والذي يصبح ميسورا في هذا الفصل، بينما تكون أوبتهم إلى الشمال ضرورية لتقادي البعوض والحشرات الأخرى والتي تكثر في أطراف الجزيرة في موسم المطر. وعندما يقرر عرب كنانة الترحال فإنهم ينقسمون إلى مجموعات صغيرة ويرتحلون ببطء يقطعون مسافة عشرة أميال في اليوم، حيث ترعي الماشية أثناء ذلك، وعندما يصلون إلى الجزء الشمالي من حدود أعالي النيل والنيل الأزرق فإن عليهم الانتظار حتى منتصف فبراير تقاديا لوقوع المشاكل مع قبائل الدينكا. والعودة شمالا مع بداية الأمطار في مسعى للهروب السريع من المكان أي قبل مجيء الدينكا. وكانت بعض المجموعات من قبائل كنانة ترحل شتاء إلى جنوب النيل الأزرق، وتعتبر النهر حيث يحملون الحبوب وبعض المنتجات لبيعها. لقد اشتهرت أبقار قبائل كنانة بإنتاجها الوفير من الألبان ومنتجاتها التي كانوا يسوقونها للبلن لسكان القرى المستقرين، وهم يستفيدون في فترة الصيف بزراعة بعض الحبوب إذا

٢٠٣ أنظر ملحق رقم (٤) يوضح فروع كنانة بالسودان.

٢٠٤ أنظر Barber

وجدوا أرضاً تصلح للزراعة، وغالباً ما يكون ذلك سبباً للمتاعب مع القبائل المستقرة في هذه المناطق

أصل التسمية بأبي جريد:

أطلقت كلمة أبو جريد والتي عرفت بها جماعة الزبالة بعد ذلك على آدم بن عبدالله الرجل الثاني في الطريقة. وقد ذكرت روايتين^{٢٠٥} في تسمية آدم بن عبدالله بأبو جريد الرواية الأولى تقول: إن هذه التسمية أطلقت على آدم في زمن القحان. إذ كان آدم ضعيفاً على بعض أتباعه فداهمهم جماعة من العربان، وتشير أقوالهم إلى إن من داهمهم هم عبيد الملك، أرسلهم لخوفه من انتشار الطريقة، وقد خاف حيران أبو جريد عند رؤيتهم لكثرة عدد العبيد وضخامتهم فاحتاروا في مواجهتهم إذ لم يكن معهم سلاح، فأمرهم آدم بحمل الجريد ومحاربتهم به ويقال بأن الجريدة كانت تفعل فعل السيف، إذ تقطع الفارس وحصانه عند إنزالها عليهم. وقيل إن آدم كان في أثناء ذلك يقول: أنا أبو جريد أنا أبو جريد واستطاعوا هزيمة العربان، فصارت من حينها اسم له^{٢٠٦}.

والرواية الثانية تقول إن أحد ملوك سنار حاول اختبار قوة آدم، فسأله أن يأتي ببعض الجريد لبناء جامع كانوا يقومون ببنائه في منطقة لا يوجد بها جريد على الإطلاق، وقد استطاع الشيخ إحضار فيل محمل بالجريد وسمي من حينها بأبوجريد.

ثم هنالك المعاني المتصلة بكلمة جريد، فالجريد هي قضبان النخل المجردة من خوصها، كما تعني جماعة الخيل "أي الفرسان" وهي تعني الجيش أو الحملة وهي أيضاً تشير إلى نوع من العباءات، وهنالك معنى آخر متعارف عليه بأن الأسد له جريدة واحدة ويمكن عن ذلك بالقوة لأن الجريدة رمز مادي لقوى روحية.

٢٠٥ هذه الروايتين ذكرها هيلسون في مصدره المذكور هنا كما سمعناها في الروايات الشفاهية لأحفاد الزبالة الآن.

٢٠٦ هذه الحادثة ليست جديدة في الثقافة العربية فابن هشام يروي عن قداسة الشجرة " وفي الحرب يتحول جذع الشجرة إلى سيف " وقاتل عكاشة... يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده فأتى رسول الله "ص" فأعطاه جذلاً " وهو أصل الشجرة " من حطب فقال قاتل بهذا يا عكاشة. فلما أخذه من رسول الله "ص" هزه فعاد سيفاً في يده طويل شديد المتن أبيض الحديدية وكان ذلك السيف يسمى العون " سيرة ابن هشام الجزء الثاني ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

ومن الأرجح أن الاعتقاد بالتسمية الثانية هو الأقرب إلى الصواب، لأن تحميل القيلة بالدليب ذكرت مرارا وفي أكثر من موقع في طبقات ود ضيف الله كإحدى الكرامات المتميزة في ذلك العهد. وذلك لتوحش القيلة حينذاك، وربما كان الجريد هو فعلا جريد دليب وليس جريد للنخل باعتبار انعدام شجر النخل في هذه المنطقة "المنطقة حول النيل الأزرق".

إن ارتباط تسمية عبدالله أم بأبو جريد وربط ذلك بإتيانه لإحدى الكرامات هو مظهر ودلالة هامة ولازمة لأولياء وشيوخ تلك المرحلة التاريخية وحتى فترات لاحقة في تاريخ السودان فنونها لا يحدث ولاء أو تبعية لشيوخ. ويمثل الارتباط الدائم والأسطوري للشيخ ومكانته بما يأتيه من أفعال خارقة للعادات أو ما يقع في باب المعجزات أو الكرامات جزءا هاما في تعزيز صورة الشيخ لدى العامة، وتعزيز قوة الاعتقاد بالشيخ وبمكانته لدى الله.

هذا وبنظرة متأنية إلى الوسائل والدلائل الإيحائية المستخدمة للدلالة على التفضيل الإلهي للشيوخ والأولياء بالقدرة على صنع المعجزات وخوارق العادات، نجد أن الذهنية الجماعية تتفق بصور غير إرادية لتفرز شكلا أو مصدرا من مصادر القوة الخارقة من معطيات متصلة اتصالا وثيقا بمحور هام في حياة الناس، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن جريد النخل قد ارتبط تاريخيا ودينيا بإرث ومعتقدات للنوبة خاصة في العهد المسيحي،^{٣٠٧} كما كان للنخل مكانة مميزة في كافة الأديان السماوية وارتبط النخل في

٣٠٧ لقد جاء في كتاب شجرة العذراء، تأليف توفيق الفكيكي ص في تسمية النخيل : روى العلامة الجليل السيد نعمة الله الجزائري (ر ح) في الأنوار النعمانية : إن الله أمر الملائكة فوضعوا التراب الذي خلق منه آدم في المنخل ونخلوه، فما كان ليابيا صافيا أخذ لطينة آدم (ع) وما بقي في المنخل خلق الله منه النخلة وبه سميت لأنها خلقت من تراب بدن آدم وهي (العجوة). وكان آدم يأنس بها في الجنة ولما هبط إلى الأرض استوحش بمفارقة طلب من الله سبحانه وتعالى أن ينزل له النخلة فأنزلها وغرسها في الأرض، ولما قربت وفاته أوصى إلى ولده أن يضع معه في قبره جريدة منها فصارت سنة إلى زمان عيسى (ع) ثم اندثرت في زمان الفترة فأحيها النبي صلى الله عليه وسلم. وقال : إنها ترفع عذاب القبر ما دامت خضراء، وقد روى الجمهور عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للأخصار : خضروا صاحبكم فما أقل المخضرين يوم القيامة. وقالوا : وما التخضير؟ قال صلى الله عليه وسلم : جريدة خضراء توضع من أصل اليمين إلى أصل الترقوة.

الإسلام بالكثير من التبجيل والتقدّيس كشجرة مباركة.^{٣٠٨} وسوف نتطرق لاحقاً إلى بعض من أنكارهم المصاحبة بالنغم أو بالقصيد ومن هذه الأنغام ما يشير إلى التسمية حيث تذكر القصيدة:

البوب للنبي والبوب جبّو بالنم
وأوجدي وكّت أطرى الرشيد أم
الجرجر نخيله وسيسبانه برم
النجم الحقيقة وما اشتغل بقلم
.....

البوب للنبي والبوب جبّته بالنم
وأوجدي وكّت أطرى علي الله
الجرجر نخيله وسيسبانه برا
النجم الحقيقة وما اشتغل يقرأ

لقد كان للحدث الإعجازي موقع حيوي في العقل الجمعي، فمكانة الشيخ التي تتحدد بإتيان الخوارق من الأفعال هي المحفز الرئيسي للخيال الشعبي، وهي الباعث على الإيمان به كولي من أولياء الله، وفي واقع الأمر فإنه ليس هنالك ما يثبت منطقياً بأن إتيان الخوارق من الأفعال قدرة فعلية وخارقة للشيخ ومقدرة على إتيانه ما تعجز عنه قدرات البشر العاديين بقدر ما أنها صورة يضخمها ويرسخها الخيال الشعبي. فإذا نظرنا إلى ما ذكر عن تحميل الفيلة للدليب فإنه لا يمثل في جوهره حدثاً خارقاً إلا في المفهوم والقدرة المحدودة لسكان ذلك الزمان حيث كانت الفيلة جزء من الحيوانات غير الأليفة.

هذا وإذا حاولنا استقصاء ما يتصل بتسمية أبي جريد من منطلق المنطق والممكن، فإن الحدث الخارق للعادة يتمثل في الرواية المتصلة بهذه التسمية فيما يلي:

٣٠٨ وقد ذكرت النخل في ٢١ آية من آيات القرآن وأكثر من ٣٠٠ حديث وقد ورد في الحديث "أكرموا عمّكم النخلة فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم. وأن أصحاب النبي عمدوا إلى كتابة القرآن والأحاديث في جريد النخل، وقيل في مدح النبي ونخل أثمرت في دون عام وفغار بها على الفتو العسيب وجرّد من جريد النخل سيفاً فقيل بذاك للسيف الفضيب .

١. تحول الجريد إلى سلاح وهو حدث تكرر في عهد النبي ص.

٢. تطويع الفيلة وتحميلها للجريد.

٣. إحضار الجريد في منطقة ينعدم فيها الجريد.

لقد ذكرنا قبلا ما يفيد بأن الحدث الخارق للمألوف هو حدث مفتعل في الخيال الجمعي الشعبي وليس واقعا حقيقيا، لذا فإن التفسير المنطقي والعلمي لما ورد في الأسطورة المرتبطة بتسمية أبو جريد ينفي إمكانية حدوث تحول الجريد إلى سيف أو إمكانية إحضار شيء من عدم.

ونخلص من كل ذلك إلى أن التسمية الأقرب للواقع هي تلك المرتبطة بتحميل الفيلة للجريد فتطويع الفيلة وتحميلها الجريد لا يبدو أمرا مستحيلا في العموم، وإنما هو خارق بالمفهوم الضيق لقدرات البشر في ذلك الزمان. وفي غالب الأحوال فإن الجريد المشار إليه هو جريد الدليب. وفي كل الأحوال فإن إسناد فعل خارق إلى عبدالله شيخ الطريقة هو ضرورة لازمة للإيمان به والانقياد إلى طريقه.

المعتقدات والممارسات:

حديثنا عن معتقدات وممارسات الزبالة لا يعني بالضرورة تحديدها بصورة قاطعة، لاعتماد ذلك على القليل مما كتب والذي جمعناه من هنا وهناك، ثم الاعتماد في الغالب الأعم على الروايات الشفهية. وقد حاولنا ربط كل ذلك بالواقع الثقافي المعاش حينها في محاولة لفهم وتقريب الصورة. إن التوصل للشكل المتكامل لمعتقدات وممارسات الطريقة تشوبه بعض العوائق التي تمثلت في انعدام المصادر الأولية والمخطوطات التي كتبت في حينها، وانتشار الطريقة وسط جماعات أمية متقلبة، ثم انقراض الطريقة كتنظيم في الوقت الحالي وانعدام الأثر الدال عليها.

بجانب ذلك فإن هنالك عوامل رئيسة أثرت بشكل سلبي في توفير المعلومات حول الطريقة من أهمها طبيعة الطريقة وانقارها كما سيتضح لنا من خلال هذا الفصل إلى الرؤى الفكرية والفلسفية واعتمادها على السلوك والممارسات نهجا لها. كما أن الغموض الذي صاحب الطريقة في كل ما يتصل بها وبممارساتها قد شكل مؤثرا حيويا في كم

المعلومات المتوفرة عنها، بل أن تأثيره كان ضاراً بحكم أن ما هو شاذ يحدث جلباً أكبر ويؤثر تأثيراً سلبياً على الكم المفيد منه، إلى جانب ذلك فإن ما أشيع حول الطريقة قد خلق صورة سلبية عنها لغير المنتمين إليها، وقد انعكس ذلك أثناء لقاءاتنا مع أحفاد شيوخ الطريقة في المناطق التي زرناها، إذ لا زالوا يتحدثون عن الطريقة بحذر بالغ. كل ذلك جعل حقيقة الوصول إلى كواهنها بشكل قاطع ودون أدنى شك يبدو أمراً مستحيلاً.

يؤكد ذلك ما ذكره هيلسون^{٣٠٩} بقوله: "إن المعلومات حول ما يعتنقه أصحاب الطريقة من معتقدات غير مكتملة، لأن هؤلاء الناس ليسوا نظريين بأبهون للعرض الجدلي، وليسوا قادرين على وضع ما يعتقونه في قالب مكتوب، ولا يمكن الجزم بأن لهم نظرية محددة تحدد سلوكهم وموقعهم في الإسلام".

وفي تتبعنا لكافة المصادر المكتوبة والشفوية لم نجد ما يشير إلى توفر أدبيات أو مخطوطات مقرّوة خاصة بالطريقة، وأن الطريقة هي مسار وسلوك لإشباع الحاجة الروحية لمعتقي الطريقة داخل إطار الفكر الإسلامي وليست خارجة عنه بوسائل تنظيمية محدودة تعكس اهتماماتهم وقدراتهم المحدودة. ومن المؤكد بأنهم وفي الإطار العام للإسلام فإنهم يؤمنون بوحدانية الإله وبالأنبياء وبالرسل لجمعين وبالقضاء والقدر، ويقومون بتأدية كل الفرائض المكتوبة من توحيد وصلاة وصيام وزكاة وحج. ما هو جدير بالاهتمام حقاً هو:

- أولاً: معتقداتهم المتصلة بشخص وسلطة أبكر وأبو جريد وخلفائهم من بعدهم، لما حدث في هذه النقطة من جدال.
- ثانياً: إيمانهم بما وصلهم من كتب تمثلت في القرآن الكريم.
- ثالثاً: طريقة ذكرهم والممارسات المصاحبة للذكر.
- رابعاً: الشروط التي بموجبها يقبلون عضوية الأفراد كأعضاء بالطريقة.

٣٠٩ هيلسون، المصدر السابق، ص ١٨١.

هذا وأرى لزما على قبل الدخول في تفصيل ما يحملونه من معتقدات لابد أولا من تأكيد منهجنا في هذا البحث، فقد حاولنا ومنذ البداية معالجة هذا الموضوع ضمن ما أسميناه بالإسلام الشعبي أو المحلي، وقد شرحنا كيف أن خصوصية الإسلام في السودان ارتبطت في الأساس بالتمازج والتلاحق مع كافة مكونات الثقافة المحلية بإرثها الأفريقي، وإرث وتوجهات من حملها من العرب، والبنية الاقتصادية الاجتماعية والظرف التاريخي الذي حل فيه الإسلام.

إن تسمية هذه الخصوصية بالإسلام الباطني فيها الكثير من التجاوز لأن الإسلام الباطني في المنطقة العربية كانت له رؤاه الفكرية والفلسفية والثورية، والتي كان لها كبير الأثر على المنطقة، لكن ما وفد من إسلام باطني على السودان كانت رؤى عامة ومظاهر سطحية اعتمدت على السلوك والتخلق حول الشيخ دينا ونهجا. وقد كان لكل طريقة من الطرق التي سادت طابعها المتفرد والخاص بها، والتي تستفيد مما توافر لها من معطيات فتأخذ من هنا وهناك ما يحلو لها فتستفيد من جانب وتترك آخر ليتكون لدينا في نهاية الأمر تعدد وتنوع في الأساليب والطرق والأولويات.

لذلك فإن كلمة الإسلام الشعبي تكون أفصح تعبيرا وأكثر قربا إلى كنه جوهره، بما يحمله من مكونات تشمل ما هو وافد من ممارسات الفكر الباطني والشيوعي والصوفي والتي اندمجت وتزاوجت مع ما هو متوارث من ثقافة محلية.

إن النظر إلى الزبالة وتحري أوضاعهم من خلال هذا المنظور الشامل للإسلام الشعبي في السودان، والذي ارتبط في أهم مظاهره على عاملين هامين هما الانقياد للأولياء والإيمان بقدراتهم على الإتيان بالكرامات وخوارق العادات، ومن ثم ربط ذلك بما تواتر عن الزبالة وحقيقة انتشار الطريقة بين أكثر المجموعات تخلفا، والتي تتكون في مجملها من العرب الرحل المتمثلين في كنانة والشكرية والميرفاب. إن تمثل كل ذلك في إطاره الزماني والمكاني يمثل نقطة هامة في مسيرة فهمنا لحركة الزبالة، لأنه وبقراءة متعمقة لتاريخ تلك الفترة مع ما هو مذكور في طبقات ود ضيف الله نجد أن انتشار الإسلام انحصر عموما في مناطق الزراعة والاستقرار، وكذا الحال بالنسبة للتعليم الذي ارتبط انتشاره بانتشار خلاوي رجال الصوفية، مما يوضح بجلاء أن

انتشار التعليم والتعليم الديني على وجه الخصوص اقتصر على مناطق الزراعة هذه. وإذا سلمنا جدلاً بما سبق ذكره عن كيفية ونوعية الإسلام الذي ساد في تلك الفترة في مناطق انتشاره المذكورة على أيدي مشايخ نصيبهم من التعليم قليل فإن مقارنة ذلك تكشف لنا بجلاء أن نصيب هؤلاء الرعاة والذين ارتبطت حياتهم بالترحال والبداءة من التعليم والاستشارة وعلوم الدين تكاد تكون منعدمة، إن هذه المقارنة بين نوعية الإسلام الذي انتشر وسط البدو الرحل ووسط المستقرين ليست جديدة فقد ذكرها النبي والصحابه من بعده.

لكل ذلك فإن كل ما كتب وذكر عن هذه المجموعة، وما سجلناه من أقوال شفوية في مناطقهم في قرية خدر وفي سنجة وفي المنطقة حول النيل الأزرق في سنار وأبي حراز والحاج عبدالله، يبرهن على أن تعاليم الإسلام على وجهه الشرعي لم تكن متغلغلة في أوساطهم، وكانت الممارسات التي تغلب على سلوكهم منافية في الكثير منها لتعاليم الإسلام، وهو وضع ليس بالغريب ويبدو متسقاً مع المقاربات السابقة والتصور العام لنوعية الإسلام الذي ساد مستندين في ذلك على العديد من المظاهر وعلى رواية لود ضيف الله عن جهلهم بأحكام أساسية كأحكام العدة. وواقع الحال يؤكد بأن حياتهم ارتبطت بالقيادة الدينية، فمنها يستمدون التعاليم وفيها يتمثل إيمانهم الديني المرتبط بالقيادة الروحية والحماية المتمثلة في شيخ الطريقة.

وواقع الحال يؤكد بأن الإسلام الشعبي الذي انتشر في السودان اعتمد على التعلم من الإمام المتمثل في شيخ الطريقة جملة وتفصيلاً. هذا الحال انطبق على الزبالعة بصورة أكثر وضوحاً لجهلهم بالقراءة والكتابة من ناحية، ولاعتمادهم على الشفاهة في نيل وسلوك الطريقة من ناحية أخرى. وهناك عامل ثالث يتمثل في قسوة حياة البداءة والترحال وارتباطها الوثيق بمظاهر الطبيعة بما تحمله من عدم أمان وخوف، لذا فإن إيجاد التوازن اللازم لمجابهة نوعية الحياة هذه بما يملكون من رؤية تعتمد على الوساطة التي تستمد قدرتها من سلطة الإله تبدو أمراً ملحا للتأمين والحماية ضد المجهول. لقد تمثلت هذه الوساطة عند الزبالعة في شيخ الطريقة فعدم قدرتهم على تحري كنه كيفية رعاية الله لهم وحمايتهم وعدم القدرة على البحث عن الأدلة العقلانية لرعاية الإله لهم،

أدى إلى تبوء الشيخ لمكانة رائدة في حياتهم وأسلموه دور القائد دون وعي أو تفكير في حقيقة الإلغاء الميكانيكي لوجود الله في حياتهم.

ومن ضمن ما أثير ضد جماعة الزبالة صلتهم بشيوخهم وتمجيدهم لهم على حساب الخالق والرسول والملائكة، وهو أمر إذا تمت قراءته ضمن السياق التاريخي المحدد ووفقا لمجرياته ومقتضياته نجد أن هذه المكانة تتسق مع ما هو سائد، إذ إن المكانة التي يكتسبها الشيخ وسط مجموع السكان ترتبط بما يتميز به هذا الشيخ من قدرة على الإتيان بالخوارق تشبع حاجة المجموعة في تفسير ظواهر الكون والشعور بالحماية والأمان. لذا تتكون صورة ذهنية بمعايير محددة للشيخ في الخيال الجمعي الشعبي. وقد تطرقنا في بداية هذا البحث إلى رؤية توضح أن هذه الصورة ليست صورة مستحدثة بل إنها صورة متناقلة، فالإرث الثقافي والذي يعتمد السحر والخرافة هيا للشيخ قالباً أسطوريا يجعل الإيمان به والاعتقاد فيه وسط مجموع السكان أمراً مسلماً به، وهي صورة متواترة ومتناقلة عبر المعتقدات والأديان بأشكال مختلفة، فقد تجسدت نفس المكانة قبلاً في الكجور والكهنة والسحرة، وانتقلت بشكل أو بآخر لتجسد في ولاية الشيوخ المسلمين بمختلف طرقهم.

من هنا جاءت قدرة الشيخ على القيام بأشياء تفوق أبعاد القدرة البشرية. تتمثل في المعرفة الإيحائية، والتي ترتبط في أذهانهم بمرتبة خاصة مستمدة من قوى الإله وصلته الشيخ بالإله، لذا يكون احترامهم وتبجيلهم للشيوخ كبيراً. وفي بيئة يسودها الجهل كبيتهم، وعدم استيعابهم للحدود التي وضعها الإسلام، والفرق بين الله والأنبياء والرسول والملائكة والأئمة، فلا غرو أن يكون احترامهم وتبجيلهم للشيوخ كبيراً فينقادون له انقياداً اعمى وتتحصر العلاقات وسط المجموعة على ما يشير به الشيخ دون أعمال للفكر أو الرأي.

عبر هذا التواتر للمعرفة تمثلت قدرة الشيخ في القيام بأفعال خارقة تتجاوز المعقول وما هو ضمن قدرات البشر في تجسيد نمطي للصورة التي يجب أن يكون عليها الشيخ، والتي ترتبط في أذهانهم بمرتبة خاصة مستمدة من تفضيل إلهي وصلته مباشرة بالإله، تضع الشيخ في مصاف القدسية ويحظى بقدر كبير من الاحترام والتبجيل. إن سيادة هذا المفهوم في بيئة يسودها الجهل والأمية يؤدي بالضرورة إلى عدم استيعاب الحدود التي

وضعها الإسلام، ويؤدي إلى عدم استيعاب الفرق بين الإله والأنبياء والرسل والملائكة والأئمة.

أن هذا الواقع والإيمان بالشيخ فقط يلغي بشكل تلقائي مكانة الرسل والأنبياء والملائكة في حياتهم. وهو ليس إلغاء حقيقيا ومتعمدا لأنهم في واقع الحال آمنوا بكل ما وصلهم من معرفة إيمانية إسلامية، وهو فهم - كما سبق وأشرنا - محدودا بمعارفهم وقدراتهم المحدودة.

هذا ولأن عباداتهم تقتصر على سلوك الطريق ومحاكاة الشيوخ واللجوء إليهم، ولم تكن تستند على العلم والاستتارة، فإننا نجد أشعارهم لا تتطرق إلى ذكر الأنبياء والرسل إلا في إشارات متفرقة، بينما يغلب على هذه الأشعار التحدث عن الشيوخ. لذا فإننا وعند مقاربة هذه الإشارات القليلة وربطها بظرفها التاريخي والمكاني نستطيع أن نؤكد تأكيدا قاطعا بوحدانيتهم وإيمانهم بالأنبياء والرسل والملائكة وأن محمدا هو خاتم الأنبياء، إلا أن حياة البدواة والجهالة التي عاشوها هي التي تلغي الوجود الفعلي والمؤثر لكل ما يتعدى الشيخ في حياتهم المعيشية اليومية.

يؤكد هذا هيلسون بقوله: إنه يجب تجاهل ما قاله نعم شقير من أنهم يعتقدون بأن نبيهم هو أبو جريد، لأنهم لم يخرجوا عن الإطار الإسلامي لدرجة أن ينفون نبوة محمد وما أتى به من تعاليم. وكما يقولون هم فإنهم ليسوا جناحا أو ملة، إنما هي طريقة وقد قالوا "نحن مسلمون نؤمن بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن الصلاة فريضة فرضها الله علينا كما الزكاة وصيام رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا".^{٣١٠}

وعلى الرغم من ذلك فإن طريقة الزبالة تفردت دون غيرها من الفرق الدينية باختلافات عديدة، سوف نتابعها ضمن هذا البحث إلا أن أغربها ما هو متصل بعلاقتهم بكتاب القرآن، فقد تأكد لنا وبصورة قاطعة إن كتاب القرآن لا يعني شيئا بالنسبة لهم، وهم لا يعرفونه ولا يعتقدون فيه، ويقال أنهم كانوا يسمونه بأبو رقيط، وقد حاولنا معرفة كنه ذلك دون جدوى وذلك لما يحمله من دلالات سلبية عندما يتصل الأمر بإيمانهم،

٣١٠ هيلسون، المصدر السابق، ص ١٨١.

ويحق لنا التساؤل فهل كان لذلك علاقة بجهلهم وأميتهم وبعدهم كقبائل رعونية عن كل ما هو متصل بالعلم والتعلم؟.

أما فيما ذكره جيوفاني^{٣١١} الذي زارهم في العام ١٨٥٥م عن نمط حياة الشيخ، فليس هنالك ما يدل على تميز الشيخ بمكانة غير عادية، وعلى الرغم من أن جيوفاني يصف مدى احترام وحب المجموعة للشيخ إلا أن شيخهم يعيش كما يعيش بقية الأفراد، إذ يخرج معهم لرعي الماشية ويقوم بدوره كاملا في العمل من جهة ومن جهة؟ أخرى يؤدي دوره في أسرته. وهو على غير عادة الشيوخ في الطرق والفرق الأخرى ليس متفرغا لدوره الديني والقيادي على الرغم من أنه يكتسب لدى أتباعه مكانة أعلى في حياتهم الاجتماعية، إذ أن الزبالعة يعتمدون على شيوخهم في كل شيء الأذن بالزواج ومباركته، ملازمة المريض، ومباركة المولود الجديد، والميت وقبر الميت، والتعوذ لهم من الشيطان الكبير والشيطان الصغير، ويسألونه مباركة الأرواح الطيبة لهم.

أما الدكتور حسن الفاتح قريب الله فيقول: "إن موقف أبي جريد الصوفي لا يختلف كثيرا عن موقف أبي دنانة، ويكفي أن أشير هنا في الدلالة على إحضار أسبقيته إلى اضطراب الروايات التي أشارت إليه فجعلت منه مرة شخصا لا صلة له بالإسلام والمسلمين لإدعائه النبوة بعد سيدنا محمد "ص" وجعلت منه مرة أخرى شخصا صوفيا يبالغ في احترام النبي وإجلاله مثله في ذلك مثل بقية الصوفيين".^{٣١٢}

وعلى الرغم من أنني لم أجد في الروايات الشفاهية لأحفاد الزبالعة ما يشير إلى أي إدعاء من قبل الزبالعة بنبوة أي من شيوخهم، إلا أن صبغة النبوة التي أطلقها البعض على شيوخ الزبالعة ارتبط فقط بأبي جريد، والشيخ أبكر مؤسس الطريقة إلى حد ما، ولم تطلق على من خلفهم من شيوخ ولا حتى الشيخ كرين الخليفة الثالث. إن ما أثير حول مسألة النبوة وربطها بكل من أبو جريد والشيخ أبكر تؤكد أن ذلك حدث فقط في بداية نشأة الطريقة، وهذا الأمر في رأيي يمكن أن يكون مرتبطا بالعديد من المسببات

٣١١ وصف بلتريم في ١٨٥٥ أي بعد ما يقارب القرن من بداية الطريقة وبعد ٥٥ عام من كتاب طبقات وضيعف الله .

٣١٢ حسن الفاتح قريب الله، المصدر السابق، ص ٢١٩ - ٢٢٠.

وأكثرها ترجيحاً هو أن مثل هذه الرواية يمكن أن تكون جزءاً من الحرب الشرسة ضد الطريقة من قبل رجال الدين وباقي الطرق الصوفية، وسبب آخر محتمل يتمثل في المكانة التي اكتسبها أبو جريد في الخيال الجمعي لما آتاه من معجزات وأفعال خارقة للعادة حسب ما أشيع عنه، ومن ثم هنالك دائماً ما هو مرتبط بغلاة التابعين وسعيهم إلى تعظيم شيوخهم.

ومن ضمن المصادر التي تشير إلى إيمانهم بنبوءة شيخهم أبو جريد المؤرخ نعوم شقير، والذي يتحدث عن الطريقة باعتبارها ملة خارجة عن الدين الإسلامي لا تعرف غير أبو جريد نبياً، ولا تؤمن بختام النبوة لسيدنا محمد 'ص'، وينكر بأنهم يجتمعون للأنكار مساء كل أحد وثلاثاء ويريدون في أنكارهم "لا إله إلا الله أبو جريد نبي الله"^{٣١٣}.

ويخلص هيللسون في هذا الاتجاه إلى القول بأن صبغ صفة النبوة على الشيخ أبو جريد انعكاس للمبادئ المبالغ فيها للصوفيين الأوائل كالحلاج وقولته الشهيرة "أنا الحقيقة"، ويربط هيللسون ذلك بموروث ثقافي فارسي، ويستدل على ذلك بمقدمة ر. أ. نيكلسون في شمس التبريزي بأنهم يعتقدون "بأن المرء إذا ترك أمره لنفسه فسوف يحدد عن الطريق، لذا يجب عليه أن يختار له سيد ليقوده إلى الطريق الصحيح. هذا السيد هو ممثل الإله، أفعاله إلهية به شيء من روح الإله ولا تحتسب عليه الخطيئة فالظلام لا يأتي من الشمس ولا السوء من الإله، ويخلص هيللسون إلى القول "ولهذا يكون الصالحون في مكانة الأنبياء أو لهم قدرة سحرية، وهم خارج تقييد الدين والحدود والمثل أي ترفع عنهم التكاليف" وهي صرخة عالية من الحلاج وشمس التبريزي لقبيلة كنانة الرعوية في النيل الأزرق" ويختتم هيللسون كلامه عنهم بأن طريقتهم طريقة صوفية مغالية.^{٣١٤}

وفي رأيي فإن ما تردد عن قولهم إن أبو جريد نبي الله، على الرغم من أنه لا يعبر عن الجماعة ويتناقض مع إيمانهم المؤكد بالوحدانية وبالنبي محمد، إلا أن ذلك لا ينفي إمكانية حدوثه أحياناً من بعض المتعصبين المنتمين للطريقة في قمة انجذابهم الروحي

٣١٣ نعوم شقير، المصدر السابق، ص ٦٦.

٣١٤ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٨٤.

في ليالي الذكر، كما أنه يمكن أن يصدر من بعض الأتباع ممن يجهلون تفاصيل التعاليم الدينية لجهلهم وبدأوتهم ولانسياقهم الأعمى للشيخ دون سواه. وقد تملكنتي الحيرة وأنا استمع لنغم من أنغامهم لأنه يحمل في باطنه نقداً بائناً لبقية الشيوخ، فهل كان المقصود بالنبي في هذه المقاطع النبي محمد عليه السلام أم شيخهم أبو جريد، وتقول الأبيات:

أنا ببابي للغالي
للنبي جبر حالي
لا فكي ولا قاري
حاشا ما هو عنقالي
لا بيلملم أموالي
وللمضيقة حلالي.

هذا ويتفق معظم الذين كتبوا عن الزبالعة بأن أصل الطريقة شاذلي، وقد ذكر هيلسون^{٣١٥} بأنهم وفي رواياتهم الشفهية قالوا: "إن طريقتنا شاذلية تقوم على سلسلة قوية من التقاليد تصلنا عبر سيدنا وترجع مباشرة إلى الإمام الشاذلي".

وبالرجوع إلى ما ذكرناه سابقاً ومفاده أن طريقة الزبالعة لم تكن لها رؤية فكرية وفلسفية فإن محاولة إسناد مرجعيتها لطريقة محددة من الطرق التي تحمل رؤية فلسفية من الصعب إثباته. هذا لا يعني بالطبع انتفاء صلتها بأي طريقة أو عدم استفادتها مما توافر من تجارب، ولكنها طريقة تفردت بمحليتها وقد استفادت والنقطت من هنا وهناك من التشيع والتصوف والحركات الباطنية المختلفة، وعلى وجه التحديد الفكرة المهدوية وربما الطريقة الشاذلية بما توافر لدينا من معلومات ذكرناها في صدر هذا البحث عن أن آدم أبو جريد كان شاذلياً قبل أن ينتمي لهذه الجماعة.

ونخلص من كل ذلك إلى أن معتقدات جماعة الزبالعة لا تخرج في إطارها العام عن الإسلام، بل هي طريقة لها خصوصيتها الموضوعية ضمن الإطار الإسلامي العام. إن هذه الحقيقة تتضح بشكل جلي في أناشيدهم والتي يطلقون عليها النغم، وهي الأهازيج

٣١٥ أيضاً، ص ١٨٥.

التي اعتادوا على ترتيلها في ليالي الذكر وفي مناسباتهم العامة والخاصة، ومن قصائدهم التي تؤكد إيمانهم بالنبي محمد وبرسالته الإلهية هذه القصيدة.

الكلام ببداه والله دائما في بقا
والعليم هو البيدي
ما عليه من تعب
العزير نبي الهيبة
والجلوسه في طيبة
شوقي للنبي
العزير نبي الهيبة
والجلوسه في طيبة
شوقي للنبي
ما بكر يقول يا عمه
ما نزوحو بالضبهة
إسمه في الحروف بالحاء
نظرة في الرسول ما جاء
ناجا لمولاه اداه الدنيا والآخرة

.....

الله هو الكبير في علاه
هو المعمر الدنيا
أوجد الخلود برضاه

.....

النبيان مع الخلفاء
والرسول مع القطباء
وصبر على الجاياء
وحمد الله فيما أعطاه
أصبحت قریش مايباه
قالوا ده كلامه براه

سبعمئة سنة وعامه
عاد متين مشاها وجاء

وهذه المقاطع أيضا:

بسم الله للبداية
وبداية مو نهاية
العارف خطاي
بغفر لي أساي
شوقي وأشوقي
شوقي للنبي أي الهيبة
ختم الأتوار
ده سيدي نور طيبة

ومن أهانهم أيضا هذه الأبيات:

حجا بلا مدحور
واتوطا الحجل نغم الكريم مسرور
ياقمري يا وهاب بالغلبكم مسرور
زينا في الرجال لحقني عالي النور
لهم صلي على النبي المحبوب

وريني فزينهم للقدر محروس	ويوم ناجا الواحد القدوس
ونفر نفرته وفر منها النحسوس	ودوهو في السكري والناموس
لهم صلي على النبي المحبوب	
ما سدد رقد ما قال انهموا العمال	ويوم ناجا ود عصومة الدار
وسلطانا كبير يعونك الكرار	وما أردى مساكيننا ضعاف الحال
لهم صلي على النبي المحبوب	

ويوما ناجا ود عصومة السوق
وما أردى مساكننا ضعاف بحقوق
ما سد رقد ما قال أنهموا المخلوق
وسلطانا قديم ما ربحوك ام روق
اللهم صلي على النبي المحبوب

ومن قصائدهم أيضا

تسلم القلوب من أمنيات
لله الأمور بجن راجعات
بسم الله بديتا بكلمات
للطارح الأراضي والسومات
لا ليهو نسب ولا ليهو أبوات
جعل البعش والمات
تسلم القلوب من أمنيات..... لله الأمور بجن راجعات
سميت بمحمد أب رايات
يا كحل الغزال من الطبقات
محبوب الكريم حسيب الذات
آلاف السلام عليك ترد
تسلم القلوب من أمنيات..... لله الأمور بجن راجعات
الواطي والعظيم يوما جات
حاملين الرجال عليك قافلات
درويشهم بكى دموع الشتات
تسلم القلوب من أمنيات..... لله الأمور بجن راجعات
شميت ليك مهنا في الجنات
ليك نعيم القيامة مهديات
قفارة العبد وهو بالدرجات
مغفور ليهو البلايا والساعات
تسلم القلوب من أمنيات..... لله الأمور بجن راجعات

وينظرة فاحصة لهذه القصائد، فإننا نجد لها مشابهاً لأشعار بقية الطرق الصوفية السودانية في مدائحهم للنبي محمد وللرسالة النبوية ولشيوخهم. ونغم الزبالعة يردد باللهجة العامية السودانية. والنغم عند الزبالعة هي وسيلتهم للتعبير عن إيمانهم ومعتقداتهم وكل ما يتصل بحياتهم، وتنعكس آثار حياتهم البدوية في هذا النغم، وجل مظاهر عبادتهم وتبجيلهم لشيوخهم يترجم إلى نغم. فالشعر هو الوسيلة الوحيدة والأثر الأدبي الظاهر في حياتهم البدوية الجافة حيث تسود الأمية.

لقد اتسمت حياتهم بالخوف والأمل والترجي، والذي يبدو واضحاً في كلمات أنغامهم والطريقة التي تؤدي بها، والحب الجارف لشيوخ الطريقة من خلال هذه الأنغام التي كانت زادهم في مسيرتهم الطويلة ونمط عيشهم الشاق يرددها الأب والأم ويحفظها الابن من بعدهم.

هذه الحياة الجافة وغير المستقرة كان لها تأثيرها في التعبير عن معتقداتهم ولا تكاد تتفصل عنها، فالعقدة المرتبطة بحياتهم والخوف من المجهول ومحاولة استمداد الأمل وربط كل ذلك بمعتقدهم في الله والأرض والسماء وسر المجهول وسر القوة الكامنة في الإله، أفرز نتيجة حتمية تمثلت في حب عميق وجذب روحي لهذا الأمل والمتجسد أمامهم في شيوخ الطريقة، ويظهر ذلك جلياً في أن أفراد الطريقة صغاراً وكباراً إلى اليوم يتعاملون مع هذه الأنغام بصورة عاطفية مذهلة وجذب روحي عميق يظهر في شدة التأثير والذي يصل إلى مرحلة البكاء. هذه القصائد سمعناها من أحفادهم بمنطقة خدر ومنطقة سنجة وقد أورد منها هيلسون القصيدة التالية، والتي لا زالت متداولة بين الزبالعة وهي تصور تصويراً بالغاً مدحهم وتبجيلهم لشيوخهم.

خايفاك يا أبكر بلاي مالي مخافة
إت قائد قصة العرج أب تلي ولصافة
في رأس الشقاقيب البستر التافة
في الديور عبدا كعب ليهو مخافة

.....

خايفاك يا أبكر تلوي على بديرك

إبت محنة وقوي مالي وسيلة غيرك
كم عجزت عاجز بلباسك وخيلك
وكم قدرت قادر بالولي هل نشكر لك

.....

الشيخ أبكر عجي البريدو دولم
بحر للمالح لما بيقطعوا العوام
سيد رايات الحوج عليك السلام

.....

أولاد أبو جريد ما فيهم سفيها عاطل
أولاد أبو جريد ما اتخممت في الباطل
مين مثل أبورقاب غيرو بفش خاطر
مين مثل أبورقاب فوقنا رواقن ساتر

يقول هيلسون: "إن هذه النغمة لها خصائص مميزة فذكر جريد النخل التي ترمز لأبو جريد توجد في الفولكلور الإسلامي كمعجزة من معجزات النبي محمد "ص". ويقول ثم أن أسماء الإله والنبي وأبو جريد ذكروا على نفس المستوى مما يجعلنا نعتقد أن الثلاثة على نفس المستوى من التمييز ولا يمكن إلا أن نخلص إلى أنها انعكاس للمبادئ المبالغ فيها للصوفيين الأوائل" إن رأي هيلسون في ذلك بالرغم من أنه ذكره بشكل مجرد إلا أنه يتسق مع ما سبق وذكرناه عن مكانة الشيخ عند الزبالعة.

وفي قصيدة أخرى لهم تظهر ذات النغمة

البوب للنبي والبوب جبّو بالنم
وأوجدي وكنت اطرى الرشيد آدم
الجرجر نخيله وسيبانه برم
النجم الحقيقة وما اشتغل بقلم

.....

البوب للنبي والبوب جبّته بالنم

وأوجدني وكنت أظري علي الله
الجرجر نخيله وسيسبانه برا
النجم الحقيقة وما اشتغل يقرأ

ومن قصائدهم التي تمجد أحد شيوخهم واسمه يحي وهو أبين للشيخ محمد ود بليلة

دوبا للمسرد الدين
والنعيم عفيف الكين
ليلة الغيومه تلين
والراجيك دوام ما بهين
قولوا يو.... قومة
ود بليلة ياالمخلوق للنعيم
دريا للمسرد الدين
يرزوا ادم الحنين
راسو هو الضكر ما بلين
يامنوا الخليل جبريل
قولوا يو.... قومة
ود بليلة ياالمخلوق للنعيم
دوبا للمسرد الحال
يرزوا ادم القدال
يوروثوا أبكر يا عيال
يامنوا علي الكرار
قولوا يو.... قومة
ود بليلة ياالمخلوق للنعيم
دوبا لضباحي الزين
يحي نور صباي العين
وأبكر فيه العجامة قمر الدير
قولوا يو.... قومة

ود بليلة بالمخلوق للنعيم
دوبا لصباحي اللاح
يحي في القبال نطاح
قولوا يو.... قومة
ود بليلة بالمخلوق للنعيم
يحي في بلود الريف
يحي في الصبح من خر
يحي يرفعه من تل
يحي في القيامة قتل
قولوا يو.... قومة
ود بليلة بالمخلوق للنعيم

وقد خلف يحيى ود بليلة ابنه النعيم... ومن قصائدهم أيضا للشيخ يحيى ود بليلة:
ليك دير ا

وفي الإشراق.. ليك دير ا
في العجامة البشرىوا التمباك
وليك دير ا زايد الأتراك
أنت يا يحيى ود بليلة جزاك
وليك دير ا في سفينة نوح
وليك دير ا
ليك دير ا تفتح الباطن المطروح
وليك دليلا متل دليل ملك الروح
وليك دير ا حفروا بيهو طوال العد
وليك دير ا قروا بيهو الصغار في المهد
وليك دير ا ات دليل ما النسب للجد

وفي قصيدة لشيخهم عامر يقولون:

يوه..اوہ عامر اوہ عامر
كفايتي عليك
عامر أرباب ما قرأ كتاب
أسقي الجاب ... جاب شيخ السادر اب
يوه..اوہ عامر اوہ عامر
كفايتي عليك
عامر أب سرور ... عامر الشملول
أنا فوقك بدور
راجل امات صقون
فوقك الحنول -
يوه..اوہ عامر اوہ عامر
كفايتي عليك
عامر من تب
ما خدم طلب
سلطان الرب
عامرك العجب
يوه..اوہ عامر اوہ عامر
كفايتي عليك
عامر سلطان
أب امرا بان
يسقي العطشان
شيخ أولاد عمران
يوه..اوہ عامر اوہ عامر
كفايتي عليك

وفي هذه القصيدة في مدح الشيخ رحمة دلالة هامة على ما قيل عن ميثاق الأخوة
الذي يربط بين أعضاء الطريقة إلى حد الانتماء المطلق لها ولشيوخها:

أب رحمة حلاتو
والثلاثة أبواتو
الفافر جاتو
دوب للماتوا
البلدو صعيد
شوقي ليك بزيد
دوب لرحمة دوب
أب رحمة بالمانجل
مقيم الليل
بزرع التيتيل
أب رحمة يا ولد
يا سليل المجد
شوقك ما برد
وجوك أب سند
ودوب لرحمة دوب
أب رحمة الخيار
خشمي فوقك قال
شيخ أولاد ثمار
همج وجبال
البلدو صعيد
ودوب لرحمة دوب

وقصيدة أخرى:
دوبا للبشير
شيخي القائم الليل

يأبأ ودوبي للنار قنديل
أنا قلت قولي عدل
العاقل المو هبيل
أب قلبا موسفيل
العاديك بحر النيل
سموك بشير الجيل
دوبا للبشير دوبا
أنا قلت قولي أنا
صايمة وقايمة
للماهو نايمة
كم يتيم رياهو
وكم سجين فكا هو
وكم مجنون داوا هو
دوبا للبشير دوبا
أنا قلت قولي صحاح
الفي القلب تجرح
يا ذرية الصلاح
ناس الود والنجاح
ويقفاك يا أبو جباه
فوقنا الغرب تصاح
دوبا للبشير دوبا

وأيضا هذه القصيدة بقدر ما تحمل دلالات عميقة على إيمانهم بالطريقة والأخوة
المستمدة منها، فإنها تعكس أيضا تطلعاتهم وارتباطهم بطريقة تستوجب العناء لمن يود
الالتحاق بها في وصف أراه يحمل الكثير من طبيعة حياتهم الرعوية القاسية.

وأكرمي من ده العقتو قوية
والدرب انحبس بالشايلينو من ريا "رياء"

الدرب انحبس والله ويا وكدوا علي
الدرب انحبس فرز النجيب والنيئ
يهوكم على درب الإله الحي
وتمشوا في المراهي تتبعوا أم هي هي
وإنشاء الله بس كيا مخلف كي
وأكرمي
الدرب طويل قاسي المصال

الدرب انحبس والله يا مخلوق
الدرب انحبس تعب أم نسلة ضوق
الدرب انحبس عند آدم المعتوق
يا دوب الثلاثة عشان تعمروا السوق
دايرين ولدا عند الله شقوق
جاء دار نعوم ترك العوالي فوق

الدرب طويل قاسي المصال
من حر الدين برن الجمال
الدرب طويل قاسي عتومور
لا هو ليال لا سنة بتكور
لا هو ركوب بنعال لا بلدا مخبور
والمسيرة تطول
قول بالشملول
الدرب طويل قاسي المصال

الدرب طويل قاسي المصال
لا هو ليال لا سنة بتكور
لا هو ركوب لا مشي بنعال
أسلموا من قال وقال

بطلوا الأعمال
وتزلوا الأحرار
الدرب طويل قاسي المصال

الدرب طويل يالقسيم اخوي
الدرب طويل يالمني عنوي
البرم الديز من ولي وهنوي
الدرب طويل قاسي المصال

الدرب طويل
والنهار سرج
الباركة رموث الشائلة رمث
قلبي ما ثبت
وعيني للحرث
الدرب طويل قاسي المصال

الدرب طويل من حر الدين
الدرب طويل بفرز واحد
النحاس يرن قدل المؤمنين
وأكرمي
الدرب طويل قاسي المصال

ومن أهازيجهم أيضا في شيوخهم:

دوبا للدبارة نليل
دوبا للطريقة عدل
أب سرور جبيرة الغيل
براك بقاي ما بسير

دوبا للكرام دوبا
ونعمة الله راضي من البسروني
دوبا للكرام دوبا
ودوبا لمعانيهم
ودوبا لسواسيهم
يوم يصيح مناديهم
والكريم مولاهم
دوبا للكرام دوبا
ونعمة الله راضي للبسروني
دوبا للكرام دوبا
ودوبا لعجب عيني
ودوبا لأب طريقا كي
الفي الديور واللي
نقش الصي
دوبا للكرام دوبا
ونعمة الله راضي للبسروني
دوبا للكرام دوبا
ودوبا لأبكر يا سيد
دوبا لأب صباحا عيد
أدم الحنين ورشيد
بركز عندك
ما بحيد عن كرين
دوبا للكرام دوبا
ونعمة الله راضي للبسروني
دوبا للكرام دوبا

ونص هذه القصيدة في تمجيد الشيخ البشير وهو بناء على رواية الرواة ابن للشيخ
آدم أبو جريد:

برق البريق تالاي
وأشوقي فارق البطراي
وأشوقي من تماهو جنائي
وأشوقي دوب الليلة دوب
وأشوقي لبشيري الليلة دوب وأشوقي
برق البريق روري
وأشوقي زارني الخريف وأشوقي
أسيادي وللشريف
وأشوقي
وأشوقي سامحوني بخفيف
دوب الليلة دوب
وأشوقي لبشيري الليلة دوب وأشوقي
برق البريق قبلي
وأشوقي طراني البكري وأشوقي
بريدو في قلبي
وأشوقي دة سيد أبو الرضى
دوب الليلة دوب
وأشوقي لبشيري الليلة دوب وأشوقي
برق البريق قدام
وأشوقي طراني الكرام
بلول أبو عقلا تام
وأشوقي لبشيري أبو الإمام وأشوقي
دوب الليلة دوب

وهذه القصيدة أيضا في تمجيد الشيخ البشير

دوبا للبشير

شيخى القايم الليل

يأبا ودوبي للنار والقنديل

أنا قلت قولى عدل

من هنا نستطيع أن نجزم بأن شيوخ الزبالعة يمثلون مدد روجي هام ومؤثر لدى الجماعة، إلا أن هذه المكانة للشيوخ لا تتصل برؤية فلسفية وإدراك واع، بقدر ما هي انعكاس لواقع مداركهم المحدودة، وقد ذكرنا سابقا إن تبجيلهم للشيوخ، والاعتماد الكامل عليهم، والتلقي منهم والالتقياد لهم، لا ينفي إيمانهم بالله وتوحيده وبالرسل والأنبياء بقدر ما هو تأكيد لحاجتهم للشيخ كحقيقة ملموسة ومحسوسة يستمد قوته من الإله وليس بديلا عنه.

معتقدات للزبالعة من أذكارهم:

الحديث عن الزبالعة يتطلب للفصل بين مرحلتين أساسيتين في تاريخهم، المرحلة الأولى هي الفترة منذ إعلان أبكر للطريقة وحتى قيام الدولة المهدية، والمرحلة الثانية هي الفترة بعد المهدية.

ففي المرحلة الأولى كانت ممارسات الطريقة منتظمة بذات الشكل الذي تنتظم فيه الطرق للصوفية، حيث يتجمعون للذكر بصورة دورية^{٣١٦}، يقول هيللسون: ^{٣١٧} "إن حلقات الذكر كانت تقام مرتين في الأسبوع في كل من يومي الجمعة والاثنين. بينما يحدد نعيم شقير يومي الأحد والثلاثاء كأيام لتجمعات الذكر. يقول هيللسون: وإلى جانب ذلك، فإنهم يقيمون حلقات الذكر في كل مناسباتهم، كالزواج والولائم وعودة المسافرين وشفاء

٣١٦ حدثني أحد الرواة عن وجود طريقة مشابهة لطريقة الزبالعة في منطقة الحبشة على الحدود السودانية، يقوم عليها عرب يرجعون بنسبهم إلى بني أمية وتدعي الشناشنة، وهم يشابهون الزبالعة في كل ما ورد عنهم، وعندهم فإن البنت البكر تترك في الخلاء ولا يقرها زوجها إلا بعد أن يأتيها شيخهم "شيطان" في هذا الخلاء.

٣١٧ أيضا ص ١٨٥.

المريض.. الخ، وفي كل الأحوال فإن إقامة أنكارهم في أي من الأيام المذكورة يختلف عن بقية الطرق الصوفية في السودان فالقادرية وهي الطريقة الأكثر انتشارا في السودان يقيمون أورادهم في ليلتي الجمعة والأحد أي يومي الخميس والسبت.

وعلى الرغم من أن طريقة الزبالعة طريقة متفردة وقائمة بذاتها إلا أن بعض الروايات تنسب أورادهم إلى الطريقة الشاذلية، وهم يدعون بأن طريقهم كان شاذليا في بداية الأمر ثم سلكوا بعد ذلك طريقة أبي جريد، لذلك فإن معظم المؤرخين يدرجون طريقة أبو جريد تحت الطريقة الشاذلية.^{٣١٨}

وفي وصف هيللسون لأنكارهم يقول بأنهم في أنكارهم يرددون التالي مثنيتين مرة "استغفر الله، الصلاة على النبي، سبحان الله، لا إله إلا الله والله أكبر". ثم يعرجون بعد ذلك إلى مدح النبي وشيوخهم. ومن ثم ينقادون تدريجيا في حالات جذب روحي يرددون خلاله وبأصوات عالية كلمات غير مفهومة مثل "هو ال يد هل هل هو" وتعابير مماثلة لتعطيم الحماس والطرب اللازمين، ويحدث أن أحدهم يترك مكانه ليكون وحده ويبدأ يتكلم، يقول شيخ أبو القاسم: إنه سمع أحدهم في غمرة حماسه يقول: "الشاك فيهو مشكاك".^{٣١٩}

هذه اللغة التي يستخدمها أتباع الطريقة في حالات الجذب تكتسب مكانة خاصة لدى أتباع الزبالعة، فهم يؤمنون بأن أبكر تعلم هذه اللغة من الملائكة. وهي لغة تأتي بشكل تلقائي في حالات الجذب الروحي، هذه الحالة من الجذب الروحي لدى الزبالعة تماثل حالات الجذب الروحي عند كافة الطرق الصوفية، كما يدعي بعضهم أيضا أنهم في حالات الجذب يتحدثون لغات أجنبية كالسبائية والعبرية وغيره بالرغم من أنهم يجهلونها في حياتهم العادية.^{٣٢٠}

٣١٨ انظر الفاتح قريب الله وترمنجهام المراجع السابقة.

٣١٩ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٨٥

٣٢٠ أيضا ص ١٨٦.

كما إن الإدعاء بأن الذاكر في الحلقة تتضح له بعض الأشياء الغائبة عنه هو أمر شائع أيضا كظاهرة فردية لدى بعض أتباع معظم الطرق الصوفية، فمنهم من يؤمن أو يدعي بأنهم وفي غمرة حالات الجذب الروحي وفي لحظات كشف وتجلي يستطيع المتصوف أن يرى ويأتي بما هو دون إدراكه في واقع الأمر. ويختلف الزبالعة عن باقي الطرق في أن هذا الأمر له أهمية خاصة لديهم، ويعتقدون بأن اللغة المستعملة في حالات الجذب عندهم هي لغة خاصة بهم توارثوها من خليفاتهم أبكر الذي تعلمها من الملائكة.

ما ذكره هيلسون يدل على أن الذكر بأوراده الشاذلية كان مستمرا حتى عهد قريب أي استمراره خلال فترة المهدي ومرحلة الحكم الإنجليزي - أي حتى - منتصف القرن التاسع عشر. إن ما ذكر من ربط بين طريقة الزبالعة والطريقة الشاذلية، ربما يكون مرده أن آدم أبو جريد قبل أن يصبح تابعا لأبكر كان شاذليا.. غير أننا لا نستطيع أن نؤكد هذا التأثير بالطريقة الشاذلية أو ننفيه، ولكن من المؤكد أن الطريقة استفادت من كل الموروث والمعاصر من ثقافات في تلك الفترة، وبما أننا أكدنا قبلا أنها لم تكن طريقة ذات رؤية فلسفية أو جدلية فإن تأكيد ذلك ومطابقته بصورة جازمة يبدو أمرا مستحيلا. بينما نستطيع بناء على ما أورده هيلسون أن نؤكد بأن الأثر الشاذلي قد تجلى في أورادهم.

أما ما ذكره جيوفاني^{٣٢١} والذي زارهم في العام ١٨٥٥ فيدل على أنه ليس هنالك سلوك منظم للعبادة كحلقات للذكر وغيره، وأنهم بدو رحل يجهلون الإسلام، وطريقتهم في العبادة زاهرة بالأساطير، وعلى الرغم من ذلك فإنه يشير إلى بعض المظاهر الإسلامية والتي تتضح في الإيمان بأن الله واحد وموجود في كل مكان وزمان والإيمان بالقضاء والقدر وطريقة تبادل التحية ويختم جيوفاني حديثه بالقول: "إن سلوكهم العام يرتبط أساسا ببقايا عبادة قديمة للشمس والنار".

إن ما ذكره جيوفاني على الرغم من أنه يأتي في وقت لاحق لتأسيس الطريقة بما يقارب المائة عام، إلا أنه يتطابق إلى حد كبير مع تحليلنا ورؤيتنا حول افتقار طريقة الزبالعة للعلم والمعرفة والموضوعية، كما أنه يؤكد ما تجمع لدينا من معلومات لا زالت

٣٢١ أنظر جيوفاني المصدر السابق

متواترة في المناطق التي انتشرت فيها الطريقة بعد أكثر من مائة عام. وجيوفاني يؤكد أيضا ما سبق وأشرنا له من اعتقاد لهم بأنهم أتوا من حيث تشرق الشمس، والتي يجسدونها في بعض عاداتهم، ففي دفن الميت فإنهم يوجهونه صوب المشرق. إن هذه التفاصيل على صغرهما فإنها في رأيي تكتسب أهمية خاصة لما لها من مغزى ثقافي وتاريخي، وهو تأكيد لما سبق ذكره عن أن الإرث الثقافي المحلي والأسطورة والخيال الشعبي وما تجمع لهم من مدارك ومعارف مرتبطة بالاعتقاد والعبادات والممارسات انعكست بشكل أو بآخر في ممارساتهم.

وخلاصة الأمر أن حلقات الذكر عند الزبالعة أو ما تسمى بالحضرة تعتمد على الأوراد ثم ترديد النغم في مدح النبي بتركيز أعلى على مدح شيوخهم وتبجيلهم وتقديسهم. وتؤكد كافة المصادر المكتوبة وغير المكتوبة "الشفهية"، بأن حلقات الذكر كانت تقام دوريا في المرحلة الأولى منذ سلطنة الفونج، مروراً بالدولة التركية، ثم قيام المهديّة حيث انصهر الزبالعة تحت راية المهدي، فلم يبق من حلقات الذكر هذه سوى النغم، يرددونه في كافة تجمعاتهم وهو مستمر إلى اليوم،^{٢٢٢} حيث لا زال منزل الشيخ وملحقه الخارجي للضيوف والمبني من القش مكان للتجمع في كل مناسبة وفي أوقات الفراغ.

ليالي الذكر والإباحة لدى الزبالعة:

لقد وصمت طريقة الزبالعة من ضمن ما وصمت به بأنها طريقة إباحية، فالمنقول عنهم في الرواية الشعبية وما كتبه بعض الكتاب يشير إلى أن حلقات الذكر التي كانت تعقد بشكل دوري ما هي إلا حفلات لممارسة المجون والإباحة الجنسية، إذ كانت الحلقات حسب وصفهم تبدأ بترديد النغم، وأنه فور انتهاء الإنشاد يتنادون قائلين: "أطفوا النور واكبسوا الحور"، ومن ثم يختار الشيخ أجمل امرأة لنفسه ويليه بعد ذلك بقية الأتباع.

٢٢٢ وقد كانت زيارتنا لهم بمعية الأستاذ الطبيب محمد الطيب والأستاذ محمد عباس فرصة للتجمع وللحديث والإنشاد.

يصف لنا محمد عبد الرحيم ليالي الذكر عند الزبالة فيقول: "يعقد الذكر في جنح الظلام بعد إنارة المكان في ليال معلومة من كل أسبوع، ويحضره كل الأتباع سواء في ذلك الرجال والنساء، وكانوا يلحنون الأناشيد الخاصة بهم، ويتواجدون على تلك النغمات، وبينما هم كذلك إذ يطفئ الرئيس المصباح، وهناك يأخذ كل رجل التي تليه من النساء حيث يباح له وطؤها، ويعد الفراغ يكون ذلك خاتمة الاحتفالات"، ويضيف "أما الأناشيد فتدل بوضوح على أن تلك الضلالة مقتبسة من مذهب أهل الشيعة"^{٣٢٣}.

إن ما ذكره محمد عبد الرحيم هنا واتساقا مع رؤيتنا التي حاولنا شرحها في تسلسل تفصيلي جعلنا نؤكد بأنه من المستبعد أن تكون لطريقة الزبالة رؤيا فلسفية، إذ أن الحركات الباطنية المغالية والشيعة ترفع مكانة الإمام إلى حد رفع التكليف عنه، وهو ما لم أتوصل إليه أو أجده بشكل صريح عند الزبالة. بل أن لفظ كالإمام على أهميته لدى الشيعة لم يكن يطلق على شيخ الطريقة، نؤكد على ذلك بما ذكره جيوفاني في فترة لاحقة عن أن الشيخ يمارس حياته كبقية أفراد المجموعة على الرغم من القدسية التي كانت تحيط به.

هذا ومن المهم بمكان الإشارة إلى أن ما تجمع لدينا من وصف للطريقة من بعض المؤرخين، والإشارات الوصفية الواردة في كتاب الطبقات، والرأي السائد حول المجموعة، يوضح بجلاء البون الشاسع بين الطريقة والرؤى الفلسفية للشيعة أو لغيرها من فرق تحمل رؤى باطنية فلسفية. إن ما ذكر من وصف للطريقة لا يؤشر إلى وجود تنظيم ديني.. والوصف الشائع وسط مجموع السكان والغالب يشير إلى أنهم أقرب إلى السحرة الذين يستخدمون قوى خفية لقضاء حوائجهم وحوائج من يلجئون إليهم، كما أن ليالي الذكر المذكورة أقرب إلى الحفل الوثني منه إلى العبادة الروحية، ولم نجد في تتبع سيرتهم أي ملولات لصلة لهم بأي فكر أو رؤية فلسفية إسلامية.

وعلى الرغم من أن ما يذكره محمد عبد الرحيم عن الإباحية باعتبارها سلوك محقق لختام ليالي الذكر لم أجد ما يثبت أو ينفيه، إلا أن الجزء الأول من وصفه والخاص بكيفية الذكر يمثل صورة أكثر واقعية لما كان يتم فعلا، مقارنة بما سعيينا إلى

٣٢٣ محمد عبد الرحيم، المصدر السابق، ص ١١٧.

تأكيد في هذا البحث عن طبيعة انتشار الإسلام بين البدو وجهلهم بالإسلام، وبالقُرآن، وبالسنة، وجهلهم أيضا بأنواع الأوراد المنتشرة بين بقية الطرق الصوفية، كما يبرهن بوجه خاص على أن الجزء الأساسي في ممارستهم للعبادة أثناء ليالي الذكر المذكورة هو اعتمادهم على الأناشيد أو النغم وما يحدث خلال ذلك من استلاب وانجذاب روحي.

ونرجو أن نؤكد أن هذه المظاهر سواء كانت فردية أو تصدر عن مجموعة، فإنها لا تنفي رأينا القطعي في أن جماعة أبو جريد هي طريقة تأسست ضمن الإطار الإسلامي، وضمن معطيات ومقومات انتشاره في تلك الفترة، ولم تكن ملة خارجة عن الإسلام سواء إن كان ذلك عن جهل أو بوعي مدرك.

يقول هيلسون بخصوص الإباحة الجنسية: "إن الإباحة الجنسية في الذكر من الصعب نفيها أو إثباتها فبعضهم يقول بأن ذلك يحدث أسبوعيا بعد الذكر مباشرة، بينما يقول البعض بأنه يحدث مرة في العام في اجتماعهم السنوي في شهر صفر"^{٢٢٤}. ويذكر هيلسون بأن سكان خدر قد اعترفوا بأن وطء النساء في حلقات الذكر ربما كانت موجودة قديما، وهو ذات الأمر الذي تكرر أثناء مقابلاتنا مع أحفاد شيوخ الطريقة، فلم نجد منهم من ينفي ذلك كما أنهم لم يؤكدونه.

وهناك حقيقة هامة لأبد من تحريها عند النظر إلى مسألة ليالي الإباحة هذه، وهو إنفراد جماعة الزبالعة بتعامل مختلف مع النساء، حيث كان للنساء حق الانضمام للطريقة ولهم ما للرجال من واجبات وحقوق، وكانوا يشاركون في حلقات الذكر بذات القدر الذي يشارك به الرجال، هذا وقد ذكر شاهد عيان في فترة متقدمة ربما أواخر الفترة المهدية على أنه حضر حلقة للذكر مختلطة نساء ورجالا كانوا ينشدون بتأثر وبكاء شديدين. يقول هيلسون على لسان شيخ أبو القاسم: "إن كل نسائهم (أي نساء الزبالعة) يحضرن الذكر، وكل امرأة تأتي معها بدلكة ودهن وكان عنقريب الشيخ يوضع عادة خارج حلقة الذكر، وهو يختار امرأة منهم لتدهنه وتلكه، والمرأة المختارة دائما ما تقتخر بذلك، وربما تفعل ذلك امرأة ثانية وثالثة على حسب طلب الشيخ، وهؤلاء يبقون مع الشيخ

٢٢٤ هيلسون، المصدر السابق، ص ١٨٦.

لخدمته وإحضار ما يلائمه من قهوة وشاي.. الخ"، ويذكر هيلسون على لسان الرواة بأن بقية النساء يشتركن في الرقص في حلقة الذكر ويلبسن أجمل الثياب ويتعطرن.

إن المتمعن في وضع وعلاقة المرأة في طريقة الزبالعة ومقارنتها بوضع المرأة في مختلف الطرق الصوفية يجد أن هنالك اختلافاً واضحاً وبوناً شاسعاً، حيث تتساوى المرأة لدى الزبالعة مع الرجل تماماً، لأنه وعلى الرغم من تواجد النساء في حلقات الذكر في كافة الطرق الصوفية السودانية إلا أن وجودهن يرتبط فقط بخدمة الحلقة من إعداد وتقديم للطعام والشراب في مكان مخصص لإعداد الطعام بعيداً عن مكان إقامة الحلقة.

من هنا نستطيع القول بأن مشاركة المرأة في الانضمام للطريقة بذات القدر الذي يتوفر للرجل، ومشاركتهم في حلقات الذكر وما ورد من تعامل خاص مع الشيخ في رواية الشيخ أبو القاسم لهيلسون هو أمر مؤكد ويفتخر به أحفاد الزبالعة إلى اليوم.

إن ما يقال عن ليالي الذكر الإباحية هو أمر قد شاع عنهم، ولم أتوصل إلى حقيقة قاطعة حيال ذلك، وبالتالي فإنه لا يمكن نفيه أو إثباته، غير أن الكثير من التساؤلات يمكن أن تطرح حول مدى صحته، وذلك لأسباب كثيرة على رأسها ما ورد في أشعارهم ومقارنة الروايات الشفهية لأحفاد الزبالعة والذين لا ينفون ذلك كما لا يقرون به. غير أنه ومن المؤكد فإن مقارنة واقعهم الحالي مع ما ذكر ثم ما كتب عنهم في فترات متأخرة لم تكن فيه إشارة إلى ذلك، فجبوفاني - والذي زارهم في العام ١٨٥٥ في العهد التركي- لم يذكر أي دلالة لوجود هذه العادة. كذلك هيلسون والذي كتب عنهم في العام ١٩١٧-١٩١٨، وكلاهما زارا المنطقة، كما أن ما جمع من أقوال شفوية في هذه الفترة من ١٨٥٥ وحتى ١٩١٨ بلا شك يتضمن الفترة المهدية. أما عن عهد الفونج فإن ود ضيف الله على الرغم من أنه ذكر الزبالعة مرارا في طبقاته غير أنه لم يأت على ذكر هذه العادة.

هذا وبنظرة مقارنة للأقوال المتداولة، والحوادث التاريخية المشابهة، والتي بقدر ما تؤكد مواجهة الطريقة لعداء سافر من جهات عديدة، فإنها توشر إلى الكثير من

الاحتمالات التي تلقي بظلال من الشك على ما أشيع عن الطريقة وحقيقة وجود هذه الممارسات الإباحية في ليالي الذكر وهي كما يلي:

(١) إن الطريقة لم تكن لها رؤية فكرية أو فلسفية، وإن كل مسوغات بقائها، وانتشارها، والولاء لها قد اعتمدت على صفات شيخها وقدرته على الإتيان بأفعال خارقة لدى أتباع الطريقة، ومن ثم ما يشاع حول ذلك.. بينما كان الآخرون ينظرون لها من منظار مختلف، وباعتبار أن ما يأتونه من أفعال ومعجزات تقع في باب السحر والاستعانة بالجن.

(٢) انتفاء ارتباط الطريقة برؤى فلسفية وبالتالي انتفاء إمكانية ربط ممارسة كهذه برؤى ليالي الإفاضة في الفكر الشيعي.

(٣) حقيقة أن الذكر كان مختلطاً يؤمه النساء كما الرجال، وهو فعل يتناقض مع تعاليم الإسلام لمن يعون ويدركون من خلال العلم والقراءة هذه التعاليم، وبلا شك فإن تصرفاً كهذا يكون مدعاة لجلب عدااء الطرق الأخرى التي تعي ذلك لهم.

(٤) إن وجود النساء مع الرجال في طريقة يغلب على ممارستها الإنشاد والجناب الروحي الخارج عن الحقائق الموضوعية لتعاليم الإسلام، يفتح الطريق لمهاجمتها وبث الظنون حولها.

(٥) الهالة الأسطورية التي أحاطت بمؤسس الطريقة الشيخ أ بكر الذي خرج على شيخه، ثم أبو جريد وارتباط خروجهم بتسخير الجن وتعلم السحر من الكهنة الوثنيين.

هذا وفي تتبعنا للأحداث المشابهة في التاريخ الإسلامي والسوداني وجدنا أن ظاهرة وصم بعض الطرق بالإباحية ليست ظاهرة جديدة في التاريخ الإسلامي، إذ أن الكثير من الطرق الصوفية المغالية وبعض الطرق الشيعية والطرق التي صنفت ضمن الحركات الباطنية قد وصمت بها في مراحل التاريخ المختلفة، وهي ظاهرة تكررت في تاريخ السودان الحديث حيث أنهم أتباع الطريقة العجيبة بشمال السودان بإقامة الليالي الإباحية في جلسات الذكر الخاص بهم، وفي بحثنا عن ذلك ومحاولة إسناده وجدنا أن الطريقة العجيبة كما طريقة الزبالة قد تميزت بمنح النساء وضعاً مميزاً، حيث تساوى النساء

والرجال في عضوية الطريقة، وحضور ليالي الذكر على الرغم من أن نهج الطريقة في ذلك حسب قول شيخهم العجيمي هو إيمانهم بحق النساء في أخذ نصيبهن من العلم والتعلم.^{٣٢٥} وقد نسب الشيخ العجيمي هذه الاتهامات إلى حدة التنافس والصراع الذي دار بينهم وبين الختمية في المنطقة الشمالية باعتبار أن مرد اتهامهم بالإباحية هو العداء الناجم عن رفض هذه الوضعية للمرأة وعدم قبول الآخر.

وبالرجوع إلى ما ذكرناه في الفصل الثاني عن الحركات الباطنية في الإسلام، والتي عمدنا فيها إلى دراسة الطرق الباطنية دراسةً مستوفية تبين وضعها الديني والسياسي والاجتماعي ومدلولها في الواقع المعاش، يتضح لنا أنه وبالرغم من الرؤية الفلسفية لرفع التكليف عن الإمام إلا أنه ليس هنالك ما يؤكد أن هذا الرفع قد وصل حد الإباحية التي وصمت بها تلك الطرق. وأن هنالك عدة أسباب تكمن خلف هذه الاتهامات والمبالغة فيها من أهمها العداء مع السلطة الحاكمة، ومع المجتمع من حولهم وعلى وجه الخصوص دعاة الظاهر، وحقيقة الأمر أن العداء السافر لأهل الباطن كان له أثر كبير في تهويل وتأويل ممارسات هذه الحركات تشويهاً لسمعتها مما يجعل أمر التفريق بين ما هو حقيقي وما هو مدسوس أمر صعب للغاية.

وفي تحري هذه التجربة للحركات الباطنية وربطها بما حدث لطريقة الزبالة فإن تساؤل هام يبرز حول أي مدى كان عداء الحركات الصوفية والسلطة الحاكمة لجماعة أبو جريد دور في السعي إلى نشر الكثير مما ورد عنهم، ومن محاولات لتشويه صورتهم وما ذكر من وصم لليالي الذكر عندهم بالإباحية والبعد عن الإسلام؟ إن واقع الحال يؤكد العداء السافر الذي قوبلت به الطريقة من رجال الدين ومن الطرق الصوفية المختلفة، كما أن هنالك من الدلائل ما يشير إلى إمكانية وجود عداء بين هذه الطريقة والسلطة الحاكمة من جهة أخرى ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

(١) جويته جماعة أبو جريد بعداء سافر من قبل الدولة، وقد تطرق محمد عبد الرحيم إلى الحروب التي شنتها الدولة للقضاء عليهم والتي وصلت حد تكوين مجلس علماء لمحاكمتهم.

^{٣٢٥} وقد سجلت مع الدكتور عبد الله علي إبراهيم للشيخ العجيمي بمقره بالخرطوم الذي كانت وجهة نظره أن ذلك كان نتاج للصراع المذكور .

(٢) اكتسبت الطريقة عداء كافة الطرق الصوفية الموجودة حينها، فما ذكر في كتاب الطبقات يؤكد بأنها جوبهت بالعداء من قبل كافة المؤسسات الدينية الموجودة.

(٣) وربما يكون من عوامل العداء حقيقة أن انتشارها كان بين البدو الرحل، وما يتأتى من ذلك من اختلاف وفرق يؤثر على العلاقة بينها وبين الطرق الصوفية التي انتشرت في الأحزمة النيلية وللزراعية.

(٤) ما يذكره خلفاء وأحفاد الطريقة الآن في المناطق التي زرنها، وما ذكره هيلسون عن أن العداء ناتج أساسا من كثرة تزايد أتباعهم دون الطرق الأخرى مما جلب لهم عداءها.

(٥) وأخيرا ربما كان لخروجهم عن الجماعة بأي وجه من أتوجه التي نكرت، ومن بين ذلك الصورة التي تكونت عنهم في الذاكرة الشعبية، والتي ربطتهم بالتواصل مع عوالم خفية هي التي تحقق لهم مرادهم، والتي يدخل ضمنها إلحاق الضرر بمن يريدون إلحاق الضرر به، وما سوف نتطرق له لاحقا عن أن شيخهم الأساسي من الشياطين والأساطير المتصلة بذلك.

وحق لنا أن نتساءل، هل كان الصراع والعداء بين طريقة الزبالعة وباقي المؤسسات الدينية في السودان نموذجا آخر للصراع الذي كان قائما بين المتصوفة والعلماء؟ فقد أوردنا في الفصل الأول أن معظم شيوخ الطرق الصوفية قد تلقوا دراسات فقهية في بداية حياتهم، وقد تطرقنا إلى بعض مظاهر هذا الصراع وأثبتنا أن نتيجة الصراع بين الفقه والتصوف كانت تحسم لصالح التصوف، إن مقارنة ذلك بواقع الحال الذي كان عليه الزبالعة وما اتسموا به من أمية وجهل بالقراءة انعكس في عدم معرفتهم أو اهتمامهم بكتاب القرآن، فإن هذا يبدو مبررا كافيا للصراع بينهم وبين الشيخ فرح ود تكتوك والذي كان ذا موقف نقدي ثابت تجاه الإسلام الشعبي والمؤسسات الصوفية التي سادت حينها. إن تتبعنا اللاحق للصراع بينهم وبين الشيخ فرح ود تكتوك يؤكد عجزهم اللغوي والمنطقي تجاه نحض آراء الشيخ فرح تجاههم. وهذا الجدال الذي دار مع الشيخ فرح ود تكتوك بلا شك هو صراع بين الإسلام الشعبي والفهم الإسلامي عند الشيخ فرح ود تكتوك والذي انتهى بحد اتهامهم بالضلالة. وما يثير الدهشة حقا حول هذه المناظرات - حسب ما ورد إلينا من

معلومات ومقارعات- هو خلوها من ذكر الليالي الإباحية أو ذم لهم بسببها. ومن بين الأقوال الشهيرة للشيخ فرح ود تكتوك عنهم:

يا أبان طريقة مضلة يا أبان عملا ما هو لي الله
وقت العنقريب فوقكن انبله ما بنفعكم كرين ود عبدالله

مما لا شك فيه فإن جماعة الزبالعة قد جوبهوا بعداء واسع وسافر، يرده أحفادهم اليوم إلى استئراء الطريقة وانتشارها الواسع والسريع، وهو عامل لا بد من الانتباه إليه وعدم تجاهله في ظل تحليل أسباب العداء السافر الذي جوبهت به الطريقة. وفي قصة السلطان عبدالله ود عجيب مع الشيخ خوجلي التي تطرقنا لها سابقا دليل على ذلك. وهناك حقيقة هامة لا بد من ذكرها، وهو أن العلاقات بين الطرق الصوفية وشيوخها في ذلك الوقت قد اتسمت بالصراع والتنافس وهو أمر يمكن استيعابه في ظل ما ذكرناه سابقا عن الارتكاز إلى شخصية الشيخ بشكل مطلق وموالاته بناء على هذه السمات الذاتية، مما يجعل مثل هذا الصراع بعيد كل البعد عن العقلانية، لقد أفرز هذا الواقع انتشار واسع للصراع والتنافس بين مختلف الطرق الصوفية، وكان للأتباع دور كبير في إشعال فتيله.

إن مسوغات العداء التي جوبهت بها طريقة الزبالعة يمكن أن يكون لإحدى أو كل المسببات التي ذكرناها أعلاه، أما ما يخص سلوكهم الإباحي في ليالي الذكر فإن هنالك احتمالين وهو أن يكون هذا العداء هو الأساس للغلو في اتهامهم ووصمهم بإباحية ليالي الذكر. والاحتمال الآخر هو أن طقوس الذكر لديهم والتي تنتهي بإباحة ممارسة الجنس بين الذاكرين والتي لا تتسق مع الأخلاق الإسلامية هي التي كانت سببا في عداء الطرق الأخرى لهم.

لكل ذلك فإن حرصنا على استقصاء واستجلاء الحقائق مما ورد من سيرتهم المكتوبة والمتواترة شفها يجعلنا نؤكد أن هنالك بعض الحقائق عنهم ربما كان لها تأثير كبير فيما أشيع عنهم وأضر بهم هي:

(١) اتسامهم بالأمية والجهل بمعرفة القراءة والكتابة، مما أفقد الطريقة عامل هام من عوامل تميز الطرق الصوفية حينها وهو ارتباط الشيخ بالتعليم وتنظيم حلقات العلم لتحفيظ القرآن.

(٢) جهلهم بأصول التعاليم الإسلامية وعدم وجود أثر للقرآن في طريقتهم وتسمية كتاب القرآن بأبو رقيط، وما أشيع عن عدم إيمانهم بالقرآن. وقد قال عنهم الشيخ فرح: "حيران أبوتورة العشرة ما بقروا السورة".

(٣) أن طريقة الزبالعة انتشرت واستشرت بين البدو المتقلبين والتي يكون نتائجها فقد التنظيم الفعلي لطريقة دينية بالشكل المتعارف عليه، والإتيان بتشكيل ديني يعتمد الصورة الشعرية للتعبير عن ذاته.

(٤) الافتقار إلى المؤسسات الدينية المرتبطة بالطرق الصوفية مثل تأسيس المساند والخلوي كوحدة اجتماعية خدمية متكاملة.

(٥) الأثر الاجتماعي والثقافي لحياة البداوة والترحال الدائم وتأثير حياتهم غير المستقرة والمملوءة بالخوف والأمل بحثا عن الماء والكلا على تكوينهم النفسي والثقافي وانعكاس ذلك في رؤاهم للحياة حيث تختلط قسوة وشدة الحياة بدعاء ودعوة شيوخهم للمباركة وتيسير الأمور وجلب الطمأنينة.

(٦) قيام جلقات الذكر بتواجد مختلط للنساء والرجال والإنشاد في جو مشحون بالعاطفة وغلبة التأثير العاطفي والتي تصل مرحلة البكاء.

الجانب الآخر الذي نود التطرق إليه يتمثل في بعض الحقائق التي ربما تكون مؤشرا للإجابة عن مسألة الاختلاط في حلقات الذكر وسندها، فبنتبعنا لتاريخ التصوف نجد أن المرأة كانت دائما موجودة ومؤثرة في كافة المؤسسات الصوفية، فقد مثلت عاملا أساسيا وأرضا خصبة للإيمان المطلق بالشيوخ، وهي تستعين بهم لقضاء ما يتعسر من أمورهما. والاختلاط كان أمرا شائعا فالمرأة متواجدة بشكل دائم في المسجد تحضر الطعام والشراب للضيوف جنبا إلى جنب مع حوار الشيخ "أتباع مقربين"، وهي تعتني عناية خاصة بالشيخ تخدمه وتلبّي طلباته وطلبات ضيوفه، وتخدم النساء الموجودات في محيط المسجد كزوجات وسراري، وهذا النظام نفسه -أي نظام السراري والجواري- يكون له أثره في توسيع حدود العلاقة بين المرأة والرجل. أما في دارفور فإن التونسي يشير إلى

تواجد النساء والرجال في حلقات ذكر مختلطة يشارك فيها الطرفين بالإشهاد والذكر سواء كانوا من العرب المستعربة أو من العجم.

وبالنسبة لاتباع الزبالعة، فإننا نجد أن هنالك وشائج مقدسة من الترابط بينهم يرجع تأثيرها إلى مجيء الشيوخ السبعة من مكة، ومن ثم ما ورد عن تعاهدهم على الأخوة وميثاق الوفاء الدائم والذي انعكس على طابع العلاقات التي تسود اتباع الطريقة، حيث تلغى فيها كافة أواصر القربى وكافة أشكال التمييز القبلي والنوعي ليحل محلها روابط الأخوة في الطريقة والانتماء المطلق للطريقة ولشيخها بحيث يصبح الجميع أبناء أبو جريد، هذه الرابطة ألغت التفرقة في تنظيم الجماعة على أساس النوع، فالنساء كما الرجال يرتبطون جميعا بعلاقة الأخوة في الطريقة والانتماء لشيخ الطريقة حتى أن ذريتهم يطلق عليها (أولاد الثلاثة الصالحين)، ولا زال أحفادهم حتى اليوم ينادون بشيوخ البيوتات الثلاثة بأبوي "أبوي الشيخ النور أبوي الشيخ عامر"^{٣٢٦}. ومن أشهر مشائخهم الشيخ عامر والشيخ الأمين أبو رحمة ويجلس على كرسي خلافتهم الآن الشيخ عبد الله عامر في الجزائر عند المدخل الشرقي لكبري سنجة.

هذه الحالة من التجرد التي تسود العلاقات وسبل التواصل بين أعضاء الطريقة تثير التساؤل حول مدى مساهمة نمط الحياة البدوية المتنقلة في إزالة الحواجز بين النساء والرجال بحكم ترحالهم الدائم والمشارك ومواجهتهم لنفس المصير والمخاوف والأمل؟. وهو ما أجده تفسيراً معقولاً وانعكاساً يعبر عن نمط الحياة، فواقع هذا الحال من الترحال يكون له أثره في إزالة الحواجز والعيش المتكافئ.

إن ما ذكر عن ليالي الإباحة هذه يقودنا إلى محطة أخرى هامة في تاريخ الزبالعة، ويثير التساؤل حول ما إذا كانت طريقة الزبالعة تقوم على تنظيم سري، أم أنها كانت طريقة تضم أعضاء يجاهرون بعضويتهم، وتمارس الطريقة طقوسها على وجه العلن؟ وفي الإجابة على هذا السؤال لم أجد ما يدل على حالة الطريقة من العمل العلني على وجه الدقة، لكن تبرز بعض المؤشرات التي يمكن أن يستنتج منها أن احتمال العمل السري كان وارداً، منها ما جاء في سؤال السلطان عبدالله ود عجيب للشيخ خوجلي عن

٣٢٦ الرواي العجبة محمد احمد.

انتشار الطريقة في جزيرة توتي، ففي ذلك ما يمكن أن يشير إلى حرص أعضاء الطريقة على ممارسة أنشطتهم بشكل سري، ثم هنالك بعض المؤشرات كالغموض الذي أحاط بها، وطريقة تحية الأعضاء لبعضهم البعض، هذا وعلى الرغم من أنه لا يوجد دليل قاطع على أنها لم تكن تنظيم سري، إلا أنه ومن الأرجح أنها لم تكن طريقة سرية، وإن ظلال السرية التي أحاطت بها ناجمة عن الصورة الذهنية التي تكونت عنهم في الخيال الشعبي، والتي أحاطتهم بهالة تشابه الأساطير بدءاً من اعتكاف مؤسس الطريقة، وتسخير الجن، والإتيان بأفعال خارقة للعادة، وليالي الذكر المختلطة في الليالي القمرية. هذا وسوف نتعرض لاحقاً للمناظرة العامة التي جرت بين الشيخ فرح ود نكتوك والشيخ كرين ود عبدالله، وفيها يدافع الشيخ كرين عن التزامهم بالإسلام وهو أمر أجده يتنافى مع سرية الطريقة. وسواء كان هذا أو ذلك فإن ما أشيع حول الطريقة من أقاويل تناقلت موهورة بالكثير من الحكاوي التي ربما كانت سبباً في انعزالها التلقائي.

نخلص من كل ذلك إلى أن جماعة أبو جريد لم تكن لهم حلقات لتعليم أو قراءة أو حفظ القرآن، وكانت طقوسهم تركز فقط على حلقات تجمع مختلط للنساء والرجال، وأن طقوس هذا التحلق تعتمد على الإنشاد أو ما يسمونه بالنغم، والتمايل مع هذا النغم كما هو الحال لدى كافة الطرق الصوفية والتي تنتهي بحال من الانجذاب الروحي والنفسي، وعلى غير عادة الطرق الصوفية الأخرى فإنهم لم يستخدموا أي نوع من الآلات كالطبول وغيره. حلقات الذكر هذه ربما كانت أسبوعية في المرحلة الأولى، غير أن الشاهد أنه وبمجيء المهدي الذي نادى بإلغاء كافة الطرق الصوفية، وما تواتر من أنباء مؤكدة عن انخراط جماعة أبو جريد ومشاركتهم في حروب المهديّة تحت راية المهديّة أوقفت الجماعة حلقات الذكر الدوري، هذا التوقف عن حلقات الذكر الدوري لم يلغ تبعيتهم وولاءهم وإيمانهم بشيوخهم والذي ظل كما هو، والشاهد أن أهazيجهم الإنشادية في مدح خلفائهم ما زالوا يرددونها حتى اليوم ليس في حلقات ذكر دورية إنما في كافة تجمعاتهم ولقاءاتهم وفي الأعراس وتجمعات الولائم والكرامات.

وإلى جانب الإنشاد الذي ظل باقيا يتردد حتى اليوم^{٣٢٧}، فإن أهم مظاهر الطريقة والمتمثلة في استمرار تسلسل الخلافة في أحفاد بيوتات الطريقة الثلاثة لا زالت باقية، ولا زالت الخلافة متداولة في أحفاد شيوخ الزبالعة أمم وكرين ومحمود الغريب حتى يومنا هذا.

طريقة الانضمام للطريقة:

طريقة الانضمام للطريقة كغيرها من المسائل الهامة المرتبطة بما أشيع حول الزبالعة كانت مثار للكثير من اللغظ والهمس. وهي من الأهمية بمكان لأنها تؤسس للعديد من الأشياء المهمة منها الصورة الذهنية عن الطريقة لدى مجموع السكان، كما تثير الأسئلة أو الإجابة على الكثير مما يتردد عن ليالي الذكر وغيرها، ومما لا شك فيه فإن من أهم النقاط المرتبطة بغموض الطريقة ما هو شائع عنها باعتبارها تنظيم سري. هذا وبالنظر عبر التاريخ الإسلامي فإن هنالك العديد من المؤثرات والمسببات التي تؤدي إلى اتخاذ السرية منهجا للتجمعات دينية كانت أم فلسفية أم اجتماعية تتمثل في أي من الاحتمالات التالية:

✓ خروجها عن المفاهيم الدينية والفكرية والاجتماعية للجماعة.

✓ العداء مع السلطة القائمة.

✓ الإتيان بممارسات غير أخلاقية.

هذا ولم ترد أي دلالة فيما ذكره هيالسون على أن الطريقة كانت سرية، وعلى عكس ذلك فإن محمد عبد الرحيم يشير إلى ما يؤكد أن الطريقة كانت سرية إذ يقول: "إنهم كانوا كالماسونية في كتمان أمرهم" ثم يذكر "إن خليفة آدم سن لهم تحية مخصوصة، وأن يحمل للرجل سبحة ملونة أي حبة بيضاء وأخرى سوداء لتكون شعارا يعرف به بعضهم بعضا، وأخذوا يعملون تلك الأعمال في الخفاء، ولا يمكنون شخصا من الاختلاط بهم في حالة القيام بأدائها"^{٣٢٨}.

٣٢٧ حدثنا السيد العابد المتولي من سنجة أن للزبالعة شيوخ معاصرين لا زالوا ينفثون على العقد هم الشيخ أساعة بود التويل والنعيم ود دفع الله.
٣٢٨ أنظر محمد عبد الرحيم المصدر السابق.

وبتفحص إشارات جيوفاني إليها لا نجد ما يدل على أنها طريقة غير عادية، أما نعوم شقير فإنه لم يذكر أنها كانت سرية، غير أنه أشار إلى وجود عزلة بينها وبين بقية العرب.

إن هذه الإشارات لم تؤكد ما يحسم الأمر بشكل قاطع، وإذا استثنينا ما يرد على لسان محمد عبد الرحيم، والذي يميل إلى تعزيز كل ما يقال عنهم فإن كافة المؤشرات تؤكد وبشكل قاطع أن العداء السافر من البعض والمحاذير التي أحاطت بالطريقة قد كان لها دور فعال في إيجاد حاجز بين الطريقة وبقية مجموع السكان وبين الطريقة والطرق الأخرى، وبين الطريقة والسلطة الحاكمة، هذا الحاجز يمكن أن يكون مستندا على أسس موضوعية أو على أسباب وهمية، ومهما يكن الأمر إلا أن هذا الوضع بقدر ما نجح في عزلها عن بقية المؤسسات الدينية، فإنه من جانب آخر يساعد على تعزيز كل ما هو سلبي ومشاع عنها، بل انه في واقع الحال قاد إلى انهيارها وتلاشي أهم مظاهرها في الفترات اللاحقة.

إن السؤال عن كيفية الانضمام للطريقة يتضمن السؤال عن سريتها، فإذا كانت الطريقة سرية فهذا يعني أن هنالك حدوداً وضوابط للانضمام إليها، أما إذا لم تكن سرية فإن أمر الانضمام إليها يرتبط فقط باقتناع الشخص بها، وبالتالي يمكنه دخولها في كل الأحوال وللإجابة على هذا السؤال فلا بد من الإشارة إلى بعض المعطيات التي تشكل عاملاً مؤثراً كما يلي:

أولاً: إن الرابطة القوية بين أعضاء الطريقة والمبنية على الأخوة، تؤدي بشكل تلقائي إلى التفاهم وتقويعهم داخل العلاقات الناجمة عن الانتماء للطريقة، وبالتالي إضعاف صلاتهم مع بقية مجموع السكان.

ثانياً: إن الرأي العام الذي تكون حول الطريقة ووصمها بأفعال فاحشة يؤدي أيضاً إلى رفض الناس لها وعزلها وبالتالي خلق حواجز بينها وبين بقية السكان والطرق الصوفية.

ثالثاً: هذا الوضع يؤدي دون شك إلى أن كل تنظيم لحقة أو ممارسة لطقوس متصلة بالطريقة هي بالضرورة فعل محدود على أعضائها فقط.

رابعاً: إن موضوعية هذه الأسباب والتي تؤدي إلى أن يكون حضور ليالي الذكر محصوراً على أعضاء الطريقة لا يعني بالضرورة أن حضور غير الأعضاء نكثته المصاعب والقيود.

ويمكنني القول بأن هذا الحاجز النفسي والاجتماعي بين جماعة الزبالة وبين مجموع السكان مرده كثرة ما أشيع عنهم. ومرده المبالغة في الإعلاء من شأن شيوخهم، وأن ما أشيع عنهم في تقديري يصل إلى حد المبالغة والمغالاة بمساعدة عوامل موضوعية تتمثل في الجو المشحون بالعاطفة والإيمان بالغيبات ومؤثرات ذلك وارتباطها بالهالة الأسطورية التي تتكون وتكونت في الخيال الجمعي.

إن ما أشيع حول الانضمام للطريقة في تقديري لا يعدو كونه جزءاً لا يتجزأ من الهالة الأسطورية التي أوجدها الخيال الجمعي حول الطريقة، والذي ربطها بالسحر الأسود، إذ تربط الروايات الانضمام للطريقة بكلب أسود، هذا الكلب حسب الروايات الشفهية هو شيخ الطريقة، والروايات حول طريقة الانضمام تتصل بشكل مباشر بوجود هذا الكلب.

أما طريقة الانضمام فتختلف من رواية إلى أخرى، وأكثر الروايات شيوعاً هي التي تصف طريقة الانضمام بمنح من يود الانضمام اسم محدد، هذا الاسم يتلاشى مع حمار الشمس^{٣٢٩} حيث يخلع راغب الانضمام ثيابه، ويجلس في بيت للنمل، ثم يردد الاسم إلى أن يأتيه كلب أسود، فإذا خاف وجرى قلن يقبل عضواً بالطريقة، أما إذا ثبت للكلب الذي يقوم بنكاحه فإنه يكتسب العقيدة، ويصبح من أعضاء الطريقة، وهم يعتقدون أن من يثبت ويصبح عضواً في الطريقة يصبح رزقه ميسر ويتحسن معيشتة.

إن المتمعن لهذه الصورة يجد أنها مليئة بعنصر الخرافة والأسطورة. وهي أبعد ما تكون عن الواقع والمنطق، لكنها صورة لم تخلق من فراغ بل لأن اعتقاداً راسخاً قد تشكل لدى العامة كما ذكرنا في بداية هذا البحث عن أن أبو جريد يستعين بالجن أو

^{٣٢٩} تطرقنا في صدر هذا البحث إلى موقع الشمس والنار في ثقافة الطريقة وحمار الشمس هو عند ميلها التدريجي نحو الغروب "المغيب".

السفلي... وفي هذه الرواية يتجسد هذا السفلي "أي الجن" في هيئة الكلب الأسود. والكلب في عرفهم هو الشيخ الفعلي للطريقة، ومنه يتلقى شيوخ الطريقة الأوامر والعون. إن الترميز للجن أو الشيطان بالكلب ليس جديداً وهو مرتبط بمخلفات الكثير من الثقافات السابقة لدى الكثير من الشعوب. ثم إن إدخال عنصر الطبيعة المتمثل في احمرار الشمس أيضاً له مدلولاته في الكثير من الثقافات بما فيها عبادة الشمس. ومن المتعارف عليه أن قصص السحر دائماً ما ترتبط بالطبيعة وبحركة الشمس والقمر. والحبكة في حد ذاتها هي ضرب من ضروب الخيال والمبالغة.. وربما كان عنصر العزلة التي فرضها المجتمع على الطريقة أدى إلى أن يستصحبها عوامل التشويق والتخويف.

هذا وقد حاولنا تقصي مكانة الكلب عند جماعة أبو جريد فيما كتب عنهم وفي روايتهم الشفهية وسط سكان المناطق التي قمنا بزيارتها، غير أننا لم نجد ما يشير إلى وجود خاصية مميزة للكلب عموماً أو الكلب الأسود على وجه الخصوص في ثقافة المجموعة.

كما أنه ليس هنالك ما يدل على وجود شيخ خفي أو ظل لشيخ كبير فيما كتب عنهم وفي آثارهم المكتوبة والشفاهية، بل إن الإرث التاريخي للجماعة ما قيل عنهم والمكانة التي اكتسبها شيوخهم المتمثلين في أبكر وأبو جريد وكرين وخلفائهم من بعدهم هي مصدر فخر لهم ولأحفادهم حتى اليوم. وفي رأيي إن الارتكان لوجود شيخ خفي هو جزء مما شاع عنهم، وهو بقدر ما يبدو متخماً بالخيال واللامعقول فإن تحري الإرث المتبقي من الطريقة والمتمثل في الروايات الشفهية عن الجماعة والقصيد أو النغم والعادة المتوارثة بالتجمع لدى شيوخهم من أحفاد الطريقة والتفاخر بهذه الرابطة، كل ذلك يشير بشكل لا يقبل الجدل إلى وجود شيوخ بشر لهم مكانة راسخة بين أتباع الطريقة وبين أحفادهم إلى اليوم، وإذا تمعنا في تحليل وفهم إنشادهم، -وقد تطرقنا لبعضه- فإن هذه الأشعار في مجملها تشير إلى أن هؤلاء الشيوخ هم القيادة الحقيقية للطريقة فلم توجه هذه الأشعار تفتخر بهم وتبجلهم.

هذا ولم تذكر المصادر المكتوبة شيئاً عن كيفية الانضمام للطريقة، مما يدل على أنه لم يكن هنالك ما يثير الانتباه حول طريقة الانضمام. هذا وفي تقديري بأن الانضمام

للطريقة قد ارتبط بتطعيمهم الحياتي، نستدل على ذلك بأنها انتشرت وسط كل البليلاب من كنانة والرواشدة في شرق مدني إلى جانب أقلية متفرقة هنا وهناك، فعامل الارتباط المكاني والزمني كان له أثره في انتشارها بين مجموعات بعينها.

هذا وتشير المصادر المكتوبة إلى انتشار الطريقة وسط مجموعات كبيرة، وأن حذرا قد ساد وسط الطرق الأخرى تخوفاً من انضمام الناس إليها، وقد امتد الخوف من انتشار الطريقة ليشمل سلطة دولة الفونج وبعض شيوخ الطرق الصوفية، ومن أكثر المهاجمين لهم الشيخ فرح ود تكتوك والجموعية. مما حدا بدولة الفونج لتكوين مجالس علمية للحد من انتشارهم. وبلا شك فإن هذا يؤثر إلى أن الانضمام للطريقة كان أمرا ميسرا، وإن أعدادا غفيرة قد انضمت إلى عضويتها. يقول محمد عبد الرحيم لقد راجت تلك البدعة وكثر أتباعها وتفاقم خطبها وأوجس الناس خيفة من سوء العاقبة فآخذوا يفكرون في طرق المقاومة ورد تيارها، وبينما هم كذلك إذ توفي آدم أبو جريد قضاء ودفن في حلة زمركة في شاطئ النيل الأزرق الشرقي جنوب كركوج وبني له مقام يزار، وكذا جعلوا له بيانا في بلده طبخة. هذا ويشير كل من نعوم شقير^{٣٣٠} وما جاء في وثائق المخابرات الإنجليزية إلى أن أتباع الطريقة كانوا حوالي ٥٠٠٠ من الأتباع^{٣٣١}.

ونستدل من كل ذلك على أن ما كان مطلوبا للانضمام إلى الطريقة هو الاقتناع بسلوك أفرادها والانقياد لشيوخ الطريقة بشكل مطلق، والإيمان بما يملكونه من قدرات على الإتيان بأفعال هي من خوارق العادات. وهنا لابد من ذكر حقيقة هامة وهو أن ما أشيع حول قدرة شيوخ الزبالعة على فعل المعجزات كان هو العامل الفاعل والحاسم في جذب الكثيرين للانضمام إليها.

إن هذا الواقع يتطابق مع ما ذكرناه سابقا عن الهالة الأسطورية، ودورها في تغبيش الوعي، فالإيمان الروحي قوة دافعة للتسليم الآلي لمجريات الأحداث التي يفرضها هذا الواقع... وحين يسود هذا الجو في محيط من الجهل والامية والإيمان بالخرافة والدجل، وفي واقع تغلب عليه شدة وقسوة الحياة المرتبطة بالبداءة وتغلب الحال، فإن هذا

٣٣٠ أنظر نعوم شقير المصدر السابق

٣٣١ الطرق في السودان الفصل الثاني ص ٢٤ - Intel 2/32/270

الإيمان يتجسد في خيالهم واقع قادر على حمايتهم وتلبية متطلباتهم وبعث الطمأنينة إلى نفوسهم الحائرة، هذا النوع من التسليم هو تصرف بعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية على وجهها الشرعي إلا أنه يطابق واقع معقول ومقبول للتطبيق الفعلي للإسلام في السودان، وواقع الأمر إن الإيمان بقدرة الشيوخ والخرافات والدجل وبالسفلي وبالخدام وهو أمر لا زال سائدا حتى اليوم.

آلية اختيار الشيوخ:

لم يذكر هيلسون أو نعوم شقير أو جيوفاني شيئا عن كيفية اختيار الشيوخ، بينما يذكر محمد عبد الرحيم أنه عندما توفي آدم أبو جريد خلفه ابنه^{٣٣٢}.

ومثل كل ما يتصل بجماعة أبو جريد فقد كان للمخيلة الشعبية دور بارز في تكريس مفاهيم ارتبطت بهم فقد أتضح لنا من الروايات الشفهية ومما يثار حولهم، بأن اختيار الشيخ يتم عبر مراسيم ليالي الإفاضة التي سبق الحديث عنها حيث تنتهي ليالي الذكر ببايعة اللقاء الجنسي بين الحاضرين، وقيل أن من يحبل به في تلك الليلة يكون هو الشيخ القادم، وهو عندهم مبارك بل إنه مقدس. إن هذه الرواية بلا شك تتناسب إلى حد كبير عن كل ما قيل وورد عن الطريقة ومع كل ما يشيع ويحك من هالات أسطورية حول الزبالة.

وبنتبعنا لكيفية تدرج الخلافة كما وردت في المصادر المكتوبة والشفهية، نجد أن مؤسس الطريقة أبكر وهو الشريف العربي وولده هو محمود الغريب المكي وهو أحد السبعة الذين أشرنا إليهم سابقاً، وتشير كافة الروايات إلى أن آدم أبو جريد هو من خلف أبكر وآدم من السكان المحليين وينتمي لقبيلة كنانة،^{٣٣٣} إن مؤشرات كهذه ربما تبرز فيها ما يفيد بأن اختيار الخليفة لم يستند إلى عامل الوراثة المرتكزة على القربى، خصوصا

^{٣٣٢} انظر محمد عبد الرحيم المصدر السابق.

^{٣٣٣} بما أننا لم نستطع أن نجزم بصفة قاطعة علاقة القرابة بين آدم وأبكر فيجب أن نشير إلى احتمال أن الخلافة تمت عن طريق علاقة الأم كما هو سائد في نمط العلاقات المستندة إلى القرابة عن طريق الأم.

إذا وضعنا في الاعتبار أن من متطلبات الاعتقاد في الشيخ الاستناد بشكل مطلق على قدراته في الإتيان بخوارق الأفعال.

هذا وقد وجدنا سواء كان ذلك في تتبعنا للمصادر المكتوبة أو السماعية بأن تدرج الخلافة بعد أم أبو جريد قد أصبح غامضا وغير محدد، بل أن الخلافة انقسمت بعد ذلك في بيوتات الخلفاء الثلاثة الأوائل، وهي خلافة أبكر وخلافة أبو جريد وخلافة كرين، وقد ذكرنا سابقا صعوبة التحقق في أنساب وانتماء الخلفاء وعلاقة القربى بينهم إلى جانب اختلاف الأنساب فيما بعد بالتزاوج والتصاهر.

لذا خلت طريقة الزبالعة من وجود هيكل تنظيمي محدد وتدرج واضح للخلافة. ونلاحظ أن هنالك عشوائية في التدرج ربما مردها اعتماد الطريقة على للقرات الشخصية التي يمكن أن تميز بعض أعضائها وقدرتهم على القيادة وإيراز موهبة وذكاء في الإتيان بخوارق العادات والتحويط^{٣٣٤} وغيرها من كرامات حسبها الناس ضمن قدرات الشيوخ الخارقة ليصبح قبلة الإيمان ومركزه.

إن الارتكان المطلق على شخصية الشيخ يقودنا إلى التساؤل والمقارنة وتمحص العلاقة بين طريقة الزبالعة نشأتها وبداية تكوينها، وما يحدث الآن من ظواهر لشيوخ يعتمدون الدجل والشعوذة والقدرة على فعل المعجزات كالشيخ أبو نافورة وغيرها من ظواهر، ومقارنة ذلك بالكيفية التي برزت بها الطريقة والتي اعتمدت على كاريزما وقدرة الشيخ أبكر ثم أبو جريد من بعده، وإذا صحت المقارنة فإن وجود نظام مؤسس يبدو أمرا غير وارد.

الجدير بالذكر أن نظام التوريث للخلافة وهو النظام الذي كان سائدا حينها على مستوى الطرق الصوفية في السودان، وفي مستويات الحكم والخلافة عند العرب عموما، كان لابد من أن يكون له تأثير في مسيرة الطريقة حتى ولو بعد حين، وهو ما حدث فعلا في السنوات اللاحقة وحتى الآن، يؤكد لنا ذلك ما سبق ذكره في بداية هذا الفصل عن تسلسل أنساب أحفاد الخلفاء الثلاثة. إن هذا الاحتمال يبدو ورادا حتى في السنوات

٣٣٤ التحويط كلمة تشير إلى استخدام القدرة الخارقة للشيخ للتحكم في أمر ما.

الباكورة للطريقة إذ أشار هيللسون نقلا عن بعض أهالي خدر إن آدم هو الأخ الأصغر لأبكر، وأن كرين هو شقيقهم الثالث، فإذا صح ذلك فإن الخلافة هنا تبقى وراثية منذ البداية. ومن ثم يكون من المنطقي استمرار الخلافة بعد ذلك في هذه البيوتات الثلاثة. إن واقع استمرار المشيخة في هذه البيوتات الثلاثة يمكن أن يكون له جانبان وهو انتفاء ما ذكرناه سابقا عن اعتماد اختيار الخليفة ممن يحبل بهم في ليالي الإفاضة... هذا إذا كان الاختيار يتم من جميع الحاضرين دون فرز، بينما هو يفسر لنا من جهة أخرى ويؤكد هذه الرواية إذا كان المقصود بالخلافة هو من يحبل بهم جراء النكاح بين الشيخ ومن يختارها من النساء.

وهناك جانب مثير آخر إذ تتميز طريقة الزبالعة بأن الإيمان بقدرة الشخص على صنع الخوارق لا يتفرد بها الشيخ فقط فكل زبلعي له القدرة على التحويط والنفث في العقد وله القدرة على جلب النفع والضرر.

التنظيم والتوزيع:

يقول هيللسون:^{٣٣٥} "إن تنظيم جماعة أبو جريد يشابه تنظيم بقية الطرق، فخلفاء أبكر وأبو جريد وكرين يطلق عليهم لقب خلفاء، ثم من يأتي بعدهم من شيوخ يطلق عليهم المقاديم. بينما بقية الأتباع هم للفقراء"، ويذكر هيللسون بأن الخلفاء كانت لهم مكانة مميزة وسلطان غير محدود على أتباعهم تؤدي إلى أن يخضع لهم الأتباع بالطاعة العمياء والاحترام والولاء التام.

ويحتل الخليفة لدى جماعة الزبالعة موقعا متميزا فهو رأس المجموعة وراعيها، وهو الممثل الديني وهو الذي يستشار في كل أمور المجموعة، وهو الذي لا تخطو الجماعة أي خطوة بغير مباركته، هذا إلى جانب مكانته الدينية والروحية والمستمدة من إيمانهم بما له من قدرات خارقة تتفوق على قدرات البشر.

٣٣٥ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٩٢.

هذا وإذا رجعنا إلى كيفية انتشار الطريقة وسط قبائل بأكملها - كما ذكرنا سابقا - فإن هذا يؤشر إلى مؤثرات المكون القبلي القائم على تقديس علاقات القربى وتمجيد شيوخ القبيلة والولاء لهم، فالشيخ في واقع الأمر يبقى هو الرأس وهو الأمر والناهي ليس لأتباع الطريقة فحسب بل أنه يغدو صاحب الكلمة الأعلى والمستشار لكافة منسوبي القبيلة.

يقول هيلسون: "إن خلفاء أبكر هم أعلى مكانة من خلفاء أبو جريد"، ويدلل على ذلك ما حكاه الراوي أنه كان حاضرا في العام ١٢٩٢ هـ مقابلة الشيخين، فكان خليفة أبو جريد يستقبل خليفة أبكر بخنوع وخضوع، وكان يتلقى ما يخرج من نخامته وبصاقه ويمسح بهما بطنه ووجهه بقصد التبرك، ولما خرج الرجل الكبير نجد أن نفس الدرجة من الاحترام والخنوع يتلقاها شيوخ أبو جريد ممن هم أننى منهم،^{٣٣٦} ويبدو أن هذه المكانة مستمدة أساسا من تدرج الخلافة باعتبار أن أبكر هو مؤسس الطريقة.

يقول هيلسون: إن الخلفاء الثلاثة لهم نفس الحقوق في إعطاء المقدمية لمن يستحقها من أتباعهم وفي تقبل أتباع جدد. ويورد هيلسون إن الخليفة الكبير كان في عام ١٩١٧ هو الشريف الإمام بن البساطي وهو خليفة أبكر السابع ويعيش في حلة أم قويزات في سنجة، وأن خليفة أبو جريد يعيش في نفس الجزء على الضفة الشرقية من النيل الأزرق وإلى الشمال في قرية الجزائر. أما خليفة كرين وهو محمود النابر فيعيش بالقرب من كركوج. هذا وفي تتبع آثارهم من خلال الزيارات الميدانية نتضح لنا صحة هذه المعلومات، وقد حاولت معرفة عما إذا كان توزيع الخلافة في البيوتات الثلاثة والتبعية لها كان مستندا على التوزيع الجغرافي إلا أنني لم أجد ما يفيد ذلك.

العلاقة بين الرجل والمرأة:

يقول هيلسون: "ويقال فيما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة أن الزبالة لا يضعون أي قيود على نسائهم فيما يخص معاملاتهم مع أتباع الطريقة، فالمرأة تستقبل الضيف من الزبالة في غياب زوجها، وهو سلوك يتنافى مع تقاليد العرب والمسلمين،

٣٣٦ أيضا، ص ١٩٢.

كما أنه من العيب على الرجل أن يظهر أي نوع من الشك، والزبالة يبررون ذلك بأن أعضاء الطريقة تربطهم أواصر الأخوة، وهم يتقون في بعضهم البعض ثقة مطلقة، والخيانة أمر نادر عند الزبالة، وإذا بدرت فإن مرتكبها يطرد من الطريقة، ومما وجدته غريبا أن الخائن المطرود يكون للشيخ حق إرجاعه في حال اعترافه بخطئه وإعلانه للتوبة أمام الجميع مع التكفير عن هذا الخطأ بهبة كل ممتلكاته لشيخ الطريقة.

هذه العلاقة المفتوحة بين الرجل والمرأة تتطابق مع وصف جيوفاني^{٣٣٧} لهم. ويقول إن دخوله ومن معه وسط النساء لم يترك أي أثر، فلم تبد إحداهن دهشتها ولم يتركن عملهن. ويذكر جيوفاني أنهم لا يتزوجون بأكثر من واحدة، وإذا بقيت بنت دون زواج أو أن عروسا مات عنها زوجها دون إنجاب فإنها تمنح كامة لأقرب أقربائها.

وقد تطرق جيوفاني إلى أمر أجده هام، وهو عدم احتكامهم في العلاقات الزوجية إلى أحكام الشريعة الإسلامية، إذ تنتفي عندهم الحدود لما يطلق عليه بالمحارم في الشريعة الإسلامية، إذ لم تكن هنالك قيود في الزواج ويمكن أن يتزوج الأخ لخته والأب ابنته.

إن تحليل ذلك وتفسيره بشكل قاطع يبدو عسيرا، لأن التوقيت الذي حدده جيوفاني ١٨٨٥م يمثل فترة متقدمة في دخول الإسلام، وعلى الرغم من أن ذلك يبدو غريبا إلا أنه ومن المؤكد أن المجتمع السوداني لم يعرف المحارم إلا بدخول الإسلام، إذ أن الديانة المسيحية لم تنجح في الانتشار وسط مجموع السكان^{٣٣٨}، وظلت ديانة للطبقة الحاكمة. إلا أننا نستطيع الجزم بأن وضع المرأة عند الزبالة هو وضع المرأة ودورها في المجتمع الرعوي الاكتفائي في ذلك التاريخ المحدد.

ومما لا شك فيه فإن المجتمعات التي تعتمد الرعي والزراعة الاكتفائية وفي المجتمعات البدائية عموما تتعدى القيود في التواصل بين الرجل والمرأة، ويظهر ذلك

٣٣٧ انظر جيوفاني، المصدر السابق.

٣٣٨ والشاهد أن بعض مسيحيي الهند إلى اليوم تختلف نظرتهم في مسألة الزواج، حيث يمكن للخال أن يتزوج بنت أخته بينما يحرمون زواج أبناء العمومة.

بشكل أكثر جلاء في المجتمعات الرعوية المتنقلة^{٣٣٩}. هذا وإذا ربطنا ذلك بالرحلات الطويلة والواسعة التي يقوم بها بادية كنانة في السودان امتدادا من المنطقة جنوب الروصيرص وشمالا حتى قرب سنار. هذه الرحلة الطويلة والمشاركة لكافة أفراد الأسرة بما يصابها من متاعب جمة تجعل الثقافة المجموعة حول بعضها أكثر وضوحا. وربما تنعدم التفرقة والقيود في علاقة المجموعة ببعضها البعض.

إن العلاقة بين الرجل والمرأة تبدو أكثر متانة وقوة في حالة الزبالعة، وهي ربما كانت مرتبطة بمؤثرات أخرى هي ما قيل ويقال عن تحالف السبعة، والتي بدأت بمسيرة محمود الغريب وصحبه من الجزيرة العربية عبر مصر والمشاق التي تحملوها والتي انبثق عنها ميثاق الأخوة بينهم، عهد الأخوة هذا يرجعه البعض إلى أثر شيعي، وهو ما يسمى عند الشيعة بالأخوة الروحية والتي هي أقرب من رابطة الدم. إن موجبات هذا العهد المبني على الانتساب للطريقة "أولاد أبو جريد" انعكس على علاقة أفراد مجموعة الزبالعة فيما بينهم دون تمييز بسبب النوع.

وواقع الحال أن المرأة عند الزبالعة كانت موجودة أينما وجد الرجل، في رباط القبيلة، في المرعى، في حلقات الذكر والإنشاد.. الخ، وهو أمر أرى بأن بقية الطرق الصوفية وعلماء ذلك العصر لم يجدوه مستقيما مع تعاليم الإسلام، وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كان هذا الاختلاط المباح بين الرجل والمرأة في الحياة اليومية وفي حلقات الذكر هو مصدر ما تردد عنهم من إباحة للعلاقات الجنسية في ليالي الذكر.

المحرمات عند الزبالعة:

يقول هيللسون:^{٣٤٠} إن طريقة حياتهم وعملهم لا تختلف عن أي قبيلة أخرى، غير أنهم يحرمون التبغ والخمر ويرفضون التعامل مع من يتعاطاهم.

٣٣٩ يذكر الرواة أن المرأة من الزبالعة تقوم بنسج البروش والسعف ويصنعون سراير كبير يجلسونهم بجلد البقر وهو السرير الذي تنام عليه العائلة مجتمعة كما هي عادة العرب الرحل.
٣٤٠ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٩٣.

وتحريمهم للتبغ أكثر حدة من تحريمهم للخمر وهم لا يربطون هذا التحريم بأي سند ديني، غير أنهم يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن التعامل مع من يتعاطى التبغ يجلب لهم المضرة في معيشتهم، وهم يعتقدون بأن متعاطي التبغ إذا ركب زاملتهم فإنها تموت في حينها، وإذا قرب زرعهم فإنه لن ينتج وهكذا فإن متعاطي التبغ يكون مصدر ضرر لهم في كل ما يمس حياتهم.

إن إيمانهم بهذا التأثير لتعاطي التبغ لا زال راسخاً حتى اليوم، وقد لمسنا مفعول وتأثير الأسطورة في استقصائنا لسبب هذا التحريم في أقوالهم السماعية، وهم ينسبون ذلك إلى أن شجرة التبغ كانت من الأشجار شديدة الخضرة في الجنة، وأنه عندما طرد إبليس من الجنة تبول عليها لذلك صارت من المحرمات.

وعلى وجه العموم فإن التبغ كان مكروهاً عند كل الطرق الصوفية وحرمه الكثيرون بما فيهم المهدي في وقت لاحق، وتكشف لنا الطبقات جانب من الصراع الذي دار حول التبغ.

هذا ومن عادات الزبالعة التي استقيناها من رواياتهم الشفهية، أنهم يحرمون القيام بأي عمل في يوم الجمعة سواء فيما يختص بالزراعة أو الرعي أو غيره من أعمال إعاشة، بل أنهم لا يباركون السفر في يوم الجمعة، فهم يعتقدون بأن العمل في يوم الجمعة ليس فيه بركة وهي عادة لا زالت سارية بينهم حتى اليوم، ومن عاداتهم عدم الخروج في يوم الجمعة من منازلهم مهما اشتدت الحاجة لذلك، وضرب محدثي مثلاً بذلك بقوله أنهم لا يخرجون من منازلهم في يوم الجمعة حتى ولو جاءهم نبا بأن الحيوانات دخلت مزارعهم وأكلت الزرع، وما أدهشني حقاً هو استمرار هذه التقاليد بحذافيرها وسط أحفاد الزبالعة من البليلاب حتى اليوم.

ولديهم إيمان راسخ بقدراتهم أجدها قد تمثلت في بعض المعتقدات فهم على سبيل المثال يؤمنون بأنه إذا دخل شخص غريب ليرعى أو يصطاد في أملكهم فإن هذا الشخص يصاب بمكروه.

من عادات الزبالعة:

طريقة تحية أعضاء الطريقة:

تشير المصادر التاريخية إلى أن أعضاء الطريقة كانوا يحيون بعضهم البعض بتحية خاصة يذكرها هيللسون بقوله^{٣٤١} "إن أعضاء الطريقة ليس هنالك ما يميزهم غير السلام، حيث أنهم كانوا يهزون أيدي بعض ويشمونها بصوت عالي".

يقول محمد عبد الرحيم: "إنه وبعد أن توفي آدم أبو جريد ودفن في حلة زمركة، تولى ولده القيام بقيادة الطريقة، وزاد بعض الأوضاع حيث سن لهم تحية مخصوصة"، ويصف لنا طريقتهم في تحية بعضهم البعض والتعارف بقوله: "إذا تقابل رجلان من الزبالعة يصافح أحدهم أخاه ويستنشق ظهر كفه بدلا من تقبيلها". ويذهب محمد عبد الرحيم في التكليل على ذلك في اتساق لما سبق وذكره من ربط للطريقة بالشيعة ليقول: "إن هذه العادة قد أخذت من السادة العلويين في جاوة"^{٣٤٢}.

هذا ومن خلال الزيارة الميدانية لمناطق انتشار الزبالعة وأحفادهم الآن، فإن طريقة تبادل التحية للزبالعة لا زالت حتى اليوم تتم بتقبيل ظاهر الكف وشمها، ويقال إن هذا التمييز يحدث لأن أعضاء الطريقة اعتادوا على وضع العطر في ظاهر الكف. إن هذه الطريقة المتميزة للسلام لم تخل هي الأخرى من التأويل في مخيلة الرأي العام، فكان أن ربطوها بما يشاع عن شيخهم من السفلي أو الشيطان والمتمثل في صورة كلب، وقد حفلت السيرة الشفهية بالكثير من العبارات أو الدلالات التي تربط ذلك بما يثار حولهم، يبرز لنا ذلك من خلال المقولة السائدة عنهم "سلام البليلاب مثل شم الكلاب" وهي تؤثر إلى ما يشاع عن الطريقة وصورتها الذهنية لدى الرأي العام.

هذا الفعل وهو محاولة تمييز الجماعة بطريقة للسلام محددة ووضع العطر في ظهر الكف إذا قصد منه تمييز أعضاء الطريقة لبعضهم البعض، فإن هذا يثير التساؤل حول ما أشيع حول سرية الطريقة.

٣٤١ هيللسون، المصدر السابق، ص ١٩٣.

٣٤٢ أنظر محمد عبد الرحيم المصدر السابق.

معجزات الزبالة:

عملنا على أفراد هذا الجزء للتحديث عما يشار إليه على أنه من معجزات الزبالة. وقد أطلقنا عليها هذا الاسم تجاوزاً. فما ذكر عن الزبالة أو غيرهم من الأولياء من خوارق للأعمال أو معجزات أو كرامات، أو المفاهيم المشابهة كالمهدوية أو إدعاء النبوة نجدها ثقافة متأصلة في المفاهيم المطروحة في الفكر الإسلامي، وقد خضعت للكثير من الجدل وقد أوضحنا سابقاً وجهات النظر المختلفة حولها، لقد طغى الإيمان الأعمى بمسوغاتها في الفترة مئثار البحث وما زالت حتى اليوم تسود في بعض المناطق ووسط بعض الفئات التي يسودها التخلف والجهل. بل أنها تمتد لتشمل حتى المتعلمين والمثقفين في حالات الركود الفكري والثقافي.

وفي كل الأحوال فإن هذه الممارسات والتي ربما تكون منافية لتعاليم الشريعة الإسلامية هي انعكاس للواقع الثقافي الاجتماعي الذي ساد حينها وهي امتداد لما سبق من أحوال ومعتقدات. هذه الممارسات أخذت شكلاً جديداً في إطار الثقافة الجديدة الوافدة وأصبحت مظهراً من مظاهرها.

إن ما تطرقنا له من مؤشرات ومعطيات وحرصنا على تتبع وإبراز جوانبها الاجتماعية والتاريخية يوضح لنا بجلاء المكانة العظيمة والمتفردة التي تصبغ على الشيوخ والخلفاء والأولياء عند عموم الطرق في السودان. هذه المكانة المتميزة والمكتسبة للشيوخ نجدها عند الزبالة أكثر تفرداً بما يطلق عنهم من استعانتهم بالجان أو ما يسمى بالسفلي، هذا الوضع أكسبهم قدرات مضافة في الخيال الشعبي فأشاع حولهم هالة أسطورية وقصص حافلة بالكثير من المبالغات. وفي رأيي أن العوامل التي ذكرناها أنفاً عن كيفية ونوعية الإسلام الذي انتشر، تجعلني أتطرق إلى مصوغات هذا الوضع والمتمثلة في:

- الموروثات الثقافية المرتبطة بالأيديولوجيا الدينية، ومكانة الإله فيها ومن ثم ممثل الإله والمتمثل في رأس القبيلة والذي جاء ليخلفه الشيخ.
- الإسلام الصوفي الوافد بآثاره الشيعية ومخلفات الصراع الاجتماعي والذي برز في نظريات الإمامة بإشكالها المختلفة عند الشيعة والفرق الباطنية والصوفية.

• المكانة الاجتماعية المميزة للشيخ، فالشيخ والطريقة هي مؤسسة متكاملة ومسيد الشيخ هو المدرسة وهو المصححة العلاجية وهو القبلة والماوى للجميع "الماشي والغاشي".

• هذه المكانة المكتسبة للشيخ ولتكتمل الصورة عن الشيخ وهو المفتاح لحياة الجماعة كان لابد من أن يرتبط باكتسابه أبعادا تفوق الأبعاد البشرية، وكان نتاج ذلك النظريات المختلفة في الكرامات والتي تجئ لتكسب الشيخ قوة خارقة نجعله قادرا على فعل أي شيء وهي الدلالة والبرهان على مكانته، وقد كانت هذه الكرامات هي الحدث الفاعل الحقيقي في حسم الصراع بين أهل الفقه والمتصوفة لصالح المتصوفة لأنه أقرب وأكثر اتصالا بحياة الناس وطموحاتهم^{٣٣}.

من هنا نجد صورتين للشيخ الصورة الأولى هي الصورة الحقيقية للشيخ بصفاته الإنسانية العادية، والصورة الثانية هي الصورة الذهنية للشيخ في الخيال الشعبي الجمعي والتي ترفعه إلى مستوى رجاءهم حاجتهم ومطمحهم. هذه الصورة هي التي تقودهم إلى الإيمان به إيمانا مطلقا والاعتماد عليه اعتمادا مطلقا^{٣٤}.

في هذه الفترة فإن استغلال القدرة على الفعل الخارق للعادة لكسب مصالح فردية لم يكن أمرا واردا، فالحاجة الروحية كانت تتفوق على الحاجة المادية، وهي منفعة متبادلة ومؤمن بها من الجانبين، وفي حالات أخرى نجد أن الاعتقاد السائد هو الارتكان من قبل الشيخ أو الأولياء لوسطاء وامتلاك مخلوقات خفية من الجن والسحرة هي التي تساعد على آتيان أفعال خارقة للعادة.

هذا ويصف ود ضيف الله هذه الخوارق التي تزخر بها طبقاته على أنها تتعارض في كثير من الأحوال مع ما ذكره الإسلام عن قدرات للبشر، مثل القدرة على إحياء

٣٤٣ لقد تطرقنا سابقا إلى ما دار من صراع بين علماء الفقه والمتصوفة والتفوق البيئي للمتصوفة على العلماء بما يملكونه من قدرة على فعل الخوارق
٣٤٤ سبق وأن أشرنا إلى أن هذه الصورة المتكونة في الخيال الجمعي جاءت لتستمد شرعيتها مما ورد في الإسلام عن الأولياء والصالحين.

الموتى، والعلم بالغيب، وهي معتقدات تتنافى مع الشريعة الإسلامية (هذا بعيدا عن الجدل الدائر حول الفرق بين الشريعة والحقيقة).

والزبالة يعتقدون بأن خاصية الكرامات لدى شيوخهم هي هبة من الله موهوبة لهم لصالح طريقهم، بينما هم في الرأي الشعبي السائد في ذلك الوقت سحرة يستعينون بالجن لقضاء حوائجهم وللاستعانة بهم في مأرب الدنيا الأخرى، فالشك هنا ليس واردا في مقدرتهم على الإتيان بالخوارق، إذ يبدو أن هنالك اتفاقا عاما حول قدراتهم الخارقة للعادة سواء كان ذلك من قبل أتباعهم أو من قبل بقية السكان بما فيهم من يعادونهم، بينما دار اللغظ حول هوية وكنه هذه القدرة ومصدرها وهي لدى غير أتباعهم مرتبطة بما يملكونه من خدام من الجن.

لقد تميزت الآليات المستخدمة لدى الزبالة عن غيرهم من الطرق والشيوخ وعمدوا إلى تلبية حاجات قاصديهم باستخدام النفط في العقد، وكانوا يأتون بخيط يعقدونه عقدة عقدة ويتمتمون في أثناء ذلك ببعض التعاويذ. وقد سمي ذلك (بعقدة الزبالة) وهذا الخيط يلبسه الشخص المستهدف في رقبتة أو في ذراعه.

إن اعتماد الزبالة على النفط في العقد في حد ذاته أمر يثير الشبهة حولهم لسببين فهو أولا: يختلف تمام الاختلاف عما يفعله بقية الأولياء والصالحين في السودان الذين يعتمدون على كتابة الأحجبة والتمايم والرقى بالقرآن إلى جانب بعض التعاويذ الأخرى، وليس هنالك من استعمل الخيط غيرهم.

وثانيا: إن النفط في العقد أمر مكروه بحسب نص الآية القرآنية "وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ" كما أنه قد ذكر في القرآن كأحدى وسائل السحرة في الجزيرة العربية، ويقال أنها عادة مرتبطة باليهود، وهنالك القصة المشهورة عن أن بعض اليهود حاولوا سحر سيدنا محمد (عليه أفضل السلام) بواسطة النفط في العقد.

ومن الوسائل التي يستخدمونها والتي سمعتها من الرواة إن للزبالة طينة عليها طلاس يستخدمونها لمعالجة الأمراض يستخدمونها أيضا لتحقيق الكثير من الطلبات التي ترد إليهم.

وهنا لابد من الإشارة إلى نقطة هامة وهي تفرد الزبالعة عن بقية الطرق والفرق الدينية في وسائل تحقيق هذه الخوارق إذ أنها لا تستعين بالآيات القرآنية، كما أنها غير مكتوبة كما جرت العادة بالنسبة للطرق الأخرى والتي كانت تستخدم الرقي بالآيات القرآنية والأحجية والبخرات بينما اقتصررت طريقة الزبالعة في مقابلة طلبات اللاجئين إليهم على النفث في العقد وطلسم الطين، إن هذا الأمر بقدر ما يشير إلى استفادتهم من إرث سابق فهو أيضا ذو صلة وثيقة بأميتهم وجهلهم التام بالقرآن.

ومهما يكن من رأي حول أصل معجزات الزبالعة فإننا سوف نحاول هنا سرد بعض ما ذكر من أحداث خارقة للعادة وهذه الأفعال الخارقة للعادة جمعتها مما كتبه كل من هيلسون ومحمد عبد الرحيم ومما تجمع لدي في رواياتهم الشفهية.

ومما رواه أحفاد الزبالعة أن أحد شيوخهم ويدعى الشيخ عامر قد انضم للحكومة وأصبح ملكا، فأرسلوا له من أتباعه من يتقصى أخباره، فوجدوه جالسا على الكرسي الككر في مجلس السلطان، فأنشد احدهم أمازيج شيوخهم فما كان من عامر إلا أن قفز من الكرسي هاربا وتبعه الوفد المرسل، ولم يتوقف عامر إلا في منتصف الطريق مخبرا إياهم أن الحكومة لن تتركهم وسوف تتقصى أثرهم وتقتلهم، فقال له حوار: الله مرّك والله حينجيك، فكان أن غابت الشمس وأظلم المكان وعندما أتوا إلى النهر أنفلج النهر فعبروا الدندر والرهد ونزلوا في مكان حيث حلق رأسه فسميت ميعة رأس عامر وغفلوا راجعين إلى ديارهم، وتبعهم كل من بالقرية وهم يقولون "ما عمرها عامر.. ما عمرها عامر".

يقال إن المرأة تلجا للزبالعة إذا رأت نفورا من بعلها فتبسط له وقائع المسألة وتتفحه بشيء من النقود، فيصير ذلك الرجل كآلة صماء في يدها كما أن ذلك ينطبق على الرجل أيضا. يحكي هيلسون بأن رجلا موثوق به حدثه بأنه وقع في غرام امرأة متزوجة، فحاول إغواءها بكل السبل فقابلته بالصد، فذهب إلى شيخ قنّدة ود سرير التافابي وأعطاه بعض المال فعقد له خيط من الحرير وأمره بوضعه في عمامته ففعل ذلك، فكانت المرأة تأتي إليه كل ليلة واستمر على ذلك سبع ليالي ثم أحرق الخيط في الليلة الثامنة وانتظرها فلم تأتي، وفي اليوم التالي ذهب إليها وسألها فأنكرت أن تكون

هنالك أي علاقة قائمة بينهم. فحاول تكثيرها ببعض التفاصيل فاعترفت بأنها تتنكر كأن شيئا مماثلا قد حدث، وسألته أن يكف عن ذلك وإلا فإنها سوف تتنحر.

ومما حكاه هيلسون أيضا على لسان شيخ أبو القاسم أن أحد الأشخاص ذهب إليه وأخبره بأن ابنة عمه والذي وعده والدها بتزويجها إياه سوف تتزوج بعد عشرين يوما من رجل آخر لرفض أخيها له لأنه فقير، وأمره بمنع هذه الزيجة فأعطاه الشيخ البساطي ثلاثة خيوط معقدة وأمره بوضع واحدة منها في قبر لمجهول وأخرى في طعام يأكله كلب والثالثة يضعها في عمامته، يقول الشيخ أبو القاسم: ولم أقابل ذلك الرجل إلا بعد عامين فأخبرني بأنه تزوج ابنة عمه بعد أن اختلف والذي العروسين يوم عقد القرآن.

وقد اشتهر الزبالعة بتحويل^{٣٤٥} العقرب والتمساح، يحكي أيضا أنه وفي عام ١٢٩٢هـ كان هنالك تمساح في مشرع الحديبة، قتل أحد الجعليين كما قتل الكثير من الحيوانات، فتوقف الناس عن عبور المشرع إلى أن حل الجفاف بالضفة الشرقية، وكان لابد من أن يعبروا بحيواناتهم إلى الضفة الغربية، فاتوا بأحد شيوخ الزبالعة ويسمى للشيخ أ بكر حسب الله، فجلس تحت شجرة وأحضر بعض الطين شكله على هيئة تمساح وربط فمه معقودا بقطعة من خيط جريد النخل وصاح "يا أبو عبدالله أمسك كلبك ما يغلبك" فعبر الناس بحيواناتهم وكان التمساح أثناء عبورهم يظهر بين القينة والقينة وكان فمه معقودا بنفس الخيط ولم يقرب الماشية ولا أصحابها.

ويحكي هيلسون على لسان الشيخ أبو القاسم قصة أخرى عن أن أحد شيوخ الزبالعة ويدعى البشير ود رحمة السندان الديباني تمكن من تحويل المشرع من أمام قرية الشيخ الدقلاشي إلى موقع آخر، وكان الشيخ الدقلاشي قد منع الزبالعة من العبور بماشيته عبر مشرع القرية باعتبار أنهم أصحاب خطيئة

ومن القصص التي أوردها هيلسون أن رجلا موثق به حكي أن له بقرة منعت ابنها الصغير من أن يقربها. فذهب إلى شيخ البساطي الذي عزم^{٣٤٦} على حبل وأمره بربطه فوق قرن البقرة أو ذيلها، فهدأت البقرة ومكنت ابنها أن يرضع من ثديها.

٣٤٥ التحويط لغة دراجة تعني محاصرة الفعل الضار ومنعه.
٣٤٦ العزم هو التمتمة بالفاظ محددة على شيء ما بقصد تبريكه.

وهناك الكثير من القصص عن مقدرتهم عزل أبناء البقر عن أمهاتهم حتى لا يرضعون، ولا زالت هذه القصص متداولة بينهم وقد سمعتها من كثيرين، كما أوردها محمد عبد الرحيم إذ كانت العجول تسرع إلى أمهاتها عند رجوعها من المرعى، فكان الزبلعي يقوم برسم خط على الأرض يفصل بينهما فكانت الأبقار تبقى في محلها وتبقى العجول في مكانها حتى ينتهوا من حلب الأبقار.

ونذكر محمد عبد الرحيم^{٣٤٧} حدثني المرحوم محمد أفندي علي أرناؤوط المحاسب بمديرية النيل الأزرق قال: لما أرادت الحكومة فرض ضريبة القطعان في ١٨٩٨ انتدب إبراهيم أفندي جراب الفول ومعه أحد رجال البوليس يدعى إبراهيم قانوس لإحصاء حيوانات سكان حلة الرواشدة، فاستأعت امرأة من الزبالعة وقالت لهم "أرجلكم هذه التي تجرون بها خلف الأبقار لا تمشون بها على الأرض" فسقط الرجلان وعجزا عن القيام فجئ بهما محمولين إلى مدني، فسار والد قانوس إلى حلة الرواشدة فطيبوا خاطره وأعطوه خيطا رفيعا طلبوا منه أن يلف به فخذ ابنه الأيمن ولما فعل ذلك ذهب ما ألم به.

ويحكى محمد عبد الرحيم أن الشيخ عبد القادر عبد الباسط قاضي محكمة القضايف قال: كنت مسافرا للقضايف ولما بلغت حلة الرواشدة قلت لأحد سكان الحلة إني أخشى هطول المطر علينا، قال فتناول قصبه من الأرض ودفعها لي وقال: ما دامت هذه القصبه معك لن تری مطرا، قال فاحتفظت بها أثناء السير ولما رميت القصبه لأتني على بعد بضعة أميال فقط من منزلي هطل مطر غزير أخرنا ثلاثة أيام، هذا والشائع عنهم قدرتهم على جعل الشخص يسير في أثناء نزول المطر دون أن يصيبه البلل.

ومن الروايات الشفهية^{٣٤٨} أنه وفي أثناء مرور القوافل التي تجلب العيش أتى بعض الأعراب بالقرب من حلة، فنزل أحدهم وغشى أحد البيوت للشرب، فوجد امرأة سألها بعض الماء فأمرته بالدخول فدخل وشرب، ويقال أنه نام ثم لم يرجع لقافلته بعدها، وعاش مع المرأة حتى مرضت فكان أن أعطته أثناء مرضها بخسة وأمرته أن يضعها بالقرب من رأسها إذا توفيت. ويقال أن المرأة توفيت ولم يتذكر الرجل البخسة إلا عندما

٣٤٧ أنظر محمد عبد الرحيم، المصدر السابق.

٣٤٨ الراوي يوسف حسين قرية الشكابة.

هموا بإدخالها القبر فأوقفهم ورجع جاريا إلى المنزل ليأتي بالبخسة، وفي أثناء رجوعه وقع فانكسرت البخسة فجاء غاشيا الناس في المقابر، وسألهم إن كانوا قد رأوا قافلة مارة من هذا الطريق. فقالوا له يا أخي هذه التي تقوم بدفنها هي امرأتك فانكر ذلك إنكارا شديدا.

ويحكى أيضا أن أحد المزارعين اشتكى من مضايقات المفتش الزراعي لهم، قال فسمعت بأحد الزبالعة يسمى دار السلام فذهبت إليه وحكى له فكان أن كوم كومة من التراب أمامه، وبدا يدخل يده في التراب وعنده خيط يعقده ويدخله في التراب حتى وصل أربعة عشر عقدة، أعطاني إياه وأمرني بوضعه في طريق المفتش في الصباح، ويقال إن المفتش وبمجرد خروجه ذهب إلى مكتب المدير وأمر بان ينقل وقد كان.

وقد روى لي الشيخ إدريس مصطفى الأزرق من منطقة سنجة أن الشيخ عبد المحمود نور الدائم في حديثه عن مناقب الشيخ أحمد الطيب البشير قال أخبرني من أتق بهم بأن أحد إتباع طريقة أبو جريد تاب وانضم إلى سلك الشيخ، غير انه رجع عن ذلك فاستأذن شيخ الزبالعة للرجوع فأمره بترديد أذكارهم بالقرب من شجرة ومن ثم أتاه الشيخ من الخلف وضربه على كتفه فتقيا دما عميقا.

وما زال أحفادهم إلى اليوم يستعينون ببعض الأدعية المتوارثة لديهم والتي تستخدم للتحصين من السوء ومن أدعية التحصين لديهم:

فوقنا زريبة من زرايب الله

الزريبة ما زريبة شوك.... شوكة الملائكة غطاها محمد مفتاحها

بيك واتكلت عليك، ربي وحدك ما معاك شريك.

ومما يحكى عن فعالية تحصين الزبالعة بهذا الدعاء، أن جماعة من الزبالعة اضطرت للمبيت في الخلاء في زمن حرب بعد التحصين بهذا الدعاء، ويقال إن أحدهم سمع أثناء الليل من يقول لرفيقه هذه قطية فلنذهب لها، فقال له رفيقه هذه ليست بقطية فرمي بحربته تجاه القطية... وعندما أصبح الصباح لم يجد الزبالعة القطية التي باتوا فيها ووجدوا فقط بقايا الحربة.

خلاصة الأمر أن الزبالعة في العقل الجمعي لأتباع الطريقة ولمجموع السكان يتمتعون بالقدرة على صنع خوارق العادات دون أي ريبة أو شك في ذلك. هذه الصورة الذهنية للزبالعة كان لها أثارها الإيجابية والسلبية على حد سواء، فأتباع الطريقة استمدوا ولاءهم التام وتقديسهم لشييوخهم من الإيمان بهم والإيمان بأن الله اصطفاهم وحباهم بقدرات تفوق قدرات البشر العاديين، وهي في عرف الأتباع نوع من أنواع الكرامات، والإيمان بقدرات الزبالعة لم تقتصر فقط على أتباع الطريقة بل أن هذه الصورة الذهنية التي تكونت عنهم جعلتهم ملجأ لمجموع السكان، يلجئون إليهم في أوقات الحاجة. أما عند التحدث عن الآثار السلبية لهذه الصورة الذهنية فإنها بلا شك قد كانت مثار استنكار وتساؤل من البعض خصوصاً العلماء منهم، وكان لما ساد عن استعانتهم بالجن لتلبية كافة طلباتهم دوره في ازدياد جلب عداة الفئات الأخرى لهم باعتبارهم سحرة، وباعتبار أنهم يستعينون بقوى الجن على تحقيق أغراضهم.

الزبالعة: العداة السافرة وانهيار الطريقة:

لقد كان للمعتقد السائد عن الزبالعة باعتبارهم ملة خامسة تستعين بقوى الجن الدور البارز في العداة الذي جوبهت به الجماعة، إن ما قيل وانتشر عن الطريقة كان بلا شك هو العامل الحاسم في تراجعها ومن ثم انهيارها كتنظيم جماعي، لقد شمل العداة للجماعة كافة الطرق الصوفية والعلماء والناشطين في العمل الديني والاجتماعي، ومن بين هؤلاء الشيخ فرح ود تكتوك، وقد نخر الفلكلور الشعبي بالكثير من الروايات التي دارت حول العداة الشخصي بين الشيخ فرح وأتباع الطريقة، ويذكر أحفاد الزبالعة الحاليين بأن الشيخ فرح انتقل من الدمازين إلى بنسو خصيصاً لمواجهة الطريقة، وقد وصل العداة بينهم حد إلحاق الضرر به، ويقال أن كرين قد دعا دعوته التي راجت بين أتباعه بأن الشيخ فرح "ما يلقي اليورثه إلا كلامه"^{٣٤٩}، وقد تعرضوا له كثيراً فضربوه وأحرقوا منزله وحاولوا رميه في البحر حيث قال قولته الشهيرة التي أشرنا إليها سابقاً:
يا أبان طريقة مضلة..... يا أبان عملا ما هو لي الله

٣٤٩ يرد أحفاد الزبالعة العداة بين الشيخ فرح والزبالعة إلى النزاعات التي دارت بينهم حول ملكية بعض الأراضي.... ولربما كانت مقولة "ما يلقي البيورثوه إلا كلامه" دلالة على احتمال وجود نزاعات حول ملكية الأرض.

وقوله:

حيران أبوطورة

العشرة ما يقرأوا السورة

هذا وبتزايد المواجهات الشخصية بين الشيخ فرح ود نكتوك وأتباع الزبالعة يروي لنا الشيخ فرح القاسم عن مناظرة جرت بين الشيخ فرح والشيخ كرين ود عبدالله شيخ الطريقة في منطقة بنسو بالقرب من الروصيرص، بحضور حشد كبير من الناس وبرئاسة الشيخ مضوي.^{٣٥٠} وأن حثيثات المناظرة قد بنيت على شكوى لكرين، فحواها أن الشيخ فرح قد درج على سبهم والتعريض بهم من باب النميمة والغيبة، فكان رد الشيخ فرح " يعلم ربنا الوهاب إنني لم أبدا بالسباب، ولا يعرف طبعي النميمة والاعتياب، ولم أقل عنكم إلا الصواب، لأنكم مخالفون للسنة والكتاب" ومما وردنا في ردود الشيخ فرح على الشيخ كرين وهو يؤكد إسلامه وإيمانه وصلاته وصيامه قول الشيخ فرح:

صلاته أريته ما صلاتنا

المتروكة للبرد والشتا

زكاته أريته ما زكاتنا

البديها للسمين العاتي

خلوته أريته ما خلوتنا

أرضي أرضي^{٣٥١} وحاتي وحاتي

٣٥٠ روي هذه المناظرات هو الشيخ فرح القاسم ود الجيلي من قرية كساب الجعليين "ابريل ٨٢"، وقد كررها آخرون وقد رأيت عدم إيرادها بالتفصيل لأنها مبينة على الرواية فقط... وقد وجدت أن الكثير من أقوال الشيخ فرح المتناقلة عنه قد ألصقت بهذه المناظرة... وهو ما لا أجده دقيقا إذ أن ما ورد فيها يمكن أن يكون مقولات له ضمن نقده لكافة الطرق الصوفية.... الزبالعة لم تكن لهم خلاوي وضيوف كرات كرات كما ورد في الأحاديث المتناقلة عن الشيخ فرح. ٣٥١ ويمكن هنا أن نتساءل إلى أي حد يرتبط رد الشيخ فرح بما يشاع عن أن النزاع بين الشيخ فرح وشيوخ الزبالعة كان نزاعا على أراضي.

هذا وقد تألف في وقت لاحق مجلس علماء من كل من الشيخ سالم ود رابع الدويحي والفقير المصري ود قنديل البديري والفقير عمر جاه الله وآخرين التقوا على محاربة هذه الضلالة حد تعبيرهم، فتوزعوا في المناطق وطفقوا يجوبونها يلقون الخطب المثيرة ويفتون بكفر الزبالعة ويأمرون بوجوب محاربتهم، وكان أول من تصدى لجهاد الزبالعة الملك أحمد سليمان الملقب بقرن العليج ملك الجموعية، إذ حشد ٣٠٠٠ فارس وجرت بينهم حرب في وادي الكوت قريبا من محطة الباكير جنوب سوبا، وقد ثبت فيها الفريقان ثباتا مدهشا حتى قتل قرن العليج، ففر الجموعية بجيوشهم واندوا المحينة ملكا علي الجموعية، وقد عسكر فرسان الزبالعة في الجديد بعد فوزهم إلا أن الجموعية بدأت تطالب بالثأر، وألفت الأغاني الحماسية في رثاء الملك قرن العليج والحض على الأخذ بالثأر له، فاستجد الملك المحينة بالقبائل وسار إلى محاربتهم وانضمت له قبيلة الجموعية بقيادة الشيخ نائل أبي ضفيرة وقبائل السروراب والفتيحاب والعبدلاب بقيادة الشيخ عبدالله ود عجيب، ومدهم ملك سنار بجيش عظيم بقيادة مولاه أبي ريدة خميس والشيخ رحمة ود رحالة حتى بلغ عدد جيوش المحينة ٢٠٠٠٠ مقاتل بين فارس وراجل، واستمر القتال عام كامل خسر فيه الفريقان خسائر فادحة إلا أن الزبالعة وهنت قواهم ففروا متفرقين في البلاد، وسار بأثرهم الجموعية يقتلون ويأسرون حتى بلغ المنهزمون نهر ستيت وباسلام في جنوب كسلا، حيث استقروا هنالك، ولم يتجرا احدهم على العودة لوطنه إلا بعد دخول الأتراك في العام ١٨٢١م، حيث عادوا من جديد إلى ممارسة طقوس الجماعة بشكل سري، وعلى الرغم من أنهم كانوا يرفضون تسميتهم بالزبالعة، إلا أنهم كانوا معروفين لدى الأهالي. وقد استقروا بعد عودتهم من الشرق في المنطقة غرب الحاج عبدالله وشرق النيل تجاه مدني، كما سار بعض سكان جبل كرن في جبال تقلي على نهج الجماعة، فسار إليهم الفقير بدوي أبو صافية بجيش عظيم إلا أنهم قابلوه تائبين مستغفرين^{٣٥٢}

٣٥٢ تم تجميع هذه المعلومات من وثائق الكدرو وسنار ووثائق وسنجة ووثائق تحت الرقم ٢-٣٢-٢.

٧٠
انظر أيضا Willis C. Arminne, Religious Confrontations Of The Sudan, Snr, V. 1v, 1920 Ch "1" & "2"

أيضا General Notes On Tarkas In The Sudan, Intel 2/32/261. Sudan Inteligencia Report No 79- 1901- Intel 6/1/1

الملاحق

ملحق رقم (١)

تواريخ مهمة:

➤ سلطنة الفونج (١٥٠٤م-١٨٢١م).

ملوكها:

- (١) عمارة دونقس ١٥٠٤م
- (٢) عبدالقادر بن عمارة دونقس ١٥٣٣م
- (٣) نايل بن عمارة دونقس ١٥٤٣م
- (٤) عمارة ابو سكيكين ١٥٥٤م
- (٥) دكين ودنايل ١٥٦٢م
- (٦) طبل الأول بن عبد القادر ١٥٧٧م
- (٧) اونسة الأول بن طبل ١٥٨٩م
- (٨) عبد القادر الثاني بن اونسة ١٥٩٨م
- (٩) عدلان الأول ولد اية ١٦٠٤-١٦١١م
- (١٠) بادي الأول سيد القوم بن عبد القادر ١٦١١م
- (١١) رباط بن بادي الأول ١٦١٤م
- (١٢) بادي الثاني بن رباط (أبو دقن) ١٦٤٢م
- (١٣) اونسة الثاني ولد ناصر ١٦٧٧م
- (١٤) بادي الثالث بن اونسة الثاني (الأحمر) ١٦٨٩م
- (١٥) اونسة الثالث بن بادي الثالث ١٧١٥م
- (١٦) نول بن بادي ١٧١٨م
- (١٧) بادي الرابع أبو شلوخ بن نول ١٧٢٣م
- (١٨) ناصر بن بادي الرابع أبو شلوخ ١٧٦١م
- (١٩) إسماعيل بن بادي الرابع ١٧٦٨م
- (٢٠) عدلان الثاني بن إسماعيل ١٧٧٨م

- (٢١) أوكل بن اونسة ١٧٨٨م
(٢٢) طبل الثاني ١٧٨٩م
(٢٣) بادى الخامس بن دكين ١٧٨٩م
(٢٤) حسب ربه ١٧٨٩م
(٢٥) نوار ١٧٩٠م
(٢٦) بادى السادس ود طبل ١٧٩٠م
(٢٧) رانفي
(٢٨) بادى الخامس ود طبل الثاني ١٨٢١-١٨٠٣م
- مملكة نقلي (١٥٣٠م-١٨٢١م).
➤ سلطنة الفور (١٦٥٠م-١٩١٦م)
➤ مملكة المسبعات (١٦٦٠م-١٧٥٠م).
➤ الحكم التركي/ المصري ١٨٢١ - ١٨٨٩

ملحق رقم (٢)

معاهدة البقظ

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حدّ أرض أسوان إلى حدّ أرض علوة. أنّ عبد الله ابن سعد جعل لهم أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وإنّ عليكم ردّ كل أبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردّوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصلين، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمت، وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب، يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان، وليس على مسلم دفع عدوّ عرض لكم ولا منعه عنكم من حدّ أرض علوة إلى أرض أسوان، فإن أنتم أوّيتم عبد المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرّضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئاً من الثلثمائة رأس والستين رأساً، فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعرضا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. علينا بذلك عهد الله وميثاقه ودمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدّينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملئكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة إحدى وثلاثين.

ملحق رقم (٣)

نص معاهدة الصلح بين عبدالله بن أبي الجهم رسول المأمون والملك كنون بن عبد العزيز ملك النوبة

هذا كتاب كتبه عبدالله بن الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير أبي اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد أباه الله في شهر ربيع الأول سنة ست عشرة ومائتين لـ كنون بن عبد العزيز عظيم البجة بـ أسوان أنك سألتني وطلبت إلى أن أؤمّنك وأهل بلدك من البجة وأعد لك ولهم أماناً عليّ وعلى جميع المسلمين فأجبتك إلى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبدالله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين إلا أنك تكون في بلدك ملكاً على ما أنت عليه في البجة وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وازنة داخله في بيت المال والخيار في ذلك لأمير المؤمنين ولولاته وليس لك أن تحرم شيئاً عليك من الخراج وعلى أن كل أحد منكم إن ذكر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الذمة نمة الله وذنمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذنمة أمير المؤمنين أعزه الله وذنمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذرائعهم وعلى أن أحداً منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام بمال أو دله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين أو أصاب لأحد من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجة أو ببلاد الإسلام أو ببلاد النوبة أو في شيء من البلدان براً أو بحراً فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفي كل مال أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشرى أضاعفه وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجاً فهو آمن فيكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تؤوا أحداً من أبقي المسلمين فإن أتاكم آت فعليكم أن تردوه إلى المسلمين وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا منونة تلزمهم في ذلك وعلى أنكم إن نزلتم ريف

صعيد مصر لتجارة أو مجتازين لا تظهرون سلاحاً ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها براً ولا بحراً ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة ولا تسرقوا لمسلم ولا نمي مالا وعلى ألا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة وعلى أن كنون بن عبد العزيز يقيم بريف صعيد مصر وكيلاً في المسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما أصابه البجة للمسلمين من دم ومال وعلى أن أحداً من البجة لا يعترض حداً لقصر إلى قرية يقال لها قبان من بلد النوبة حداً لأعمدة عقد عبدالله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لكون بن عبد العزيز كبير البجة الأمان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين فإن زاغ كنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة وعلى كنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة وعلى كنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم واخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق ولكنون بن عبد العزيز ولجميع البجة عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبدالله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بالوفاء بما أعطاه عبدالله بن الجهم ما وفى كنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه فإن غير كنون أو بدل أحد من البجة فذمة الله جل اسمه وذمة أمير المؤمنين وذمة الأمير أبي اسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبدالله بن الجهم وذمة المسلمين برينة منهم وترجم جميع ما فى هذا الكتاب حرفاً حرفاً زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله بن إسماعيل القرشي.

ملحق رقم (٤)

فروع قبيلة كنانة^{٢٥٢}

تعد قبائل كنانة من قبائل قريش التي دخلت السودان عن طريق مصر وهم عنصر ويرجعون بنسبهم إلى كنانة، وهو كنانة بن خزيمه بن مدركه بن إلياس بن مضر نزار بن معد بن عدنان جد النبي صلى الله عليه وسلم، وقبائل كنانة في السودان قبائل رعوية متنقلة وموطنهم المراعي الصالحة لإبلهم ويشتهرون بالكرم والشجاعة، وقد استقرت مجموعات من كنانة في النيل الأزرق في شمال الروصيرص وفي غربها في قرى طيبة البيلاب والعزاة وجبل القرى غرب الروصيرص والمسيد وفي غرب الدمازين في قرية أبو رماد وفي قرية أقدي، وفي أقدي المذكورة لديهم عمودية، وكما استقرت مجموعات منهم في سنار في أم بنين وجبل موية وجبل سقدي وحول سنجة ومجموعة أخرى في النيل الأبيض في وحول مصنع كنانة وفي كردفان استقرت مجموعات منهم مع الكبابيش ومجموعة في القصارف، وينقسمون إلى ثلاثة مجموعات: السراجية، وأبو ريحان، والكواتيل ومن أهم فروع كنانة (أم الطاهر والرئيسية، السراجية، أبو ريحان، الكواتيل، البيلاب، مجموعات كنانة التي استقرت في غرب السودان هي فروع السواراب وبعض من السراجية، الأصالعة، الداودية، الفهرية، أولاد هزيل، الفخرية والعلونة.

وقد استقر بعضهم في أبو جبيهة وجبال النوبة والديببات ودره بالدلنج والراجية والنترن وآخرين منهم سكنوا الجزيرة المروية عمودية الحوش وود فقدة وبنات بشر والعمرية والدوحة والنقير وقدم الشريعة، ومعظمهم يعيش في جنوب سنجة وسنار مع قبيلة رفاعة، وفي موسم الأمطار يرتحلون إلى البطانة من جهة سقدي وموية من جهة أخرى.. ويعيش بعضهم مع الحوازمة في كردفان. وهؤلاء ستة أقسام: السواراب، والسراجية، والأصالعة، الداودية، والفهرية، وفي رواية للفخرية، والعلونة.

وفي منطقة النيل الأزرق توجد لهم نظارتين شاطئ النيل الغربي وتضم حلالات قرية سعاد وقرى الدالي وود النيل وهناك نظارة كنانة الكواتيل وتمتد حتى حدود الكرمك

^{٢٥٢} معلومات مجمعة من الشبكة العنكبوتية ومن أحاديث الرواة.

والحبشة جنوبا وهي كلها من كنانة الكوائيل وتضم (أولاد داوود، أولاد يس، البليلاب،
الفخرية و(منهم عبد اله ود الحسن مؤسس سنجة عبد الله) علاونة وجابر) كنانة
السراجية وكانت تسكن البادية الشرقية للنيل الأزرق وهو ما يعرف ببطانة كنانة
واشتهروا بجمالهم الصهبياء، كانت القبيلة تابعة لمديرية الفونج ولكن حصول بعض
المؤامرات دعتهم أن يكونوا تابعين للقضارف.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع العربية:

١. إبراهيم بدران وسلوى الخماش، *دراسات في العقلية العربية: الخرافة، دار الحقيقة* بيروت، ١٩٧٢.
٢. ابن بطوطة، شمس الدين أبو عبد الله، *تحفة للنظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار رحلة ابن بطوطة*، دار بيروت، ١٩٦٤م.
٣. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني أبو العباس، *التهويمات*، دار الفكر، بيروت، ١٩٦٨م.
٤. ابن الجوزي أبي الفرج، عبد الرحمن بن علي، *تلبيس إبليس*، دار للكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٤.
٥. ابن حزم، أبي محمد علي بن حزم الأندلسي، *الفصل في الملل والأهواء والنحل*.
٦. ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيب، *صورة الأرض*، مكتبة دار الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
٧. ابن حوقل أبو القاسم محمد النصيب، *لممالك والممالك*، ١٨٧٣.
٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، *العبر وبيوان المبدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، دار للكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.
٩. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، *المقدمة*، ط١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ.
١٠. البلازدي، أبو جعفر أحمد بن يحيى، *معجم فتوح البلدان*، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.
١١. أحمد بن الحاج، *مخطوطة كتاب الشونة*، تحقيق للشاطر البصلي عبد الجليل، دار أحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
١٢. أحمد عبد الرحيم نصر، *تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية*، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم، ١٩٦٩.
١٣. أحمد غلبي، الإسلام والمنهج التقليدي.
١٤. أرنولد توماس ولكر، *الدعوة إلى الإسلام*، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

١٥. الأسواني، ابن سليم: *أخبار النوبة*، (المواعظ والاعتبار للمقريزي)، ج ١ المطبعة الأميرية للقاهرة ١٢٧٠هـ.
١٦. ليفانوف فلاديمير، *الإسماعيلية*، ملحق للطبعة الأولى لدائرة المعارف الإسلامية
١٧. بابكر بدري، *الأمثال للسودانية*، هنا لم درمان، عدد ١٧.
١٨. بلربر ك. م، *سكان السودان*، ترجمة هنري رياض وآخرون، مكتبة النهضة الخرطوم، بدون تاريخ.
١٩. البغدادي، أبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد، الفرق بين الفرق، مكتبة نيوبولد، بدون تاريخ.
٢٠. بروكلمان تاريخ للشعوب الإسلامية العرب والإمبراطورية العربية، ترجمة أمين تاندرس ومثير البعلبكي.
٢١. بوركهارت، جون لويس، *رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان*، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة ١٩٥٩.
٢٢. بوسيني، *بلاد النوبة في العصور الوسطى*، ترجمة نجم الدين محمد شريف.
٢٣. التونسي، محمد بن عمر، *تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان*، تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
٢٤. التونسي، محمد بن عمر، *لهجات الفور*، ملحق بكتاب *تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان*، تحقيق خليل عساكر ومصطفى مسعد ومحمد زيادة، القاهرة، للدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٥م.
٢٥. جيوفاني فانتيني، *تاريخ المسيحية في ممالك النوبة القديمة والسودان الحديث*، للخرطوم، ١٩٧٨م.
٢٦. للبير نصري نادر، *التصوف الإسلامي*، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٠.
٢٧. جورج زبدان، *تاريخ الإسلام العام*.
٢٨. حسن إبراهيم حسن، *انتشار الإسلام في القارة الأفريقية*، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م.
٢٩. حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م.
٣٠. حسن احمد محمود، *الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا*، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣١. حسن محمد الفاتح قريب الله، *التصوف في السودان إلى نهاية عصر الفونج*، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم، ١٩٦٥.
٣٢. حسن محمد جوهر وحسين مخلوف، *السودان: أرضه تاريخه حياة شعبه*، دار الكتب، مصر، ١٩٧٠م.
٣٣. حسين مروة، *الفرعات المانية في الفلسفة الإسلامية*، الفارابي للنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٣٤. الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبدالله، *معجم البلدان*، القاهرة، ١٩٠٦م.
٣٥. لحنيلي، ابن العماد، *شئرات الذهب*، ج ١، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
٣٦. خليل أحمد خليل، *مضمون الأسطورة في الفكر العربي*، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٠.
٣٧. دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث.
٣٨. دار الوثائق المركزية/ مخابرات/ وثائق للكدرو/ وثائق سنجة/ وثائق سنار.
٣٩. دار المحفوظات المركزية، وزارة الداخلية، مخطوطات للعركيين.
٤٠. النديمي، محمد الحسن، *بيان مذهب الباطنية وبطلانه*، مكتبة المعارف، ١٩٨٢م.
٤١. رينولد. ١. نيكولسون، *في التصوف الإسلامي وتاريخه*، ترجمة وتحقيق أبو العلاء عفيفي، القاهرة، مطبعة لجنة للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٧م.
٤٢. زكي مبارك، *التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق*، بيروت، ١٩٣٨.
٤٣. لشاطر البصيلي عبد الجليل، *تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر الميلادي*، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٣.
٤٤. لشاطر بصيلي عبد الجليل، *مخطوطة كاتب للشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية*، وزارة الثقافة والإرشاد، بدون تاريخ.
٤٥. لشاطر البصيلي عبد الجليل، *معالم تاريخ السودان ولدى النيل*، مطبعة أبو فاضل، القاهرة، ١٩٥٥م.
٤٦. شعبة للفلكلور، معهد للدراسات الأفريقية والآسيوية، م/د/أ/ (٥٦٧) فلاتة وأيضا تاريخ الخلاوي/ الطرق للصوفية/ دور المرأة في التعليم الديني.
٤٧. شوقي للجمال، *تاريخ السودان ولدى النيل: حضارته وعلاقته بمصر من أقدم العصور إلى الآن*، مكتبة الأنجلو مصرية، للقاهرة ١٩٦٩ م.
٤٨. صائق جلال العظم، *نقد الفكر الديني*، بيروت، ١٩٦٩م.
٤٩. صبحي أسكندر، *تاريخ اساقفة النوبة الأرثوذكس*، الخرطوم، ١٩٧٠ م.
٥٠. الأصفهانى، أبي الفرج علي بن الحسين، *الأغاني*، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٥.

٥١. ضرار صالح ضرار، *تاريخ السودان الحديث*، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٣٩٥هـ.
٥٢. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، *تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.
٥٣. الطبري، *تاريخ الرسل والأنبياء والملوك*، بيروت ١٩٦٨م.
٥٤. *الطريق في السودان* لفصل الثاني Intel 2/32/270 _ pp24.
٥٥. طريف للخالدي، *دراسات في تاريخ الفكر العربي الإسلامي*، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.
٥٦. الطيب محمد لطيب، *فرح ود تكتوك حلال المشبوك*، ١٠٤٧ - ١١٤٧هـ، دار الطابع العربي، الخرطوم، ١٩٧٧.
٥٧. عادل للعدا، *منتجيات اسماعيلية*، دمشق، ١٩٥٨م.
٥٨. عبد القادر محمود، *الفكر الصوفي في السودان*، مطبعة المعرفة، القاهرة، ١٩٦٧م.
٥٩. عبد الغفار محمد احمد، *للمجتمع الريفي السوداني عنصر حركته واتجاهاته*، جامعة الخرطوم ١٩٨٢.
٦٠. عبد المجيد عابدين، *تاريخ الثقافة العربية في السودان: منذ نشأتها إلى العصر الحديث*، مكتبة الشبشيكي، القاهرة، ١٩٥٣.
٦١. عبد المجيد عابدين، *قبائل من السودان الأوسط والغرب*، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٧٢.
٦٢. عبد المجيد عابدين، *القبائل العربية في وادي النيل*، بحث في ذيل كتاب البيان والإعراب للمقريزي، عالم للكتب، القاهرة، ١٩٦١م.
٦٣. عبدالله حسين، *تاريخ السودان القديم*، القاهرة، ١٩٣٥.
٦٤. عبدالله عيدا لرحمن الأمين، *العربية في السودان*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٦٧م.
٦٥. عبدالله علي إبراهيم، *الصراع بين المهدي والعلماء*، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم، ١٩٦٨م.
٦٦. عبد الرحمن بدوي، *تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني*، الكويت، ١٩٧٨.
٦٧. عبد الوهاب الشعراني، *الأنوار القنمية في معرفة قواعد الصوفية*، بيروت، لبنان.
٦٨. علي عثمان، *مجلة الثقافة السودانية*، العدد ١٦، ديسمبر ١٩٥٠.

٦٩. العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي، *مسالك الأبصار في ممالك الأمصار*.
٧٠. عوض السيد الكرسي، *دور التجارة في دولة الفونج*، مقال، جامعة الخرطوم.
٧١. عون الشريف قاسم، *قاموس اللهجة العامية في السودان*، دار للثقافة، بيروت، ١٩٨٤.
٧٢. الغزالي، أبو حامد، *فضائل الباطنية وفضائل المستظهيرية*، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي، للدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.
٧٣. الغزالي، أبو حامد، *المنقذ من الضلال*، المكتبة الشرقية، بيروت، ١٩٦٩.
٧٤. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، *صبح الأعشى*، دار للكتب المصري، القاهرة، ١٩٢٢.
٧٥. كامل مصطفى الشبيبي، *الصلة بين التشيع والتصوف*، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٢م.
٧٦. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، *الأحكام السلطانية*، دار للكتب العلمية، بيروت.
٧٧. محمد إبراهيم أبوسليم، *الفونج والأرض (وثائق تملك)*، شعبة أبحاث السودان، الخرطوم، ١٩٦٧.
٧٨. محمد المبارك عبدالله، *في التصوف*، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الخرطوم، ١٩٧٧م.
٧٩. محمد المبارك عبدالله، *دراسات في تاريخ الفكر الإسلامي*، دار للفكر الإسلامي، مصر، ١٩٥٩م.
٨٠. محمد المكي إبراهيم، *الفكر السوداني: أصوله وتطوره*، وزارة الثقافة والإعلام، الخرطوم ١٩٧٦م.
٨١. محمد سعيد القدال، *المهدية والحيشة*، دار الجيل، ١٩٧٣.
٨٢. محمد عبد الحي، *الأسطورة والتاريخ في طبقات ود ضيف الله*، جريدة للصحافة، الجمعة ١٤ مارس، ١٩٧٥.
٨٣. محمد عبد الرحيم، *النداء في نفع الاقتراء*، مطبعة للبرلمان، القاهرة، ١٩٥٣م.
٨٤. محمد عوض محمد، *السودان الشمالي سكانه وقبائله*، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
٨٥. محمد فوزي مصطفى عبد الرحمن، *الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر*، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٧٣م. محمد فوزي مصطفى، *الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان*، بيروت ١٩٦٢،

٨٦. محمود إسماعيل، *تاريخ الحركات السرية في الإسلام*، رؤية عصرية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.
٨٧. محمود أبو الفيض المنوفي، *المنخل إلى التصوف الإسلامي*، الدار القومية، القاهرة، د. ت.
٨٨. مخابرات ٢/٣٢/٢٧٠ دار الوثائق المركزية.
٨٩. مخطوطة إسماعيل بن الشيخ مكي الدقلاشي.
٩٠. المسعودي، علي بن الحسن، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، بيروت، ١٩٦٨ م.
٩١. مصطفى حجازي *التخلف الاجتماعي: مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور*، معهد الإنماء العربي بيروت، ١٩٨١ م.
٩٢. مصطفى غالب، *تاريخ الدعوة الإسلامية*، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
٩٣. مصطفى محمد سعد، *الإسلام والتوبة في العصور الوسطى*، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٠ م.
٩٤. مصطفى محمد سعد سعد، *مجموعة للنصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى*، القاهرة، ١٩٧٢.
٩٥. المقرئزي، *البيان والأعراب عما يمرض مصر من الأعراب*، تحقيق عبد المجيد عابدين، القاهرة، ١٩٦١ م.
٩٦. المقرئزي: *تقي الدين أحمد بن علي، المواظ والإصطبار بذكر الخطط والآثار*، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٧٠ م.
٩٧. مكي شبكة، *السودان عبر القرون*، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.
٩٨. مكي شبكة، *تاريخ ولدي النيل*، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥ م.
٩٩. مكي شبكة، *مملكة الفونج الإسلامية*، القاهرة، ١٩٦٣.
١٠٠. نوم شقير، *تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته*، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦١ م.
١٠١. نوم شقير، *جغرافية وتاريخ السودان*، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧ م.
١٠٢. هيلسون ج. ر.، *جماعة أبي جريد*، السودان في رسائل ومدونات، الجزء الأول سنة ١٩١٨ م.

١٠٣. ود ضيف الله، محمد للنور بن ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، حققه يوسف فضل حسن، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ١٩٧٤.
١٠٤. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م
١٠٥. اليعقوبي، كتاب البلدان، للطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٥٧م،
١٠٦. يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان وإفريقيا وبلاد العرب، دار جامعه الخرطوم للتأليف والنشر، الخرطوم، ١٩٧٥.
١٠٧. يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي ١٤٥٠م - ١٨٢١م، معهد للبحوث والدراسات العربية، للقاهرة، ١٩٧١م.

1. Arkell, A. J., *Funj Origins*, SNR, Vol. X (1932) Pp 201.
2. Arkell, A. J. *A History Of The Sudan: From The Earliest Times To 1821*. London,
3. Barbour K. M, *The Republic Of The Sudan: A Regional Geography*, London. 1961.
4. Barbour, K M, *The Republic Of The Sudan A Regional Geography*, London 1961.
5. Berckhardt, J. L., *Travels In Nubian*, Cregg International Publications, 1968.
6. Bruce, J., *Travels To Discover The Source Of The Nile In The Years 1768-1777*.
7. Budge, E.A.W, *The Egyptian Sudan* , VOL 11. 1912.
8. Chataway, J. D. P., *Notes On The History Of The Funj*, SNR Vol X111 (1930)
9. Crawford. O. G. S., *The Funj Kingdom Of Sennar With Geographical Account Of The Middle Nile Region*, SNR,1945, PP333.
10. Disney, A. W. M., *The Coronation Of The Funj King Of Fazougli*, SNR., Vol xxvi, 1945, Pp 37.
11. Hassan, Y. F., *The Arabs And The Sudan*, Edinburgh University Press, 1967.
12. Herodotus, *Histories* Vol 1 London 1964.
13. Hilleson, J. r., *The People Of Abu Jarid*, SNR, Khartoum, 1918, PP 170.
14. Holt, P. M, *Funj Origins A Critique And New Evidence*, Journal of African History, Vol. IV, 1963, PP 39-55.

15. Holt. . M., *The Origin Of Islam Studies*, In AL- Kulliya, Khartoum, No.1, 1952, Pp.20-27.
16. Idris Salim, *Introduction Of Tung In To The Sudan*,
17. Intel 2/32/261, and Intel 2/32/270, *General Notes On Tarikes In The Sudan*.
18. McMichael, H.A., *The Coming Of Arabs In Sudan*, AESW, London 1935.
19. McMichael, H.A., *History Of The Arabs In The Sudan*, London, 1967 .
20. Ofahy, R. S. And Spaulding, J L, *Kingdom Of The Sudan*, London, 1974.
21. Reid, SNR, 1930, PP 13.
22. Rosenthal, J., *Some Aspects Of Islamic Political Thought*, Cambridge, 1971.
23. Spaulding, J. L, *The Evolution Of Islamic Judiciary In Sennar*, The International Journal For Historical Studies, V. X, 1977, Pp 408.
24. Spaulding, J. L., *The Sudanese Travels Of Theodore Krump 1700 – 1702*, translated from the Franciscan Missionary, Hambata Publications, 1979.
25. Sudan Intelligence Report No 79 -1901-Intel 6L1L1
26. Trimingham J. S., *Islam In The Sudan*, Oxford, 1965.
27. Willis, C., *Armine Religious Confraternities Of The Sudan*, SNR, v.17, 1920 Ch 1 And 11
28. Wladimir Ivanov, *Ismailia Tradition Concerning The Rise Of The Fatimid's: Brief Survey Of The Evolution Of Ismailism*, Leiden. 1952.

فهرس

٥	إهداء
٧	شكر وتقدير
٩	الزبالة: من شخير التاريخ إلى صحوه - بروفير عبدالله علي إبراهيم
١٩	تصدير
٢٥	الفصل الأول: الملامح الأساسية للبنية الاقتصادية الاجتماعية
٢٥	♦ الملامح الأساسية للبنية الاقتصادية الاجتماعية
٢٨	♦ الإقليم الشمالي
٢٩	♦ المنطقة الوسطى
٢٩	♦ الإقليم الجنوبي
٣٠	♦ للشعب
٣٣	♦ البنية الثقافية لمجتمع النوبة
٣٤	♦ الديانات الوثنية
٣٧	♦ الديانة اليهودية
٣٨	♦ الديانة المسيحية ودخولها في السودان
٤٣	الفصل الثاني: الهجرة العربية وانتشار الإسلام في السودان
٤٣	♦ الهجرة العربية وانتشار الإسلام في السودان
٤٦	♦ التطور التاريخي للهجرة العربية وأهدافها
٥٣	♦ أغراض الهجرة العربية إلى السودان
٦٣	الفصل الثالث: مظاهر الثقافة الإسلامية في دولة الفونج
٧٢	♦ نماذج من المعتقدات الشعبية في دولة الفونج
٧٢	♦ أولاً: القتل للطقسي عند الفونج
٧٣	♦ ثانياً: مرج الشمس
٧٣	♦ ثالثاً المعتقدات المتصلة بالزرع

٧٤	❖ رابعاً: تجسيد الجن واعتقادات أخرى
٧٤	❖ الممزوقة
٧٥	❖ الشجر والحجر
٧٦	❖ للتاريخ والمغزى
٨٨	❖ باب الكرامات والفعل الخارق للعادة
٨٩	❖ المدلول الديني
١٠١	الفصل الرابع: الحركات الباطنية في الإسلام
١٠٥	❖ مدلول كلمة الباطنية
١٠٧	❖ الظاهر والباطن والصلة بين الفكر الباطني والتشيع والتصوف
١١٢	❖ الفرق الباطنية
١١٥	❖ البنية الاقتصادية والاجتماعية
١٢١	❖ الفلسفة الباطنية
١٢٩	الفصل الخامس: الإسلام الباطني في السودان
١٢٩	❖ الإسلام الباطني في السودان
١٣١	❖ الطرق الصوفية في السودان
١٣٢	❖ الملامتية
١٣٤	❖ اتجاهات فردية
١٣٩	الفصل السادس: حركة الزبالة
١٣٩	❖ حركة الزبالة
١٣٩	❖ زبالة
١٤٠	❖ للكلمة زبالة
١٤٢	❖ للزبالة أو جماعة أبى جريد: النشأة والتطور
١٥١	❖ للمناطق والقبائل التي انتشرت بينها للطريقة
١٥٧	❖ أصل التسمية بأبى جريد
١٦٠	❖ للمعتقدات والممارسات
١٨٣	❖ معتقدات الزبالة من أذاكارهم

- ❖ ليالي الذكر والإباحة لدى الزبالة ١٨٦
- ❖ طريقة الانضمام للطريقة ١٩٧
- ❖ آلية اختيار الشيوخ ٢٠٢
- ❖ التنظيم والتوزيع ٢٠٤
- ❖ العلاقة بين الرجل والمرأة ٢٠٥
- ❖ المحرمات عند الزبالة ٢٠٧
- ❖ من عادات الزبالة ٢٠٩
- ❖ طريقة تحية أعضاء الطريقة ٢٠٩
- ❖ معجزات الزبالة ٢١٠
- ❖ الزبالة: العداء للسافر وانهيار الطريقة ٢١٧

الملاحق

- ❖ ملحق رقم (١) تواريخ مهمة ٢٢١
- ❖ ملحق رقم (٢) معاهدة البقط. ٢٢٣
- ❖ ملحق رقم (٣) صلح كنوف بن عبد العزيز ٢٢٥
- ❖ ملحق رقم (٤) يوضح فروع قبيلة كنانة ٢٢٧

المصادر والمراجع

- ❖ المراجع العربية ٢٢٩
- ❖ المراجع الإنجليزية ٢٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا اله الا هو
 ان الناس قد جمعوا لكم وصالحوا فمعاذ الله
 وقال حسبي الله ونعم الوكيل فانقلب ميتا
 رجلا فلا يحسبني الله مع الساعين فاعلموا ان الله
 هو الغني العظيم والحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم
 مالك يوم الدين اياك نعبد واياك نستعين اهتدنا
 الصراط المستقيم صراط الذي لا نبي الا بامر الله
 الذي خلقة وما من شيء الا عن عنده لاجل علمه
 لا يشركه شيئا في السموات والارض
 الذي لا يلهي عنه شيء هو الغني العليم
 الذي لا يلهي عنه شيء هو الغني العليم
 الذي لا يلهي عنه شيء هو الغني العليم

د	ط	ب
ح	هـ	ز
ع	ا	و

بحر الدنيا قال لهم
 عشوهم قنارهم ايمان
 لو كليل فاقابلو بغيره
 هو وانتهى صراخ الله
 الله رب العالمين ارحم الراحمين
 واما ان تستعين الله
 اط الدنيا انتم عليهم
 ورا القليل من
 لنا من الذي يطمعنا
 فهو يشبه الله لا اله
 سبه ولا تقوى له ما في السموات
 سبه الا يذنه ليحكم ما يريد
 وما يشي ما يشاء الا ما شاء

د	ط	يا
2	هـ	ر
2	ا	و

